



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم والبحث العلمي

جامعة عمار ثليجي الأغواط

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي



دراسات نقدية حديثة ومعاصرة

الموضوع:

## المدينة في الرواية الجزائرية

رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الآداب واللغة العربية

تخصص: دراسات نقدية حديثة ومعاصرة

الدكتور المشرف: الأخضر بن السائح

إعداد الباحثة: جريدان إيمان

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	المؤسسة	الصفة
أد/فنتازي محمد	أستاذ	جامعة الأغواط	رئيسا
الأخضر بن السائح	أستاذ	جامعة الأغواط	مشرفا ومقررا
أد/ميهوب جعيرن	أستاذ	جامعة الأغواط	مناقشا
أد/بولنوار سعد	أستاذ	جامعة الجلفة	مناقشا
أد/مرزوق أبوبكر	أستاذ	جامعة الأغواط	مناقشا
د/قناني ميلود	أستاذ محاضر أ	جامعة الجلفة	مناقشا

السنة الجامعية

2022-2021



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم والبحث العلمي  
جامعة عمار ثليجي الأغواط  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية  
قسم اللغة العربية وآدابها



## المدينة في الرواية الجزائرية

رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الآداب واللغة العربية  
تخصص: دراسات نقدية حديثة ومعاصرة

الدكتور المشرف: الأخضر بن السائح

إعداد الباحثة: جريدان إيمان

السنة الجامعية

2022-2021

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي  
بَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ  
مِنْ طِينٍ مِمَّا يَخْتَارُ  
ثُمَّ عَلَّمَهُ الْقُرْآنَ  
وَجَعَلَ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ  
إِبْرَاهِيمَ إِمْرًا  
وَجَعَلَ الْإِسْلَامَ  
دِينًا





الإهداء

إلى روح أبي..

الشيخ الإمام محمد جبران أفلاطون

الذي علمته العبادة عمق الحياة....

منذ أن غيبتك المنية.. انطفأت السعادة بداخلي..

ولم يبق لي سوى مسرات صغيرة أكلّم بها شتاتي..

في انتظار أن ألقاك.

إيمان

## شكر وعرهان

لى مشرفى اللى اساتذ اللى اساتذ اللى اساتذ...  
الى مشرفى اللى اساتذ اللى اساتذ اللى اساتذ...

كامل امتناني وعرهاني.. فلولا عمق توجيهاتك

ومساحة حرية الإبداع التي منحتني إياها

لما كان لهذه الدراسة أن تكون.

لى كل من ورسني يوما...

لى كل أساتذة قسم اللغة والأدب العربي بجامعة عمار ثلجي.

# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد:

شغلت المدينة فكر واهتمام الأدباء والنقاد منذ القدم. وبقي الاهتمام بها متواصلا ليومنا هذا. فتناولوها في مختلف أبعادها الفلسفية والتاريخية والاجتماعية والجمالية والجغرافية والطبوغرافية. وتطرقوا لعلاقتها بالفكر والاعتراب والتشظي والتأزم الهوياتي. والصراعات العقائدية والثقافية والإثنية والجغرافية والتاريخية. فظهرت بذلك أساطير وملاحم وأشعار ومقامات وقصص وسير وروايات ومسرحيات، ومقالات ودراسات نقدية، وملتقيات وطنية ودولية تتناول مواضيع كثيرة وعميقة خاصة بالحرب والسلطة والعنف والفساد، والصراع بين الأنا والآخر. والمرأة والهجرة والنفي والأرض والعمارة والحب والصدقة والجمال واللذة في المدينة. فضلا عن الأنساق الثقافية، والأبعاد الاجتماعية والحضارية للمدينة.

انطلاقا مما سبق، ولكون المدينة موضوعا مهما تقتضيه المرحلة الأدبية والنقدية الراهنة. اخترنا البحث فيه في دراساتنا هذه الموسومة بـ (المدينة في الرواية الجزائرية). والتي رصدنا فيها مدى حضور المدينة في الأعمال الروائية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، والرواية الجزائرية المترجمة من لغات أخرى كالإيطالية والفرنسية. منذ ثلاثينات القرن العشرين إلى الوقت الراهن. أي أننا تتبعنا حضور المدينة في الرواية الجزائرية منذ نشأتها المبكرة إلى الوقت الحالي. في الفترتين الكولونيالية، وما بعد الكولونيالية. رغبة منا في إعطاء نظرة كافية عن الموضوع. وكذلك لنصبغ أحكام ونتائج دراساتنا بالموضوعية والشمولية، بدلا من إصدار أحكام ونتائج انطلاقا من عينة محددة في فترة بعينها أو لكاتب واحد أو كاتبين.

نود الإشارة فقط، أن اقتباساتنا كانت من روايات رأينا أنها تستحق إيرادها في دراساتنا لأسباب عديدة أهمها مدى حضور المدينة، لا من حيث كونها كتلا إسمتية صماء، ولا من حيث كونها مجرد مسرح لتحرك شخصيات العمل الروائي، بل من حيث أنها نسق من العلامات قابلة للقراءة السيميائية. في حين أننا اكتفينا بالإشارة إلى بعضها دون اقتباس شواهد منها. من مثل رواية (ريح الجنوب) لعبد الحميد بن هدوقة. و(عرس بغل) للطاهر وطار. تجنبنا لتكرار ما تم طرحه قبلنا. دون أن ننفي عامل الرغبة والميولات الشخصية.

يقينا، فلا بد لكل دراسة أن تحدد إشكالياتها وأهدافها ومنهجها وخطتها. فأما الإشكالية الرئيسية فقد حددناها  
بسؤال مفصلي، وهو:

ما مدى حضور المدينة في الرواية الجزائرية؟

فضلا، عن عدة أسئلة فرعية:

- كيف قدم الروائي الجزائري مدينته؟
  - هل رصدت الرواية الجزائرية مسار تحولات المدن؟
  - هل نقل الروائي الجزائري صورة واضحة للأبعاد السوسيوثقافية لمعمارية مدينته؟
  - ماهي أهم التقنيات والاستراتيجيات التي اتخذها الروائي الجزائري في تقديم مدينته؟
- انطلاقا من هذه الأسئلة، سنسعى لتحقيق بعض الأهداف، والتي نرجو من الله أن يوفقنا لتحقيقها أو على الأقل لإثارتها بما يستحق لفت الانتباه والاهتمام. من هذه الأهداف:
- رصد مدى حضور المدينة في الرواية الجزائرية.
  - رصد دور الرواية الجزائرية في إعادة اكتشاف المدينة وعمارتها وعمرانها، فضلا عن استشراف مجالات أو روافد إبداعية ملهمة.
  - تتبع استراتيجية الروائي الجزائري في تشكيل مدينته، وتقنيات إنتاجه للمعنى.

وأما المنهج المتبع في الدراسة فهو المنهج السيميائي، الذي رأينا بأنه الأنسب والأأنجع لتتبع المدينة باعتبارها مجموعة من العلامات، القابلة للقراءة والتأويل، وتفجير الدلالات.

وبالنسبة للصعوبات التي اعترضتنا، فهي ليست بالقليلة منها صعوبة الحصول على بعض الروايات، والتي لم تتوفر إلكترونيا، ولا ورقيا في المكتبات العامة، ولا في دور النشر. فضلا عن اتساع وشمولية بحثنا الذي شمل أعمال روائية كتبت في فترات زمنية متنوعة.

الدراسات السابقة كانت مقالات أكاديمية وكتب متنوعة. اتخذناها للاستئناس غالباً. ولم نعتمد على دراسة بعينها في طرح خطتنا، وفي مسار بحثنا. كما حاولنا جاهدين تجنب التكرار، وتجنب طرح ما تم التطرق إليه سابقاً، رغبة منا في التجديد، وفي الوصول إلى رؤى ونتائج جديدة.

وانطلاقاً من هذا، قسمنا دراستنا إلى مدخل وثلاثة فصول تطبيقية. كل فصل يتضمن مبحثين. مع مقدمة وخاتمة.

فأما المدخل فهو توطئة نظرية، تطرقنا فيه إلى أسئلة المدينة وأسئلة الرواية. فقدمنا تعريفاً موجزاً للمدينة لغة واصطلاحاً. وتطرقنا إلى المدينة في القرآن الكريم، وفي الفلسفة، وفي الرواية والدراسات النقدية. كما عرضنا إلى الرواية الجزائرية. تاريخ وظروف نشأتها. وملخص سجل حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

وأما الفصل الأول فمعنون بـ (تحولات المدينة بين الرمز والذاكرة) تطرقنا في مبحثه الأول (مسار تحولات المدن وأبعاده الرمزية) إلى مسار تحول ثلاث مدن، الجزائر العاصمة قبيل وأثناء الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر. في رواية (الديوان الإسبرطي) لعبد الوهاب عيساوي. حيث تتبعنا تأريخ الكاتب لسيرة المحروسة، وتوثيقه لقيمتها وعاداتها ويوميات الحياة فيها، وسقوطها في يد المحتل الفرنسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

كما رصدنا الحضور المكثف لمدينة سعيدة عند الحبيب السائح في رواية (أنا وحايم). والتي سطر فيها الكاتب لمسار تحول الحياة في المدينة من الفترة الاستعمارية إلى بعيد الاستقلال. وحملنا الوعي الحاد للكاتب بالمدينة إلى اعتبارها خطاباً، يحتاج تأملاً، وأكثر من قراءة. فأتاح لنا بذلك قراءة الإنسان والمكان والتاريخ.

هذا وتتبعنا تحولات الحياة الاجتماعية والسياسية في مدينة قسنطينة في الفترة الكولونيالية، وما بعد الكولونيالية. عند كل من كاتب ياسين في (نجمة). وطاهر وطار في (الزلال). ورشيد بوجدرة في (تيميمون). وأحلام مستغاني في (ذاكرة الجسد).

وتناولنا في مبحثه الثاني الموسوم بـ (مدن الذاكرة المقدسة) ثلاث مدن لها وقعها وحضورها العميق في الذاكرة الجمعية، نظرا لقدسيتها وعراقتها، وراثتها الروحي والثقافي والتاريخي في جل الأجناس الأدبية. مكة المكرمة ومدينة القدس ومدن الأندلس، غرناطة تحديدا. ففتبعنا مدى حضور هذه المدن وتمثلاتها في الرواية الجزائرية.

الفصل الثاني جاء معنونا بـ (إنتاج المعنى بين تقاطبات المدينة وشخصياتها وزمنها). مبحثه الأول، عنوانه بـ (التقاطبات المدينية في الرواية). وفيه رصدنا أهم الظواهر التي أبرزت الجهد الإبداعي والجمالي والفكري لدى بعض الروائيين الجزائريين في عدة كتابات روائية. هذه الظواهر انتقينا منها الحضور المكثف للمطر والليل واللذة في المدينة. وتتبعنا تمثلاتها ودلالاتها المختلفة، ورموزها المشبعة بالمعاني.

وأما المبحث الثاني، فخصصناه لـ (شخصيات وزمن المدينة وتشكيلها السردية). حيث اعتمدنا في دراستنا للشخصيات على تقسيمات الباحث فليب هامون السيميولوجية، فقسّمنا بذلك الشخصيات الروائية إلى فئة الشخصيات المرجعية، وفئة الشخصيات الإشارية، وفئة الشخصيات الاستذكارية. كما خصصنا مطلبا خاصا لليهود في المدينة. نظرا لأهميته في المخيال الثقافي العربي. وأما الزمن فدرسناه من حيث علاقته بالمدينة. وقسمناه إلى زمن متعاقب و متماسك، وزمن متشظ غير متماسك.

وانطلاقا من اهتمام الروائي الجزائري بمدينته، وفتحته من عدة علوم وفنون كالفن المعماري والتشكيلي والموسيقى والأغنية وغيرها. فقد تتبعنا أبرز الاستراتيجيات السردية التي اعتمدها الكتاب في تقديم مدّهم. كتوظيف الألوان، والحواس، وشعرية التفاصيل، والانفتاح على الرسم والموسيقى والأغنية، وتقنية التأطير من خلال الصورة الفوتوغرافية والنافذة، وتوظيف عناصر الطبيعة في وصف المدن، وعلم التاريخ لتوثيق بعض الأحداث والوقائع، ووصف معمارية بعض المدن وشكل الحياة الاجتماعية والثقافية فيها في بعض الحقب التاريخية.

في الفصل الثالث، تطرقنا إلى (جمالية المدينة وعنف الحياة). فعرضنا في مبحثه الأول (جماليات المدن) إلى أبرز معالم المدن التي جاء على ذكرها الكتاب. ومبحثنا في سبب حضورها المكثف، وتمثلاتها في الذاكرة التاريخية والثقافية للمدينة. كما تناولنا مدى اهتمام الروائيين الجزائريين بالنسيج العمراني المدني، ووعدهم بهندسة المباني الحديثة، وبصحة أو خطأ تخطيط وهندسة المدن. ومدى إحساسهم بالعمارة التراثية. فضلا عن رصدنا لظواهر سرقة ونهب الآثار، وطمر وإهمال بعضها. هذا وتطرقنا لشعرية وسحر النوافذ والشرفات وإطلالات المدن. كما تناولنا جدلية عمارة المدينة بين الماضي والحاضر.

في المبحث الثاني، والأخير والذي وسمناه بـ (ديستوبيا المدينة العنيفة) تطرقنا فيه إلى عدة مظاهر عنيفة تسود المدن حاليا، بحسب نسبة حضورها في الرواية الجزائرية، وانطلاقا من أهميتها ودلالاتها أيضا. الحروب والإرهاب والجرائم. والدعارة والقذارة. الجوع وشظف الحياة، والأوبئة والكوارث الطبيعية في المدن.

الخاتمة، أجملنا فيها أهم ما توصلت إليه الدراسة إليه. وفي الأخير، ذيلنا البحث بالمحتويات وبقائمة المصادر والمراجع.

مدخل

أسئلة المدينة والرواية

## أسئلة المدينة والرواية

### 1- أسئلة المدينة:

#### - لغة:

مما جاء في لسان العرب أن: مدن في المكان: أقام به. ومنه المدينة. وتجمع على مدائن. بالهمز، ومدن ومدن بالتخفيف والتثقيل.

والمدينة: الحصن يبني في أضطمة الأرض. مشتق من ذلك. وكل أرض يبني بها حصن في أضطمتها فهي مدينة، والنسبة إليها مديني<sup>1</sup>.

#### - الاصطلاح والمفهوم:

ليس هناك تعريف شامل ومقنع للمدينة. فقد اختلف الفلاسفة والباحثون وعلماء الاجتماع وكل المهتمين بشأن المدينة في تحديد تعريف تام لها. فوضعوا لذلك أسسا من خلالها يتم تمييز المدينة عن القرية والريف. هذه الأسس تعتمد على عدد السكان، والكثافة السكانية، والهئية الإدارية، والبعد التاريخي والوظيفي والتنظيم الهندسي المعماري. غير أنها أسس قاصرة، ومن الصعب أن نجدها تتوفر في مدينة واحدة. إذ نجد على سبيل المثال محال سكانية لا تاريخ لها كمدينتي لاس فيغاس وديي. ولكنهما مع ذلك تصنفان ضمن المدن. وهناك محال كثيرة لا حصر لها مساحتها صغيرة جدا، وكثافتها السكانية قليلة، لكنها تعد مدنا أيضا كمدينة الفاتيكان، التي تستمد وجودها من سلطتها الروحية على العالم المسيحي. كما أن هناك مدن عديدة تفتقد للتنظيم الهندسي، وتغرق في الفوضى كبعض مدن أمريكا اللاتينية وإفريقيا، ولكنها تصنف مدنا أيضا.

وإذن فمن الصعب وضع أسس ومعايير ثابتة نحكم من خلالها على محلة سكانية ما بأنها قرية أو مدينة. يقول في هذا الصدد "جمال حمدان" في كتابه (جغرافية المدن): (المدينة المطلقة المثالية هي افتراض علمي، فليست هناك مدينة مطلقة أو قرية مطلقة، ليس هناك قطبان **bi-polarity**، وإنما هناك مقياس مدرج، ليس هناك ثنائية صارمة **(dichotomy)**<sup>2</sup>

<sup>1</sup>- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1994، ج12، مادة مدن.

<sup>2</sup>- جمال حمدان، جغرافية المدن، عالم الكتب، ط2، القاهرة، دت، ص14.

وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن لا فوارق بين القرية والمدينة. بيد أن تطور التكنولوجيا والصناعة قلصت من الفوارق بين هذين الفضاءين. قديماً لم تكن هذه المسألة مطروحة كثيراً.

### – المدينة في النص القرآني:

ذكرت لفظة المدينة في القرآن سبعة عشر مرة، في سور مختلفة مثل سورة الأعراف والتوبة ويوسف والكهف والحجر والنمل والقصص. كما ذكرت مدن بأسمائها كمكة ويثرب وسبأ وبابل ومدين والقدس. وعرضت كثير من الآيات القرآنية إلى وصف هذه المدن بالمؤمنة والمقدسة كالمدينة المنورة ومكة المكرمة وبيت المقدس ونيوى. كما وصفت أخرى بالجور والفسق والسحر كسادوم مدينة سيدنا لوط عليه السلام وبابل بالعراق. وأوضح القرآن الكريم أن مدناً عديدة تعرضت لعقاب سماوي بسبب كفرها وتماديها في الفجور كسبأ ومدائن صالح، وسادوم. هذا وأشادت بعض الآيات بالتنظيم الهندسي لبعض المدن، وعظمة مبانيها وجمال عمرانها. كمدينة الحجر وإرم ذات العماد. كما عدت بعض السور ما تميزت به المدن من حصون وخنادق وسجون وقصور وبيوت عظيمة ومساجد مقدسة.

وأهم ما يستنبطه الباحث في مسألة حضور المدينة في النص القرآني هو أن الله عز وجل ربط استمرارية وجود المدينة، وازدهارها، وسعادة أهلها بمدى إيمانهم وتشبثهم بالفضائل والأخلاق الإنسانية السامية. وأن حيادهم عن الإيمان والطريق السوي هو سبب الخطايا مدتهم واندثار بعضها.

### – المدينة في الفلسفة:

يرى الفيلسوف "أرسطو" أن الطبع هو الذي دفع الإنسان إلى تكوين المدن. والمدن هي في الأصل اجتماع قرى، وهذا الاجتماع في نظر "أرسطو" يبلغ كماله بالقوانين والعدل والفضيلة:

(إن اجتماع عدة قرى يؤلف دولة تامة يمكن أن يقال عليها إنها بلغت حد كفايتها على الإطلاق).<sup>1</sup> الدولة هنا ترجمتها الحرفية مدينة. كما أشار لذلك المترجم "أحمد لطفى السيد" في هامش الكتاب.

غير أن التاريخ يثبت لنا غير ذلك. فليس كل مدينة هي اجتماع لقرى. فهناك مدن شيدت من بدايتها كذلك كمدينة لاس فيغاس.

<sup>1</sup> – أرسطو طاليس، السياسة، تر: أحمد لطفى السيد، منشورات الجمل، ط1، بيروت-لبنان، 2009، ص98.

ولا يختلف الفيلسوف "الفارابي" عن "أرسطو طاليس" في كون الفطرة الطبيعية للإنسان هي التي دفعته إلى تكوين اجتماعات متعاونة. وهذه الاجتماعات الإنسانية منها الكاملة، ومنها غير الكاملة. وعد المدينة ضمن الاجتماعات الكاملة. فالمدينة إذن في نظر "الفارابي" هي ما اتسمت بالكمال وحققت السعادة لسكانها.

### - (فالخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال بالمدينة)<sup>1</sup>

والمدينة الفاضلة هي التي تنشأ على التعاون. ورئيسها حسب نظرة "الفارابي"<sup>2</sup> مكتمل العقل. يكون تام الأعضاء، جيد الفهم والتصور والحفظ والفطنة، حسن العبارة، محبا للتعليم والاستفادة، غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح، محبا للصدق والعدالة. واجتهد في تصنيف المدن إلى مدن فاضلة ومدن فاجرة وأخرى جاهلة وفاسقة ومتبدلة.

في واقع الأمر، من يقرأ جمهورية "أفلاطون" ومقدمة "ابن خلدون" والسياسة لـ "أرسطو" و"الفارابي" و"الجابري" وغيرهم من الفلاسفة القدماء والمعاصرين لا يجد فوارق كبيرة في رؤيتهم للمدينة. فهم إجماعا يرون أن المدن هي غالبا اجتماع لقرى، وأن سعادتها ترتبط بالعدل والخير، وفناؤها يرتبط بمدى فجوهرها وفسقها.

حاليا، تسعى عدة دول إلى تشييد مدن فاضلة. ولا نعني بفاضلة ما سعى لطرحة عدد من الفلاسفة في مؤلفاتهم سابقا، بل نقصد هنا مدن ذكية، ومدن صديقة للبيئة وللطفل والمرأة وذوي القدرات الخاصة. حاولت هذه الدول تكريس وتفعيل بعض البنود التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة. فشيدت مدنا خضراء لا تلوث الجو. وسعت إلى إشراك الأطفال والنساء وذوي القدرات الخاصة إلى مناقشة شؤون مدنها. كما حاولت إنجاز شوارع وأبنية ومسالك ومرافق توفر لهم الراحة والمعرفة والتسلية. كما سنت قوانين لحمايتهم وحماية حقوقهم. هذه المدن إذا ما نجحت فعليا يمكن سميها بالكمال والفضيلة.

الفيلسوف "محمد عابد الجابري" من الذين يرون أن مفهوم المدينة من المفاهيم التي تحتاج إلى إعادة بعث الحياة فيها. ويرى أن المدينة ليست مجرد مكان وسكان (ولكن المدينة أيضا، وهذا أهم، نظام سياسي يقوم على مشاركة أعضائها في تدبير شؤونها، وذلك بواسطة الكلام والمنطق).<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق: ألبير نصري نادر، دار المشرق، ط2، بيروت، لبنان، 1968، ص118.

<sup>2</sup> - انظر: المصدر نفسه، ص118

<sup>3</sup> - محمد جابر العابدي، قضايا الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت-لبنان، 1997، ص16.

إذن فالمدينة دون نظام سياسي ديمقراطي يتيح لمواطنيها المشاركة في مناقشة وتسيير شؤونها العامة هو مفهوم قاصر ومعطوب. و"الجابري" بهذا المعنى يدعو إلى إشراك الفلاسفة الذين يملكون الحكمة في تسيير شؤون المدينة السياسية. وإقصاؤهم يفرز عنه مدينة تتخبط في الأزمات.

السؤال الذي نطرحه بعد ما ناقشناه سابقا. هل يدرك النقاد والروائيون الجزائريون الفرق بين المدينة والقرية؟ وهل يراعون في وسمهم لمكان ما في دراساتهم ونصوصهم بالمدينة أسسا معينة؟.

بالنسبة لنا، وفي دراستنا هذه سنعد المدينة مدينة حسب معيارين اثنين أولهما ما يرد في المتن الروائي على لسان الكاتب بأنه مدينة، ولو كان قرية في الواقع. وثانيهما ما تتسم به بعض الأمكنة في الرواية من تنظيم هندسي في مبانيها وكتلتها وطبيعة شوارعها ووظيفتها. أي اعتمادا على الأساس اللانديسكي المهتم بمظهر المدينة وبجانبيها الملموس والمرئي. للتوضيح أكثر فقد اعتبرنا ريو سالادو وقصور الصحراء كتمنيط، وواحاتها كواحة تافيليات، مدنا. نظرا لحضورها في الروايات بصورة تكاد تكون مكتملة من حيث كثافة سكانها ونشاطاتها التجارية، واستقلالها سياسيا. ومن حيث بعدها التاريخي، وعراقة وجمالية عمرائها، وتفرد هندستها ومبانيها.

بالنسبة للروائيين الجزائريين فقد لاحظنا أنهم غالبا يميزون فعليا بين القرية والمدينة حسب معظم التصنيفات التي وضعها الدارسون، والتي ذكرناها آنفا. بيد أن بعضهم قد صنف بعض القرى والبلدات الصغيرة ضمن المدن. كاعتبار الروائي "واسيني الأعرج" عين الماضي التابعة لمدينة الأغواط مدينة. ويرجح أنه اعتمد في ذلك على بعدها التاريخي العريق، وشكلها المعماري المعتمد على الحصون والأبواب الضخمة.

### -المدينة في الرواية:

شغلت المدينة فكر واهتمام الأدباء منذ القدم. وبقي الاهتمام بها متوصلا ليومنا هذا. فتناولوها في مختلف أبعادها الفلسفية والتاريخية والاجتماعية والجمالية والجغرافية والطبوغرافية. وتطرقوا لعلاقتها بالفكر والاعتراب والتشظي والتأزم الهوياتي. والصراعات العقائدية والثقافية والإثنية والجغرافية والتاريخية. فظهرت بذلك أساطير وملاحم وأشعار ومقامات وقصص وسير وروايات ومسرحيات تتناول مواضيع كثيرة وعميقة خاصة بالحرب والسلطة والعنف والفساد، والصراع بين الأنا والآخر. والمرأة والهجرة والنفي والأرض والعمارة والحب والصدقة والجمال واللذة في المدينة.

ومن الروايات الأجنبية التي سعت إلى توثيق وسرد سيرة بعض المدن، وجعلت منها أيقونات قريبة من الوجدان العالمي رواية (أحدب نوتردام) لفكتور هوجو سنة 1831م. التي وثق فيها كاتدرائية نوتردام بباريس. ورواية (قصة مدينتين) لتشارلز ديكنز سنة 1859م، التي وثق فيها لندن وباريس وإنجلترا خلال الثورة الفرنسية. كما استحضرت (ثلاثية نيويورك) لبول أستر الصادرة ما بين 1985م و1986م فضاءات مدينة نيويورك. ورواية (غربة في عقلي) لأورهان باموق سنة 2017م. والتي تناول فيها تحولات مدينة إسطنبول عبر محطات تاريخية مهمة.

وعلى صعيد الروايات العربية، تحضر القاهرة بصورة مكثفة في أعمال نجيب محفوظ وجمال الغيطاني. ومكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة في أعمال رجاء عالم. ودمشق في روايات غادة أحمد السمان ونابلس في رواية سحر خليفة. واللاذقية في روايات حنا مينه. وتحضر مراكش بتاريخها القديم في روايات مصطفى قرنة.

على صعيد الرواية الجزائرية، نرصد حضور مدينة قسنطينة في روايات أحلام مستغانمي وطاهر وطار. والجزائر العاصمة في روايات واسيني الأعرج ومرزاق بقطاش وأمين الزاوي. ووهان وسعيدة في روايات الحبيب السائح. وتلمسان في أعمال محمد ديب. والجلفة في روايات عبد الوهاب عيساوي وإسماعيل بيرير. وواد سوف في أعمال مليكة مقدم وحواء حنكة وأحمد محمد زغب. وأدرار في أعمال الحبيب السائح وأمين الزاوي والصدوق حاج أحمد الزيواني. ومدينة تيميمون في أعمال رشيد بوجدره. وعنابة وقسنطينة عند كاتب ياسين.

### -المدينة في الدراسات النقدية:

احتفت عدة دراسات نقدية بتيمة المدينة، وواكبت حضورها في الأدب، شعرا ونثرا. فتعقبوا تأثيرها في أجناس القول وأغراضه. ورصدوا مدى حضورها وجماليتها وشعريتها وقبحها ومآسيها. ومن هذه الدراسات، التي اهتمت بدراسة المدينة في الرواية تحديدا، نجد:

- (تحليل نقدي لرواية وليم فوكنر الحب والعنف. سنة 1954م) وهو مقال للكاتب "جبرا إبراهيم جبرا". صدر عن مجلة الآداب اللبنانية في عددها الأول. تطرق فيه الكاتب بشكل وجيز لدراسة المدينة في الرواية. ورأى بأن فوكنر كاتب يلجأ باستمرار لتصوير كل ما هو قبيح ومرعب، وأن الفساد والجريمة والجشع الذي وصف به سكان مدينته، والتي تشبه إلى حد بعيد مدينته أكسفورد هو انعكاس لما حل بالعالم من فوضى خلقية وانحلال اجتماعي. الدراسة لم تتعدى الوصف السطحي السريع، لكنها يقينا تبين اهتمام النقاد آنذاك بدراسة المدن.

- (الإسكندرية في أدب نجيب محفوظ. سنة 1975م) للناقد "أمين محمود العالم". وهو مقال أكثر نضجا، صدر أيضا عن مجلة الآداب اللبنانية، العدد التاسع. تتبع فيها الناقد حضور الإسكندرية في روايات نجيب محفوظ. وخلص بأنها تجلت في صور قائمة في وجدان أبطالها، ارتبطت بالنفي والغربة والضياع والسقوط وأحلام اليقظة والاعتراب.

- (الرواية والمدينة. الصادر سنة 2000م) للباحث حسين حمودة. عن منشورات الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية. سعى فيه صاحبه لاستكشاف العلاقة بين الرواية والمدينة. على مستوى التطورات التي صاغت الانتقالات الأساسية في مسار كليهما. وعلى مستوى البنية، والكيفيات والأشكال التي ساهمت في التفاعل بينهما. فضلا عن سعيه في البحث عن عدة تساؤلات. من أهمها مدى حضور المدينة في الروايات التي تم الاصطلاح عليها بالروايات الريفية. على حد تعبير مؤلف الكتاب.

- (المدينة الضحلة، تثریب المدينة في الرواية العربية. الصادر سنة 2014م) للدكتور صلاح صالح. من منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. عرض فيه الكاتب لشروط مدينية المدينة، وجعل من شروطها وفرة البشر، والنظافة، وسيولة الماء، وجماليات المتاهة، والألفة. ورأى في إطار حديثه عن هذه الشروط أن المدينة العربية تفتقر إلى الحد الأدنى من النظافة، لهذا أقلع الكثير من الروائيين العرب عن سرد جمالية النظافة، وانصرفوا إلى سرد جماليات العمارة التراثية تحديدا. وأما شرط جماليات المتاهة فهو من السمات التي تتمتع بها المدينة المعاصرة، فضلا عن تحديها الطبيعية، وتوفرها على خدمات مناسبة تقلص التأثير الذي تحدثه دورة الفصول الأربعة.

هذا وتناول الكتاب فصلا خاصا بالمدن المندثرة، والمدن القذرة، والمدن الفاجرة، والمدن المرفية، والمدن المقفرة.

- (مدن العرب في رواياتهم) للناقد المعماري علي عبد الرؤوف. كتاب مهم صدر عن مدارات للأبحاث والنشر المصرية سنة 2017م. تناول فيه الناقد نماذج روائية مهمة من مختلف الأقطار العربية. حاول فيه أن يربط الرواية بفن العمارة. وبحث في إمكانية تحول الرواية إلى وسيلة للتوثيق التاريخي للغة المعمارية أو العمرانية. وأداة نقدية للعمارة والعمران. كما بحث في مدى إلهام الروائيين للمعماريين في مجال تخطيط المدن وجمالياتها.

- (المدينة في الأدب العربي، من منظورات كلاسيكية وحديثة. الصادر سنة 2018م)، وهو مؤلف جماعي صدر لباحثين عرب وأجانب. صدر سنة 2018م عن جامعة أدنبرة الإسكتلندية باللغة الإنجليزية. يتضمن هذا الكتاب ستة عشر فصلا يسائل فيه أصحابه تمثالات المدينة في الشعر والرواية والسير والأخبار والمقامات. من بين ما جاء فيه مقال خصص ل (هجاء المدن في الشعر العربي) لهدى فخر الدين وبلال أورفلي. و(جغرافيا المعنى الأدبي في

مقامات الهمداني والحريري) لسارة بن تاير. و(المدن الضائعة والعوالم المختلفة: تشكيلات الهوية السكانية الحضرية في الأدب العربي في الثمانينيات) لفاليري آنيشكوف.

- (هوية المكان وتحولاته، قراءة في رواية طوق الحمام) للباحثة إيمان جريدان، الصادر سنة 2020م عن دار كافي للنشر والتوزيع بالجزائر. وهو رسالة ماجستير في الأصل. تعرضت فيه صاحبتة لرصد العناصر الهويةية لمدينة مكة المكرمة من خلال الرواية. كما رصدت التحولات الاجتماعية والجغرافية والطبوغرافية والثقافية التي عرفتتها المدينة المقدسة، جراء انفتاحها على سلسلة من مشاريع التنمية والتعمير، والتي تعرضت جراءها الكثير من المعالم الأثرية والأزقة الشعبية والمباني التراثية للمدينة إلى الهدم والطمس. مما أدخل سكانها في حالات متأزمة من الحزن والاغتراب والانشطار السيكولوجي. كما خصصت الباحثة جزءا مهما من دراستها لفلسفة بناء المكان وأبعاده الرمزية لدى الكاتبة.

- (الكتابة في وسط حضري، المدينة فضاء للكتابة) وهو كتاب جمع مداخلات وإسهامات أعمال ملتقى وطني، تم انعقاده يومي الثامن والتاسع من شهر مارس سنة 2021م. وقد صدر الكتاب في نفس الشهر والسنة عن المكتبة الوطنية الجزائرية وبيت الشعر الجزائري.

الإسهامات الكتابية في هذا المؤلف عكفت على معاينة الكتابة الأدبية والفلسفية والثقافية للمدينة. كما وقفت على العلاقة الملتبسة بين المدينة وأتماط الكتابة، والقيم التي تحملها مختلف الأنواع الكتابية والإبداع. وقد شارك في هذه الإسهامات الكتابية عدد من الباحثين الجزائريين كالناقدة آمنة بلعلي، ومنى بشلم، وحبیب مونسى.

تناولت مداخلات الكتاب عدة مواضيع منها (سردية المدينة والهجرة في الرواية ما بعد الحداثية) للباحثة سليمة مسعودي. و(مآسي المدن العربية في القصيدة الجزائرية المعاصرة) للباحثة زينب نشارك. و(صورة المدينة في رواية نورس باشا) للباحثين هاجر قودري وشهيناز ماتي.

## 2- أسئلة الرواية:

### - حول الرواية الجزائرية:

تساءل الناقد المغربي "سعيد يقطين" عن أسباب تأخر نشأة الرواية العربية في بعض الأقطار العربية كالجائر. رغم أنها خضعت للاستعمار منذ بداية القرن التاسع عشر، وكان الأولى أن يتعرف الجزائريون على هذا الجنس الأدبي

مبكرا من خلال احتكاكه بالمستعمر. و(حتى الكتابات القصصية التي ظهرت في العشرينات والثلاثينات (محمد سعيد الزاهري - محمد بن العابد جلاي...) لم يكن لها تأثير في المشهد الأدبي الجزائري الحديث)<sup>1</sup>.

وأرجع هذا التأخر، فضلا عن عدم تأثر القراء بما أنتج سابقا إلى إبطاء ظهور الوسائط الجماهيرية-الصحافة تخصيصا- في قوله: (نرى أن سبب تأخر ظهور الرواية في العديد من الأقطار العربية بالقياس إلى الشام ومصر، يؤوب أساسا إلى تأخر ظهور الوسائط الجماهيرية وما يتصل بها من تحولات وتغيرات تمس مختلف العلاقات الاجتماعية والثقافية في هذه الأقطار)<sup>2</sup>.

على ذكر الوسائط الجماهيرية كونها سببا مهما في تأخر أو ظهور الرواية. نتساءل متى ظهرت الصحافة المكتوبة في الجزائر؟ ومتى ظهر المذيع والتلفاز والسينما في الجزائر؟.

حسب عديد من الدراسات المهمة بالتأريخ، والشأن الكولونيالي، فإن المستعمر منذ دخوله للجزائر سنة 1830م بدأ بإصدار الصحف المكتوبة باللغتين العربية والفرنسية، لتطلع الشعب على تعاليم المسيحية والقوانين الصادرة من الولاية العامة. كصحيفة المبرش الصادرة سنة 1847م. و(قد اتسم إصدار الصحف الفرنسية في الجزائر بالكثرة والتنوع في الاختصاصات والاهتمامات وقد بلغ 20 جريدة عام 1871م، و28 جريدة عام 1883م. و50 جريدة عام 1886م و92 جريدة عام 1890م)<sup>3</sup>.

هذه الصحف أتاحت للعناصر المتعلمة في الجزائر أن تتعرف على أهمية ودور الكلمة المكتوبة. ومن ثم أصدر عدد من المثقفين، خاصة منهم أعضاء جمعية العلماء المسلمين صحفا كثيرة كالمثقف والحق والمصباح والجزائر في مدن عديدة في شرق ووسط وغرب الجزائر. ومن أول الصحف الجزائرية نجد صحيفتي المنتقد الأسبوعية والشهاب سنة 1925م. ورغم تعسف الإدارة الفرنسية اتجاه هذه الصحف، وضعف الإمكانيات وكثرة العراقيل التي واجهت أصحاب هذه الصحف، إلا أنهم واصلوا تحديهم وكفاحهم بالكلمة. وخصصوا أعمدة وزوايا للدفاع عن اللغة والهوية العربية والإسلامية، ومقالات في الشعر والنقد والنثر الأدبي. يقول "محمد مصابف" في حديثه عن دور الوسائط الجماهيرية، وبالتحديد عن مجلة البصائر: (ومن المعروف أن هذه الجريدة، وجرائد أخرى مثل المنار

<sup>1</sup> - سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2012، ص70.

<sup>2</sup> - قضايا الرواية العربية الجديدة، ص70.

<sup>3</sup> - من مقال تطور الصحافة في الجزائر، التاريخ والواقع، عبد الغني عراب، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، من ص147 إلى 169.

لمحمد بوزوزو، لعبت دورا أساسيا لا في الدفاع عن عروبة الجزائر وإسلامها وحق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال فحسب، بل وفي تطوير النشر الجزائري الحديث كذلك.<sup>1</sup>

أما السينما، فكان أول ظهور لها على يد الأخوين الفرنسيين مولير سنة 1895م. وانتشرت دور السينما بعد ذلك في كثير من المدن الجزائرية، ولم تكن حكرا على المعمرين بل أيضا أتيحت للطبقة المثقفة والبورجوازية الجزائرية. وأما التلفاز، فكان أول بث تلفزيوني سنة 1956م من بلدية برج البحري. كما عرفت نفس السنة أول بث للإذاعة الجزائرية، لكن من خارج الوطن. من تونس ومصر.

الوسائط الجماهيرية إذن كانت موجودة في الجزائر في الفترة الكولونيالية، وإن كان اهتمامها الأكبر منصبا على العمل الثوري، والدعائي والتعبوي. والأمية لم تزد حدتها إلا تدريجيا مع تعسف الاحتلال. وهذا ما يعني وجود قراء مثقفين، فضلا عن وجود كتاب وروائيين جزائريين يكتبون باللغتين العربية والفرنسية من مثل "محمد ولد الشيخ آغا"، و"أحمد رضا حوحو" و"محمد بن إبراهيم"، و"عبد المجيد الشافعي"، و"نور الدين بوجدره"، و"مالك حداد" و"محمد ديب" و"كاتب ياسين"، و"آسيا جبار"، و"مولود معمري".

ورغم ظهور هذه الكوكبة من الروائيين في الفترة الكولونيالية، إلا أن عددا من النقاد العرب والجزائريين اعتبروا أن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية لم تنشأ إلا في السبعينات مع ظهور رواية ربح الجنوب لـ "عبد الحميد بن هدوقة"، رغم اعترافهم بالكتابات السابقة كبذور لا غير للرواية الجزائرية. كالناقد "عبد الله الركيبي"، و"محمد مصايف" الذي اعتبرها حينها محاولات قصصية مطولة، وأحيانا روايات يعوزها النضج الفني.

وأرجع الناقد "عبد الله الركيبي" أسباب تأخر ظهور الرواية إلى بداية السبعينات إلى صعوبة هذا الفن، وانعدام تقاليد روائية جزائرية يمكن محاكاتها<sup>2</sup>. لكننا نعقب بعدد من الأسئلة للرد على ما سبق. لماذا لم يتأثر الكتاب الذين يكتبون باللغة العربية بجيولهم من رواد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية؟ ولماذا لم يعتبر "عبد الله الركيبي" روايات "محمد ديب" و"كاتب ياسين" مثلا نماذج تستحق المحاكاة. تماما كما تأثر "محمد حسين هيكل" في روايته زينب برواية غادة الكاميليا لـ "ألكسندر دوماس" الابن؟ لماذا لم يدرج "عبد الله الركيبي" و"محمد مصايف" و"سعيد يقطين" وغيرهم من النقاد، الكتابات السابقة—بالرغم من أنها نصوص مقبولة فنيا—ضمن بواكير الرواية الجزائرية، بدلا من اعتبارها مجرد بذور لها أو قصص مطولة؟!.

<sup>1</sup> - محمد مصايف، النشر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1983، ص115.

<sup>2</sup> انظر: النشر الجزائري الحديث، ص138.

حسب رأينا، نرى أن النصوص الإبداعية الأولى تستحق إدراجها كبدائيات فعلية للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية. بدلا من اعتبار ربح الجنوب هي بداية الفن الروائي الجزائري. إذ أن هذه الأخيرة تعد بسيطة فنيا هي الأخرى. كما أن علة غياب نماذج يمكن محاكاتها، علة ضعيفة، إذ أن الروايات المشرقية، والجزائرية المكتوبة بالفرنسية، كرواية مريم بين النخيل (1936م) لـ "محمد ولد الشيخ آغا". والروايات الفرنسية التي كتبتها أقلام المعمرين من يهود وأوروبيين كانت موجودة وبوفرة.

إننا وحسب ما توصلنا إليه بعد بحث ومقارنة وتمحيص، نخالف الفكرة التي ذهب إليها كل من "سعيد يقطين" و"عبد الله ركيبي" و"محمد مصايف" وغيرهم من النقاد الذين رأوا أن الرواية الجزائرية تأخرت في ظهورها إلى سبعينات القرن العشرين. وأن هذا التأخر يعود إلى غياب الوسائط الجماهيرية، وغياب نماذج روائية يمكن محاكاتها، وصعوبة هذا الجنس الأدبي. إنه على عكس ذلك تماما. الوسائط الجماهيرية، المجالات تخصيصا، كانت موجودة، وساهمت في ظهور وتطور وانتشار النثر الجزائري. كما أن عددا من المبدعين قد ظهوروا وأسهموا في ميلاد وإخراج الرواية الجزائرية إلى الوجود في وقت مبكر. من هؤلاء نجد "محمد بن إبراهيم" الملقب بالأمر مصطفى. الذي كتب (حكاية العشاق في الحب والاشتياق) سنة 1845م. والتي أخرجها إلى النور، بعدما كانت مخطوطة في المكتبة الوطنية الجزائرية الناقد والمحقق والباحث "أبو القاسم سعد الله" سنة 1977م. فحققتها وطبعها وجنسها رواية. والتي عكف عليها أيضا الناقد والباحث "رشيد بن يمينة" دراسة وتحليلا وتفكيكا، لاستجلاء معالمها، واكتشاف خصائصها الفنية. وتوصل في نهاية الدراسة أن نص (حكاية العشاق) قد تهيأت له كل مقومات الفن الروائي من بناءية وترابط الأحداث والشخصية، والزمن والفضاء الحكائي، ومقصدية الحكيم. فضلا عن طول نفس صاحبه، وقدرته الفائقة في الوصف، ورسم المشاهد الدرامية المؤثرة، وتصوير الأجواء العاطفية المشحونة بإسهاب وبراعة فائقة. كل هذا وأكثر يدفعنا إلى اعتبار نص (حكاية العشاق) رواية وليست مجرد قصة شعبية.

يقول الباحث "رشيد بن يمينة" في هذا: (إن المعطيات الموضوعية تملئ على الباحث الحصيف القول بأن "حكاية العشاق" يشكل البواكير الجينية التي أسست للفن الروائي في الأدب الجزائري الحديث).<sup>1</sup>

وقد قرأنا (حكاية العشاق) و(ربح الجنوب) ولم نجد ما يصوغ للنقاد اعتبار (ربح الجنوب) لـ "عبد الحميد بن هدوقة" هي أول رواية جزائرية مكتوبة باللغة العربية، بدلا من (حكاية العشاق) لـ "محمد بن إبراهيم". دون أن نغفل على رواية "غادة أم القرى"، في حالة اعتبارها رواية لا قصة طبعا.

<sup>1</sup> - رشيد بن يمينة، بواكير الرواية الجزائرية، دار تفتيلت للطباعة والنشر والاتصال، ط1، وهران، الجزائر، 2013، ص161.

والساحة الثقافية الجزائرية، حاليا تعرف كمّا غير مسبوق من الإصدارات، التي تخرجها دور النشر تحت مسمى روايات، بل وتحظى بحفاوة وترحيب في منصات السوشيال ميديا. ويتلقاها عدد من الأكاديميين بالبحث والدراسة والتهليل!! وهي لا ترقى لمستوى الرواية إطلاقا. فكيف نقصي نصوصا إبداعية ظهرت في وقت مبكر، وفي ظروف قاهرة تحت ظل الاحتلال. في حين نحتفي بنصوص رديئة، ونصنفها ضمن جنس الرواية؟ والأولى أن نحتفي بالنصوص التي ظهرت في الفترة الكولونيالية، ونوليها ما تستحقه من تجنيس ودراسة وتحليل، وإعادة نشر وطباعة.

هذا وقد عرفت الرواية الجزائرية تطورا وتغيرات من حيث الشكل والمضمون، مثلها مثل باقي الفنون النثرية الأخرى. (وليس هذا التطور دليلا على تفوق الأديب الجزائري المعاصر على الأديب الجزائري لفترة ما قبل الاستقلال بقدر ما هو دليل على قدرة الأدب الجزائري الحديث على مواكبة النهضة العامة للشعب الجزائري)<sup>1</sup>.

ووصلت الرواية الجزائرية اليوم إلى مصاف العالمية، إذ ظهرت نصوص روائية عديدة، نال أصحابها جوائز عالمية قيّمة، وترجمت إلى عدة لغات أجنبية، تعكس مدى حضور الرواية الجزائرية في المشهد الأدبي العربي والعالمي.

### — حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية:

وعن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، ورغم ما لاقته هذه الأخيرة من نقد لاذع، وسجال طويل ومعقد حول اعتبارها ضمن الأدب الجزائري أم الأدب الفرنسي. فإنه ولا ريب كتاب هذا النوع من الروايات هم جزائريون أرضا وقلبا وفكرا وجسدا. معظمهم، كتب عن معاناة وطنه، وعن المرأة الجزائرية والأرض والكفاح والبؤس والظلم والتهميش. وقد ظهرت في كل آداب الأمم ففة من الكتاب تكتب بغير لغتها الأم، ولم يتم إقصاء نصوصهم بدعوى أن اللغة هي التي تحدد هويتها. كإدوارد سعيد وجبرا إبراهيم جبرا وأمين معلوف.

وعليه، فإن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية، والتي كتبها جزائريون هي نتاج الأدب الجزائري. ونحن نشاطر الكاتبة " عايدة أديب بامية" في قولها: (الأدب الجزائري هو كل عمل أدبي مؤلف سواء باللغة العربية أو اللغة الفرنسية من قبل أي من سكان الجزائر الأصليين)<sup>2</sup>.

وقد ظهرت الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية مبكرا في الفترة الكولونيالية أيضا. كرواية "أحمد بن مصطفى غوميه" سنة 1920م لـ "القايد بن شريف". ورواية "زهرة زوجة المنجمي" سنة 1925م لـ "عبد القادر حاج حمو".

<sup>1</sup> - محمد مصاييف، النشر الجزائري الحديث، ص 120.

<sup>2</sup> - عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 1982، صص 50-51.

ورواية "مريم بين النخيل" سنة 1936م لـ "محمد ولد الشيخ آغا". ورواية "لبيك حج الفقراء" سنة 1947م لـ "مالك بن نبي". ورواية "ابن الفقير" مطلع الخمسينات لـ "مولود فرعون".

وهذه الروايات المبكرة لا تختلف بأي حال عن الرواية المكتوبة باللغة العربية. من حيث النضج الفني، وأساليب السرد، ومن حيث المواضيع. فمعظمها يعبر عن وضع الجزائري، ويوميته ومعاناته في ظل الاحتلال. حاليا عدد كبير من الروايات لا يزال يصدر باللغة الفرنسية، وبلغات أجنبية أخرى كالإيطالية والإسبانية. وهو غالبا كما قلنا لا يتصل عن الهوية الثقافية للأمة الجزائرية.

### 3- المدينة والرواية:

تتجاوز المدينة كونها كتلا مادية صماء إلى كونها نصا وخطابا، قابلا للقراءة والتأويل، وإنتاج الأفكار والمعاني. كما أنها بشر ونظم ثقافية وعمرانية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وإثنية ودينية قابلة للتغير والتجديد والاستمرارية والتحول، والأفول والبناء من جديد. يسعى الأدباء لمواكبتها لغة وتمثلا وإبداعا وتشكيلا. في أعمال لا تتوقف على تصوير وتقديم المدينة كما هي في الواقع، بل تتجاوزه إلى إعادة خلق وصياغة.

تتضمن الرواية مدنا واقعية وأخرى متخيلة. على غرار مدينة تلمسان في ثلاثية "محمد ديب". ومدينة جملكية أمدوكال المتخيلة في رواية (رمل المائة) لـ "واسيني الأعرج". وفي الحالتين فالرواية ترصد سيرة المدن. تاريخها وتطورها، كما تقدم المركزي والمهمش، وما يرى وما لا يرى في المدينة.

وإذن، فالعلاقة بين الرواية والمدينة علاقة وجود. فالنص الروائي عموما لا يكاد يخلو من خلفية مكانية، مدينة كانت أو قرية. مكان هو مسرح للأحداث، وتحرك الشخصوس. كما أن كل رواية في مجملها ترصد الإنسان، وجوده وحياته، ومسار تطور فكره وفعله في الزمان والمكان. وأما المدينة فهي فضاء متسم بالاتساع والتنوع والدينامية، يغري الكاتب، ويحفزه على الكتابة والإبداع.

ويرجع عدد من الباحثين في سجلهم حول علاقة المدينة بالرواية، نشأة الرواية إلى المدينة، ويرون أنها كانت من ابتكار الطبقة المتوسطة في المدينة. حاجتهم للتعبير عن انشغالهم وتيههم وقلقهم المدني، وعلاقتهم مع الذات

ومع الآخر والعالم. دفعهم لابتكار هذا الجنس الأدبي. هذا لا ينفي بطبيعة الحال تصويرهم لفضاءات القرى والأرياف والصحاري.

في الجزائر، نشأت الرواية أيضا في المدينة. وبالتحديد من كاتب كان من أعيان مدينة الجزائر إبان فترة الاحتلال الفرنسي. هو الكاتب "محمد بن إبراهيم بن مصطفى باشا" صاحب رواية (حكاية العشاق في الحب والاشتياق 1848م). والذي كان خزانجا في حكومة خاله الداوي حسن. ووالده إبراهيم من أعيان البرجوازية الجزائرية آنذاك. أي في القرن التاسع عشر. وظروف الاحتلال، وتردي الوضع المادي للكاتب دفعه لكتابة روايته. والقارئ للرواية يدرك كم الألفاظ والعبارات الحضارية التي تعكس الأصل المدني للرواية. فيما يخص الألبسة والأطعمة والزينة وأنواع الأفرشة والقصور. وسهرات الطرب والغرام والنزهات في حياة البطلين ابن الملك وزهرة الأنس، وعلاقة حبهما ووصالهما.

والمتتبع لكل كتاب الروايات الجزائرية التي ظهرت في وقت مبكر يدرك أن الرواية الجزائرية وليدة المدينة. الروائي "محمد ولد الشيخ آغا" المتوفي سنة 1938م. هو ابن مدينة بشار، ووالده كان أحد أعيان المدينة البارزين. وروايته (مریم بین النخيل) الصادرة سنة 1936م تدور أحداثها في مدينة وهران، وقصور تافليلات المغربية. والروائي "أحمد رضا حوحو" المتوفي سنة 1956م. هو ابن مدينة بسكرة. وروايته (غادة أم القرى) الصادرة سنة 1947م تدور أحداثها في مدينة مكة المكرمة.



# الفصل الأول

## تحوّلات المدينة بين الرمز والذاكرة

المبحث الأول: مسار تحولات المدن وأبعاده الرمزية

المبحث الثاني: ذاكرة المدن المقدسة

## المبحث الأول: مسار تحولات المدن وأبعاده الرمزية

## 1-1 المحروسة... قصة مدينة:

## توطئة:

حظيت مدينة الجزائر باهتمام واضح من طرف عدد من الروائيين الجزائريين، الذين اتخذوا منها مسرحاً لأحداث رواياتهم، وتيمة مركزية لنصوصهم الإبداعية. ومن بين هؤلاء الروائيين نجد واسيني الأعرج في (سيدة المقام) والحبيب السائح في (أنا وحاييم) ومرزوق بقطاش في (طيور الظهيرة). وعبد الوهاب عيساوي في (الديوان الإسبرطي). هذا الأخير الذي عاد بنا إلى مدينة الجزائر القديمة (المحروسة) قبيل وبعيد الاحتلال الفرنسي، في الفترة الممتدة ما بين 1815م و1833م.

تفتح الرواية على عتبات نصية، ترافق المتلقي، لتكون مفاتيح إجرائية أولية، يستعين بها على كشف مغاليق النص. كما أنها عناصر ضرورية لرسم صورة مبدئية ومسبقاً لتيمة النص الروائي.

الغلاف، هو أول العتبات، لوحة فنية، تمثل حادثة المروحة الشهيرة في تاريخ الجزائر. الباشا العثماني محمد علي وهو يحمل مروحيته، ويشير إلى القنصل الفرنسي دوفال، أمراً بإياه بالخروج من الديوان. الغلاف يشي من الوهلة الأولى أننا أمام رواية تاريخية، تتناول جزءاً من تاريخ الجزائر الحديث.

العنوان، هو ثاني العتبات وأهمها على الإطلاق. (الديوان الإسبرطي) والذي يضع القارئ أمام التباس وغموض، ليتساءل هل هو أمام رواية تتناول مدينة الجزائر أم مدينة اسبرطة اليونانية. العنوان مثير، وتزداد إثارته عندما يكتشف القارئ أنه كتاب ليوميات أحد القادة الفرنسيين، الذين خططوا وشاركوا في الحملة على الجزائر.

أما افتتاحية الرواية، فهي اقتباس مترجم من الديوان الشرقي لجوته، يعكس نظرة الانفتاح، وتقبل الآخر المختلف لدى الكاتب. كما يعكس أيضاً صراع الحضارات وتصادم الأنا والآخر. وهو ما يبرر اختيار الكاتب لتقنية تعدد الأصوات أو السرد البوليفوني في الرواية.

الرواية مقسمة إلى خمسة أقسام، موزع كل قسم منها إلى خمس شخصيات رئيسية، هي ذاتها تتكرر بنفس الترتيب، لتسرد كل شخصية منها نفس الأحداث من وجهة نظرها. ديون المراسل الصحفي الفرنسي، الذي رافق الحملة الفرنسية لاحتلال المحروسة. وكافيار ضابط الهندسة المدنية، المكلف بإعادة بناء المحروسة. وابن ميار أحد المقربين إلى الباشا العثماني. وحمة السللاوي، حكواتي صاحب عرائس الأراجوز. ودوجة حبيبة السللاوي.

ويتوالى تناوب نفس هذه الشخصيات لسرد قصة مدينة المحروسة ما قبل الحملة ثم توجه الأسطول الأوروبي إلى الجزائر وأخيرا استسلام وسقوط المدينة.

### - المحروسة ما قبل الاحتلال:

قطعا، ليس من مهام الروائي تدوين الوقائع التاريخية بتفاصيلها المعروفة كما وردت في كتب التاريخ، إذ أن مهمته تنأى عن مجرد التوثيق والتسجيل إلى النباش عن المهمل، والتفاصيل المهمشة والمسكوت عنها.

إن الروائي بهذا الشكل يحاول استكشاف بعض تيمات الوجود العظيمة كالحروب وصراع الحضارات، وتاريخ المدن. ويمتحن احتمالات الإنسانية ليس فيما حدث فحسب بل فيما يمكن للإنسان أن يصيره. فالرواية (ليست مجرد سرد للأحداث، بل هي بعد فكري واستجواب تأملي لما يدور في الخفاء)<sup>1</sup>.

قوة "عبد الوهاب عيساوي" كروائي لا تكمن في المتن الحكائي لروايته. إذ أن هذا المتن لا يعدو أن يكون حكاية أحداث وتفاصيل سقوط المحروسة كما يعرفها كل قارئ للتاريخ. إن قوته تكمن في (ذكاء الكتابة التي لا تكتفي بإدراك ما يقدم نفسه للإدراك، بل في الهامش ((اللامدرك)) الذي يرافقه ويتخذة أفقا له)<sup>2</sup>. إنه بكتابته الذكية يرنو إلى شد القارئ، وجعله يرى ويشعر بما هو هامشي في التاريخ.

وهذا مانراه ينطبق على رواية (الديوان الإسيرطي). التي أسس من خلالها الكاتب وعيا، وبعدا فكريين حول أسئلة وجودية، رافقت سيرة ازدهار مدينة وسقوطها.

المحروسة، الجزائر العاصمة قديما بدت أكثر جمالا، شبيهة بغيمة بيضاء، ذات دروب حجرية متعرجة، وبيوت بهية، ملأى بحدائق الزهور. أزقتها ضيقة وحميمية، ومقاهيها وأسواقها صاخبة، تضح بالحركة والحياة. مساجدها مشرعة الأبواب، وفقراؤها مكفيون، وعلماؤها محترمون. والكل ينعم بالأمان بفضل أسطولها البحري، ورياسها الشجعان. كما كان العثمانيون يتحملون نفقة طلاب العلم في مسارهم الدراسي، وفي رحلاتهم إلى أداء مناسك الحج والعمرة.

<sup>1</sup>-حرفنة الدهشة والمخادعة السردية، عمار الثويني، جريدة النهار، العدد2467، 20-4-2021.

<sup>2</sup>-حسن نجمي، شعيرة الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، الجزائر، ص 118.

- "لا يفهمون أن نظام الأوقاف كان يسير حياتنا منذ آلاف السنين، يضمن الحياة لطلاب العلم وللفقراء وعابري السبيل، وحتى أولئك الذين يحملهم الحنين إلى زيارة النبي الكريم، ولا تسعفهم جيوبهم، كان الوقف هو من يتحمل النفقة، والعثمانيون كانوا يبجلونه ويهبون جزءا من أموالهم وفقا يستفيد منه فقراء الجزائريين وعلمائهم".<sup>1</sup>

هكذا صور لنا الكاتب المحروسة قبل الحملة، من منظور ابن ميار. الشيخ المثقف، المقرب للباشا، والذي ظل يسعى لإعادة مجد المدينة، وحكامها الأتراك عبثا.

للمدن وجه آخر دوما غير الوجه الذي تبدو عليه. فلم تكن المحروسة مدينة صديقة في عيون السلاوي وكافيار. الحكواتي السلاوي، الذي سخر دماه القماشية لانتقاد حكم الأتراك في المدينة. حكم قائم على النهب والقرصنة والسطو على ممتلكات الغير، والتميز الإثني بين المغاربة والأتراك. الأتراك الذين كانوا يتمتعون بامتيازات تفوق بكثير ما يتمتع به المغاربة واليهود في المدينة.

- "كانت بيوتهم أجمل من بيوتنا، ومزارعهم أوسع من مزارعنا، ومفتيهم له الكلمة الأخيرة عند الباشا الكبير. بالرغم من أننا أكثر عددا".<sup>2</sup>

أما كافيار، ضابط الهندسة المدنية، والذي كان سجيناً في المحروسة قبل الحملة فقد ظل حاملاً مرارة هزيمة جيش نابليون في معركة واترلو التاريخية، و متمسكا باقتناعاته أن حملة فرنسا على الجزائر لا بد منها لتحقيق مجد ضيعه الخونة والمتخاذلون في معركة واترلو. كما أنها حملة تأديبية في نظره للبرابرة، الذين وصفهم بالقساة المتوحشين. ووصف مدينتهم بالمدينة القاسية. مدينة للرياس القساة، الذين يعيشون على نهب وقرصنة سفن البحر المتوسط:

- "كانوا في شات يتكلمون عن الأتراك بخوف مثلما يتكلمون عن ريح المايسترال، يقتلعون البحارة من مراكبهم كما تجتث تلك الريح الأشجار بيسر".<sup>3</sup>

- "مدينة تسطو على المدن التي تجاورها، وتستعبد المسيحيين ليعينوها على بناء أساطيل جديدة"<sup>4</sup>

<sup>1</sup> - عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2018، ص50.

<sup>2</sup> - الديوان الإسبرطي، ص66.

<sup>3</sup> - الديوان الإسبرطي، ص37.

<sup>4</sup> - الديوان الإسبرطي، ص113.

الرغبة بفتح الجزائر، كانت حلما نابليونيا قديما. دفعت نابليون لإرسال أفضل جنوده لأرض الجزائر، ليعدوا تقارير حول المدينة. وهكذا هو تاريخ سقوط المدن واحتلالها دائما يبدأ بالجوسسة.

- "كانت لفظة الجزائر تتردد كثيرا حتى في السنوات الأولى لنابليون، وحلم بفتح هذه المدينة"<sup>1</sup>

ولأن المحروسة كانت بالفعل مدينة يقوم نظام اقتصادها على الصيد والقرصنة، فقد كانت مدينة تشيد السجون للأسرى الذين يستغلون في ورش الرخام والملح، وبناء المراكب.

يصف كافيار سجون المحروسة وصفا مأساويا، أظهر فيه جنود بني عثمان بصورة منتزعة الإنسانية، قاسون جدا مع الأسرى من عرب مسلمين لم يدفعوا الضرائب، ومن زنوج وأسرى أوروبيين، نُهبت سفنهم. الأسرى في سجون المحروسة مقيدون ببعضهم بأغلال وسلاسل حديدية ثقيلة حول أرجلهم وأيديهم، يستقبلون الركلات وضربات السياط من حراس السجن، ويجبرون على الأعمال الشاقة في ورش الملح، ومقالع الحجارة. وجدران سجونها عالية، وباحتائها قدرة، وعنابرها ضيقة وعفنة، باردة ومعتمة. تكتظ بالأسرى الذين يرفسون بعضهم بعضا.

- "تطلعت إلى جدران السجن العالية، انتبهت لنفسي أفكر كأسير حرب، بينما لم أكن سوى عبد مغلول في مدينة معبأة بالمتوحشين"<sup>2</sup>

قساوة مدينة المحروسة على الآخر المختلف من مسيحيين ويهود ومور، دفعت بكافيار أن يشبهها بإسبرطة اليونانية، والتي ارتبط اسمها وحضورها في التاريخ في القرن الخامس قبل الميلاد بالحروب والوحشية والقتال.

قلنا آنفا أن الرواية تتجاوز مهمتها في سرد التاريخ ما هو مركزي، إلى ما هو هامشي، ومسكوت عنه. إنها تحاول نقض السلطة الأبوية، لتكشف عورة التاريخ، وتعري زيفه، ومواضع هناته.

أيضا الروائي العيساوي بسرده لتفاصيل تاريخ المحروسة قبل سقوطها بدءا بنظامها القائم على التمييز الإثني والقرصنة والاستعباد، والاعتقالات المتكررة للباشاوات، وتوتر علاقاتها مع الدول المجاورة إلى التخطيط لاحتلالها بالجوسسة، فضلا عن قصة التاجرين اليهوديين الذين تسببا في احتقان أزمة الديون بين المحروسة وفرنسا. هذه الأزمة التي استغلها الفرنسيون في ابتزاز الباشا التركي وافتعال حادثة المروحة، واتخاذها مبررا ظاهريا للدفاع عن كرامة القنصل الفرنسي، ومجد الأمة الفرنسية. كل هذه الهنات يراها الكاتب سببا فعليا أدى إلى ضعف المدينة واحتلالها.

<sup>1</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 37.

<sup>2</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 110.

## -المحروسة أثناء الحملة:

يستمر الكاتب في سرد قصة المدينة، متبعاً نفس التقنيات السردية. تعدد الأصوات، والاسترداد الزمني، ووصف المشاهد وصفا مطولاً، مع كثافة التكرار. بلغة بسيطة وجميلة.

## .طولون..

المدينة الأكثر حضوراً في ذاكرة كل جزائري مهتم بالتاريخ. يرتبط حضورها بالحملة الفرنسية على الجزائر. صوّرها الكاتب وهي تعيش لحظات ضجيج شوارعها، وبهجة موانئها استعداداً للحملة. الكل يشارك في الحملة بطريقته، الضحكات والهمسات والأحاديث والتهنئات التي تمجد الحملة وتباركها. النساء يتبرعن بالطعام، والأطفال يتأبطن صرر الأغطية والثياب ويوزعونها على الجنود. السفن الحربية تملأ ميناء طولون، والصحافة التي يمثلها المراسل الصحفي دييون حاضرة، والرسامون حاضرون بدورهم، استعداداً لرسم تفاصيل الحملة والمعارك.

- "كانت سفينة تنكئ على البحر في سكينه، أضحت اليوم مهرجاناً مختلطاً"<sup>1</sup>

- "أبواب طولون مازالت تكتظ بجنود يفدون كل حين، والميناء أضحي هو الآخر مكتظاً بالسفن"<sup>2</sup>

أسهب الكاتب في وصف رحلة الحملة، وأولى اهتماماً بكل تفاصيلها من صخب في مدينة طولون إلى تجهيز السفن بالجنود والخيول، والعتاد والأسلحة. كما جاء على ذكر المدن التي رست فيها سفن الأسطول قصد الراحة والتزود بالمؤن كمدينة بالمبا الإسبانية. بل وأطنب في سرد الأحاديث والحوارات التي كانت تدور على متن السفن حول المحروسة. وأبرز لنا النوايا والأهداف من الحملة، والتي لم تكن مطلقاً من أجل التبشير والنور ونشر الحضارة، بل كانت لأجل المال فحسب.

- "المال هو إله كل هؤلاء الناس الذين تراهم من حولك (..) كلهم يسعون إلى حظوظهم من أموال تلك المدينة"<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 93.

<sup>2</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 101.

<sup>3</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 183.

تبرز هذه التفاصيل-التي قد يراها البعض إطنابا وحشوا- وعي الكاتب بأهمية سرد التفاصيل في الكتابة الروائية. هذه التفاصيل التي تلعب دورا مهما في رسم المشاهد واكتمالها لدى القارئ. وإذا فهي ليست مجرد عنصر تكميلي مقحم وإضافي، بل حضور مهم وضروري في النص.

وعلى القارئ أن يثمن جهد الكاتب، الذي يقضي وقتا طويلا في جمع تفاصيل مشاهد نصه. ويلغي بذلك فكرة أن هذه التفاصيل تؤشر على وقوع الكاتب في الإطناب والحشو.

حرص الكاتب على وصف المحروسة وهي تعيش لحظات توترها وتخوفها، واستعدادها لردع الحملة الأوروبية. وسرد مجريات الأحداث عند نزول الجنود الفرنسيين على شواطئ سيدي فرج، ووقائع المعارك بين الطرفين، سردا مأساويا جميلا.

"تسللت في المساء بعد أويتنا إلى معسكرهم، رأيتهم من أعلى التل، يسحبون المدافع حتى بلغوا قلب السهل. وبدأت فرقة أخرى الحفر، كانوا يعدون الخنادق، ولم يتوقفوا طوال الليل، تراءت لي الأضواء في الأسفل كأنها نجوم زرعت بالأرض"<sup>1</sup>

هذا السرد يعكس التكوين الثقافي والفني والمعرفي لدى الكاتب، الذي مكّنه من التقلب بين شخصياته ديون وكافيار والسلاوي وابن ميار على اختلاف هوياتها ومستوياتها ووظائفها (والمعجزة الحقة التي يحققها الروائي، تتمثل على تقمص هذه الشخصيات كلها، والدوران بينها دورانا حرا، من غير أن يشعر القارئ بوجوده وراءها).<sup>2</sup>

كذلك الشأن لدى "اليساوي" الذي جعل كل شخصية من شخصياته تنقل لنا مجريات معارك الحملة في المدينة من منظورها. وسلط الكاتب الضوء على هنات نظام الحكم العثماني في المحروسة، والتي أوزع أهم أسباب سقوطها إلى تحاذل واستهتار بعض القادة الأتراك، وإهمالهم وانشغالهم، وسوء تخطيطهم الحربي للدفاع عن المدينة في مشاهد بانورامية توقظ الإحساس بالحسرة أكثر مما تبعث على الاعتزاز. مما يجعلنا ننتزع هالة التقديس عن العنصر العثماني وتواجهه في المحروسة، ونمقت الجنود الأتراك الذين امتلأت الذاكرة التاريخية بهم، والتي صورتهم لنا في صورة الأبطال الشجعان.

<sup>1</sup> - عبد الوهاب عيساوي، ص 145.

<sup>2</sup> - سعيد بوطاجين وآخرون، المحكي الروائي العربي، أسئلة الذات والمجتمع، دار الأملية للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 2014، ص 62.

## -المحروسة بعد الحملة:

وصف الكاتب المحروسة بعد الهزيمة والاستسلام. الناس يسحبون الجرحى على عربات خشبية، وآخرون على الأكتاف. وثكنات خالية، وقتلى ملقاة جثثهم دون عناية. والرجال يفرون بعائلاتهم من المدينة.

"وجاوزت البوابة، ثم غابت وأنا أرى حركة الناس يسحبون الجرحى، يحملونهم على عربات خشبية، وآخرون على الأكتاف، وبغايا يستلقين على الأرض، بعضهن موتى(..) الضجيج يتعالى من أفواه الناس، وأصوات بكاء الأطفال"<sup>1</sup>

تاريخ سقوط المدن في الحروب متشابه دائما، قتل ونهب واغتصاب ونفي وفرار. ومن النادر أن نعثر في التاريخ على مدينة سقطت دون خسائر، ودون أن تتعرض إلى تحولات كبرى في ملامحها الطبوغرافية، ونظامها الاجتماعي، وقيمها الدينية والثقافية.

"حين توغلنا أكثر بدا الجنود أكثر عددا، على أرض الشوارع أجسام محطمة، أوان زخرفية، وقطع من النحاس والقماش والخشب، أشحت بوجهي عنها، وخفق قلبي بشدة حينما رأيت العلم الأبيض أعلى القصر"<sup>2</sup>

وكدأبه الكاتب "عيساوي" يواصل وصف سقوط المحروسة وتحولها، مركزا على شعرية التفاصيل، التي تغمرنا بالصور والأخيلة والاستذكار.

على لسان بطليه ابن ميار والسلاوي يصف المدينة وصفا مؤملا. فراغ الزوايا التي كانت تصدح بالذكر زمن الأتراك، والجامع الكبير هجر ولم يعد هنالك طلبة يقصدونه مجتمعين لقراءة البخاري أو لتدارس مختصر خليل أو رسالة القيرواني.

"كان خاويا منهم ومن الناس، صار مثل أي مؤسسة فرنسية، يفتح ويغلق في أوقات الصلاة المعلومة"<sup>3</sup>

حتى المقاهي صارت مزيجا من الجزائريين والأوروبيين من غربي الأطوار. والأراضي والبيوت والحوانيت نُهبت، ووزعت على الوافدين الجدد من الأجانب. والدكاكين والأحياء والمساجد تم دك أغلبها. وحولت الجوامع إلى كنائس في حملة شرسة، استهدفت قيم ومقومات هوية المدينة قصد طمرها وإقصائها.

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص208.

<sup>2</sup> - الديوان الإسيرطي، ص220.

<sup>3</sup> - الديوان الإسيرطي، ص52.

- "ألثفت أبحاث عن جامع السيدة، فلا أرى إلا الفراغ، هدموه وسووا أرضه كي تغدو ساحة مثل التي رأيتهما في باريس ولندن"<sup>1</sup>

ويلخص الكاتب بصوت ابن ميار مدى تحول المحروسة على يد الغزاة بقوله:

- "لم يكن في استطاعتي الاستمرار، المحروسة اليوم ليست محروسة الأمس"<sup>2</sup>

الغازي كما ذكرنا آنفا يسعى جاهدا لتغيير ملامح المدينة المغزوة، واستبدال مكوناتها الهوياتية.

- "غابت أصوات الموتى لكن الحقيقة لم تغب، نقرؤها عند كل منعطف للمحروسة، شارع شارل الخامس، شارع دوكين، شارع دوربا، شارع كليبر، باب فرنسا، لم تعد الأسماء نفسها، وبعض الحوارية اختفت أشكالها القديمة، ونبتت أخرى وبأسماء مختلفة"<sup>3</sup>

أسماء المواقع والحارات والشوارع مرتبطة بلغة وثقافة سكانها وذكرياتهم وتاريخهم المحلي. وإعطاء مسميات أجنبية لحارات المدينة وشوارعها هو نوع من الإقصاء المدروس للمقومات القاعدية للهوية المكانية. (هذا النوع من الإقصاء نجده يتعاضد في حالة الاحتلال العسكري أو في حالة العولمة. واللذان تتجاوز فيهما الأمم والأقوام الصراع المادي إلى الصراع الروحي والرمزي).<sup>4</sup>

هذا التحول الذي طرأ على أحياء المحروسة، أشعر أهلها بالعزلة والغربة، إذ بدت فاقدة لحميميتها القديمة، فأحدثت لأهلها ومرتاديهما من العرب حالة انفصام كبير بينهم وبين مدينتهم. وأدخلتهم في دوامة من الإحساس بالضالة والوحشة، حيث غدت أحياء المدينة ملاءى بالعساكر الفرنسيين. والوافدين الأجانب من مالطيين وإسبان. فانتزع بذلك البعد الحميمي من المدينة. وصارت مدينة بلا روح.

- "لو وقف الباشا اليوم معي في شارع المحروسة الكبير لكان حزنه أكبر وهو يرى الجنود يعبرونه جيئة وذهابا، حتى فر أهله منه، ولا يقتربون إلا حينما يضطرون لذلك، يسحبهم الحنين إلى بيوتهم القديمة وإلى دكاكينهم التي احتلها الأروبيون"<sup>5</sup>

<sup>1</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 54.

<sup>2</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 54.

<sup>3</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 67.

<sup>4</sup> - إيمان جريدان، هوية المكان وتحولاته، قراءة في رواية طوق الحمام، دار الكافي للنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، الجزائر، 2020، ص 107.

<sup>5</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 53.

ضاق السلاوي ذرعا من جبن أهل المحروسة واستسلامهم للمحتل الفرنسي، راضين بحياة الذل والتهميش. وفضل الالتحاق بصقوف جيش الأمير عبد القادر. في حين واصل ابن ميار نضاله السياسي.

استدعى الكاتب شخصية الأمير عبد القادر، دون أن يذكر اسمه، بل أشار له في أكثر من موضع بالأمير فقط. وانتقده على لسان السلاوي الذي تساءل لم لم يقدم الأمير على نصره الباشا عندما استنجد به غداة حصار المدينة وسقوطها. هذا الاستدعاء هو نوع من تعرية هنات أبطال الماضي، الذين قدمهم التاريخ في صورة مثالية.

### -الحياة الاجتماعية في المحروسة:

تمتعت كتابة "عيساوي" في (الديوان الإسبرطي) باستحضار وقائع الحياة الاجتماعية في المدينة، إذ لا يمكن سرد سيرة مدينة بمنأى عن الحياة الاجتماعية لسكانها. فرصف بذلك عدة تفصيلات عن الفضاء اليومي في مشهده الروائي. وأعاد نبض الحياة في المحروسة، حتى بدت وكأنها إعادة خلق للواقع والتاريخ.

رصد الكاتب انتشار الأمراض والأوبئة في المدينة. دون أن يتطرق كيف كان أهل المدينة يتصدون لها. عدا التعليمات التي قدمها كافيبار لجنوده قبل نزولهم إلى شواطئ المدينة غداة الحملة. وانتقد بشدة على لسان أبطاله الحكم العثماني الذي تسبب في تخلف المدينة، وخلوها من مستشفى.

- "الطاعون سحب ثلثي المحروسة، ووقف الأتراك يطالعون الأيتام، ولا يفعلون شيئا"<sup>1</sup>.

- "المدينة التي فتنت بها، لا تكاد تعثر فيها على طبيب، أو حتى عالم طبيعة، أو مهتما بعلوم أخرى. هم لا يحسنون سوى الأكل والشرب"<sup>2</sup>

كما رصد لنا اهتمام أهل المحروسة بالجنيات والحدائق، وحبهم لغرس الأزهار والاعتناء بها، وشدة محافظتهم على نظافة بيوتهم وأحيائهم. وصور لنا الحفلات والأعراس في المحروسة، والتي كانت تحيا بفرق غنائية نسائية بالضرب على الدفوف، والرقص بالمناديل. وهي ذاتها الرقصة التي تعرف بالرقصة العاصمية، في إشارة ذكية من الكاتب أن المدينة لا تزال تحافظ على تراثها الثقافي، رغم توالي حملات الاحتلال عليها. ولم يغفل الكاتب على وصف أزياء الأتراك خاصة، وتبجحهم بفخامة وجمال ألبستهم المطرزة بالذهب.

<sup>1</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 153.

<sup>2</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 333.

- "الثياب بدت جميلة، قميص أسود طويل، خمنت أنه من الحرير، وشريط مزخرف شغل مكان الأزرار، يلمع كأن خيوطه من ذهب، أو ربما هي كذلك، يتنطق بجزام حمل اللون نفسه مع الشريط، وعلى جانب الخزام، لمعت أحجار فيروزية على مقبض الخنجر."<sup>1</sup>

وإدماهم على التدخين وشرب القهوة، التي كانت ترافقهم حتى في المعارك البحرية والغزوات. فضلا عن كثرة المقاهي في المدينة، ونظام الأسواق والدكاكين فيها، إذ خصص كل حي بتجارة بعينها. كسوق النحاسين، وحي الخبازين.

هذا واتسع مخيال الكاتب لرصد جماليات الجانب الروحي في المدينة. قداسة ضريح الشيخ العلامة عبد الرحمن الثعالبي، وتعلق أهل المدينة بزيارته، والنذر لله في قضاء حوائجهم، عند مقامه. ناهيك عن احترام العلماء وتبجيلهم، وكثرة تشييد المساجد، التي كانت موزعة بين المور والأترك. كمسجدي السيدة وكتشاوة التاريخيين.

المدينة كانت مزيجا من الأترك والمور واليهود، فضلا عن أقليات أجنبية أوروبية. ورغم أن المدينة استوعبت هذه التركيبة غير المتجانسة، إلا أنها ساهمت في تنافرها، إذ أن الحكم العثماني عمل على تفضيل المواطنين الأترك، ونبتذ غبرهم خاصة من اليهود والمسيحيين.

بهذا، بدت الرواية في كثير من المواضع وكأنها تأريخا وبحثا أنثروبولوجيا وحفريا في سيرة قيم وعادات ويوميات مدينة المحروسة في النصف الأول من القرن التاسع عشر. رصفها الكاتب ليضفي طابع الواقعية والتشويق على روايته. وليسترجع بها قصة مدينة سطع نجمها على ضفاف المتوسط ذات تاريخ.

<sup>1</sup> - الديوان الإسبرطي، صص 175-176.

## 1-2 سعيدة... معنى المدينة:

حضرت مدينة سعيدة، بشكل مكثف وبارز في رواية (أنا وحايم). ليس حضورا بحشد أسماء ومعالم وشوارع المدينة فحسب، بل حضورا روحيا للمكان، بحمولته الثقافية والمعرفية.

استوعب "الحبيب السائح" خصوصيات مدينة سعيدة التاريخية، والأنثروبولوجية والمعمارية. وألمّ بكثير من جوانب الحياة فيها في الفترة الكولونيالية، وفترة بعيد الاستقلال. فضلا عن مناخها وجغرافيتها وسردياتها. هذه المعرفة أتاحت له استحضار سعيدة بحب في روايته (أنا وحايم) استحضارا سوسولوجيا وتاريخيا، مما جعلها متاحة كعادات وتقاليد، وحرّك اجتماعي وتاريخي.

بناء على ما سبق، اكتسبت سعيدة قيمة مركزية في الرواية، بوصفها مسقط رأس البطلين، أرسلان وحايم، ومدينة طفولتهما وشبابهما. ورغم أن الكاتب وزع أحداث روايته على عدة مدن كوههران والجزائر العاصمة ومعسكر، إلا أن سعيدة كانت الأكثر حضورا وتأثيرا. وصفها الكاتب في الفترة الكولونيالية، بالمدينة الصغيرة، ذات طابع ريفي جميل، يتخللها الوادي والقنطرة وبساتين ملأى بأشجار التفاح والبرقوق والزيتون، وأشجار الدلب. كما لم تكن تخلو مع ذلك من مرافق ضرورية كالبليدية والمدرسة والمسرح والحانات والفنادق. (إنها تشكل مثال الفضاء الحضري المفتوح على قيم الأرض الزراعية ورمزيتها من جهة، كما تتيح من جهة أخرى إمكانيات رصد أشكال التعبير الاجتماعي على مستوى شامل)<sup>1</sup> وبالأخص في الفترة الكولونيالية، وبعيد الاستقلال.

- "في طريق عودتنا إلى الدرب، وقد عبرنا السكة الحديدية، دخلنا في شارع جيرفيل الذي كان كبقية الشوارع الأخرى، يكاد يخلو من الحركة في تلك الظهيرة القائظة، إلا سيارة تمر بأزيز محركها وسحسحة عجلاؤها على الإسفلت، أو تلك المرأة بقبعتها الاستوائية البيضاء تعبر، أو ذاك الرجل الواقف على الرصيف الآخر في ظل شجرة دلب يدخن سيجارة"<sup>2</sup>

هذا المقطع يرسم لنا ملمحا لمدينة سعيدة، زمن الاستعمار في يوم صائف.

المدينة الريفية، المحاطة بالمزارع والبساتين والروابي، والغابات تبدو أكثر سحرا وجمالا من تلك المحاطة بالمعامل والمصانع والثكنات، والتي لا تزيد المدينة إلا تلوثا وكسوبا. هكذا بدت سعيدة الريفية، جميلة وزادتها مزارعها ألقا وبداعة:

<sup>1</sup>- شعرية الفضاء، حسن نجمي، ص 143.

<sup>2</sup>- الحبيب السائح، أنا وحايم، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2018، ص15.

- "كانت السماء في ألقها الغسقي، تتهياً لظهور القمر، لما غمرتنا ألوان الليل ونحن في سيارة البوجو في طريقنا إلى المزرعة؛ على يميننا وشمالنا حقول الحبوب النائمة تقطعها من حين إلى آخر غابات الفرنان والبلوط وحقول الزيتون والكروم"<sup>1</sup>

تبدو المدن على هذا النحو، مدن صديقة للبيئة، أصوات الطيور والحيوانات والأشجار، وروائح الأزهار وأعشاب المروج والروابي، وألوان الفواكه الموسمية في الطبيعة تمتزج بأصوات وروائح وألوان المدينة. الأمر الذي يبعث في النفس هدوءاً وسكينة.

حرصُ الكاتب على الانتماء لمدينة سعيدة جعله يؤرخ ل بدايات نشأتها، فاختار واحدة من أهم القصص التي تروى عن بداية تأسيسها:

- "لغة مفتونة بالأمير يؤسس المدينة الأولى في اليعقوبية، رافعا قواعدها على الجبل الواقع إلى الجنوب، يحمل بيديه حجارة البناء. ويقطع أعمدة التسقيف ويوجه مثل أي مهندس، الأعمال لإنجاز مصنع البارود، ثم يجمع جمعه ويعلن أنه سماها باسم المرابطة لالة سعيدة."<sup>2</sup>

ويواصل الكاتب توثيقه لتاريخ مدينة سعيدة، التي تم طمرها وهدمها لتحل محلها سعيدة الكولونيلية:

- "فلمع لي ما كنت سجلته لما بحثت في قسم التاريخ عن توسع الاحتلال نحو السهوب. وقرأت ما قد كتبه نقيب شارك في غزو المنطقة: "وبينما كانت مطاردة العدو مستمرة فإن العقيد دوفو، بأمر من الجنرال بيجو، كان يكمل تهديم التحصينات التي رفعها عبد القادر. وبمجرد أن تم تدمير المدينة البدائية بدأ التفكير في بناء لارودوت، بسور يبلغ محيطه ثمانئة متر وارتفاعه خمسة أمتار"<sup>3</sup>

في منتصف القرن العشرين، لم تكن مدينة سعيدة مدينة محايدة، بل كانت مختزقة بكل علامات السلطة الفرنسية، وهيمتها الإيديولوجية والعسكرية والثقافية. قدمها الكاتب على شاكلة لوحة فسيفسائية؛ خليط إثني من المسلمين العرب والأمازيغ، واليهود والنصارى. أنتج مدينة رغم صغر مساحتها مدينة كولونيلية ذات تركيبة سوسولوجية وثقافية ولسانية متنوعة.

1- أنا وحاييم، ص 289.

2- أنا وحاييم، ص 105.

3- أنا وحاييم، صص 106-107.

- "وقد ثار في ذهني حي الدرب بخليطه الإثني، فتحدثت لهما، هو وحسيبة، عن زاوية، جيرانى هناك، وهم ينافسون اليهود في حرفة الخياطة"<sup>1</sup>

وإن كانت الأحياء الشعبية التي يسكنها الأهالي في سعيده الكولونيلية، تضم عربا وأمازيغ، وبعضا من الطوائف اليهودية، المنسجمين والمتعايشين، فإنها بالمقابل تضم أحياء وشوارع راقية، لكنها لا تفضي إلا للغياب والعنصرية، وتكرس لفكرة طمس الآخر وتهميشه. شوارع أكثر تقدما وراقيا، وأقل انفتاحا وتقبلا للآخر:

- "كنت، كما قلت لحاييم، أشعر أننا نضيف بهيئتينا، لونين آخرين إلى فسيفساء الشارع المتجمهر بسيدات أوروبيات وأقدام سوداء وفي أيديهن طفل أو قفة أو باقة أزهار. يمشين وحدهن أو في صحبة من يبدون أزواجهن أو عشاقهن. فلا تتخللن إلا نادرا امرأة من الأهالي المسلمين ترتدي الملحفة أو الحايك.. أو رجل في لباسه التقليدي.. وسطهم طائفة من اليهود التوشافيم."<sup>2</sup>

إن الشارع بهذه التشكيلة، في مدينة صغيرة كولونيلية كسعيده، يبقى مجرد فضاء أحادي الهوية، يعبر عن حساسية مفرطة اتجاه الآخر (الأهالي من الجزائريين). ونحن مدعوون إلى تقبل هذا الفضاء كحقيقة، لأننا نعرف الوضع الاعتباري للأهالي الأصليين في المدن المستعمرة، التي تعمل على إقصائهم من المدارس والجامعات والأحياء الراقية، والشوارع الرئيسية، والمرافق الحيوية كدور السينما والمسرح.

- "وقال إن أطفال الأهالي لا يمثلون سوى حوالي عشرة في المائة بالنسبة إلى غيرهم."<sup>3</sup>

وكما أرخ الكاتب لنشأة سعيده وبداياتها، فقد حرص على تصوير دفع الحياة فيها في فترة الحرب التحريرية، صخبها وضجيجها، وحجم الخوف والرعب والبؤس الذي تلبسها طيلة فترة الحرب.

ففي ظل هيمنة المستعمر الفرنسي على كل ما هو مهم في المدينة من مباني وحقول ومزارع ومعامل، ودفع الأهالي إلى الفقر والعوز والفاقة، خارج أسوار المدينة وعلى حوافها. ومع اتساع مساحة الوعي لديهم بضرورة الانتفاضة في وجه العدو الغاصب لاسترجاع المدينة والأرض، بدأت مدينة سعيده تعرف توترا حادا، وصارت كغيرها من المدن في المنتصف الثاني من القرن المنصرم أقل مأمنا على ساكنيها من المعمرين والأهالي. قدمها

1- أنا وحاييم، ص 83.

2- أنا وحاييم، ص 158.

3- أنا وحاييم، ص 84.

الكاتب في مشاهد دموية وعنيفة؛ اشتباكات وصراعات بين الأقدام السوداء والأوروبيين من جهة، وبين الأهالي والمعمرين من جهة ثانية.

- "ولما نفضنا، رددت بصوت مهموس ما كان نطق به سي فراحي في الاجتماع الأخير: ((ابتداء من هذه اللحظة لم يعد أحد في مأمّن بهذه المدينة!))"<sup>1</sup>.

حرص الكاتب "الحبيب السائح" إذا على امتداد نصه الروائي (أنا وحاييم) على استحضار وقائع الحرب التحريرية، وتفصيلها، ووصفها في مشاهد أقرب إلى إعادة خلق الواقع، تعكس حضور العدو العنيف والاستنزائي في المدينة.

- "على طول الطريق التي قطعناها من لاوردوت إلى حي المحطة، عبر شارع إيزلي وكمبيطة، كنا نرى حالة الحرب التي حولت هذه المدينة إلى معتقل مفتوح إلى السماء."<sup>2</sup>.

ولنا أن نتخيل حجم الرعب والعنف الذي يجيم على المدن في مثل هذه الأوضاع.

استطاع الكاتب بحنكته الكتابية أن يحول مدينة سعيدة إلى نص نقرأه. فأتاح لنا بذلك قراءة الإنسان والمكان والتاريخ. في مشاهد حرب تملأ الذات القارئة بأنفاس الحرب والصراع الإنساني حول الوجود. أجراس الكنيسة تدق باستمرار معلنة عن وفاة، تتلوها خروج النعوش مسجاة بالعلم الثلاثي في اتجاه مقبرة النصارى بالمدينة. وتفجيرات لبعض البنايات الرسمية كالمسرح والملعب، ودكاكين ومقاهي وحانات مغلقة، وشوارع مزدحمة بالشاحنات والعربات العسكرية، وأحياء وساحات مطوقة بأسلاك كهربائية شائكة.

إن رصد مشاهد الحرب في المدينة، كما رسمها الكاتب، تكشف عن اختياره الدقيق وانتقائته للكثير من تفاصيلها وتجلياتها، انتقاء يقدم الحرب كما حدثت على أرض الواقع، بعيدا عن تشويه صورة العدو تشويها كاريكاتوريا أو حاقدا. وبرر لهذه المشاهد بمشاهد سابقة تعكس حجم التناقضات الايديولوجية والسياسية والاجتماعية، التي كانت سببا رئيسيا في إعلان وتأجيج نار الحرب. كما تعمل على إقناع القارئ بشرعية المقاومة.

في مشاهد استثنائية متتالية، فاصلة بين مرحلتين تاريخيتين من تاريخ الجزائر، يبرع "الحبيب السائح" في تصوير مدينة سعيدة غداة الاستفتاء بنعم أو لا لجزائر مستقلة. وخروج الجزائريين في احتفالات بهيجة، فرحا بالنصر والحرية.

<sup>1</sup>- أنا وحاييم، ص 164.

<sup>2</sup>- أنا وحاييم، ص 203.

- "كان المشهد عظيما، استثنائيا وسرياليا!"<sup>1</sup>.

مشاهد الاحتفالات بالنصر، وجموع الجماهير المتدفقة في الشوارع، حاملة رايات الهلال والنجمة، تخترقها الهتافات والزغاريد، كرس لها الكاتب عدة صفحات، عاكسا من خلالها مسار تحول مدينة.

- "وها هي هتافات تحيا الجزائر ترتفع من وسطهم، فتموج إلى أبعد نقطة في الشوارع الخمسة. ثم تخبو. ثم تتلوها أخرى في إيقاع كوريكرافي مثير وخالب، تتخله زغاريد قوية وحادة كأنها حناجر نحاسية"<sup>2</sup>.

هذه المشاهد تبرز استعداد مدينة سعيدة قبيل الاستفتاء ويوم الاستفتاء وبعده، إلى تغير جذري تاريخي شامل وفارق، يشمل تركيبتها السكانية، وبنيتها الاقتصادية والسياسية وقيمها الايديولوجية، ونظمها الاجتماعية واللسانية والثقافية.

سادت المدينة أيضا، عمليات إرهابية، انتقامية من طرف المنظمة السرية، كتفجير مسرح المدينة، وإطلاق النار على عابرين من الأهالي في بعض شوارعها. محادثات ومفاوضات لوقف إطلاق النار، وتزايد شراسة غلاة دعاة الجزائر فرنسية، ومد بشري هائل يكتسح الشوارع للتصويت في مدرسة المدينة. وقف إطلاق الرصاص، وصمت يسود ساحات المدينة. شاحنات عسكرية تقل الجنود، وتغادر المدينة في اتجاه الشمال نحو ميناء وهران ومطاراتها، وسيارات تقل عائلات أوروبية بامتعتها وحزمها وحقائبها. والدكاكين والمخابز، والحانات مغلقة على غير دأبها.

- "وكان مما وجده استثنائيا أيضا أن المخابز ودكاكين المواد الغذائية التي تفتح في العادة قبل هذه الساعة كانت مغلقة كلها"<sup>3</sup>

وسرايا جبهة التحرير الوطني، التي كانت مرابضة في الجبال، تنزل ولأول مرة إلى المدينة، وسط هتافات وأهازيج المتجمهرين من الأهالي.

- "وتخيلت، لأن عيوننا نفسها كانت في حال شبيهة بالدهشة، أن صمتنا إنما كان للاستماع إلى أصوات لغة جديدة تأتي من لا مكان ومن كل مكان تعلو على لغة الميز والقهر والحرب"<sup>4</sup>.

1- أنا وحايم، ص 213.

2- أنا وحايم، ص 219.

3- أنا وحايم، ص 214.

4- أنا وحايم، ص 217.

بدأت مدينة سعيدة - كما صورها الكاتب - غداة الاستقلال، مدينة تنتزع عنها ماضٍ وملامح كانت أجنبية، وتكتسي حلة جديدة، سطرها لها حركة التاريخ، ونضال الفدائيين.

- "ولما غادرنا الحي، لزم أن نمر بطريق المسبح البلدي الذي كانت ترابط قريبا منه دورية مسلحة، فدخلنا من باب معسكر المدينة القديمة التي بدا كل شيء فيها يؤول إلى ذكرى، كما قلت لزليخة: تاريخها وسورها.. عن يميننا ظهرت البيعة ساكنة، منسحبة إلى الخلف قليلا.. وعن شمالنا الكنيسة الصغيرة مهجورة"<sup>1</sup>.

ثكنة العدو كانت أيضا مهجورة وصامتة بلا علم. وملعب التنس يسبح في الفراغ، لا تهدده غير أصوات طيور الدوري، والأحياء الراقية خالية، إلا من قلة قليلة من ساكنيه الذين تخلفوا عن الرحيل، غالبيتهم عجائز وشيوخ.

المدينة التي كانت تعيش صباحات ومساءات استثنائية، ابتهاجا بالنصر، عرفت بعض الفوضى والتوتر أيضا، بسبب إقدام بعض الأهالي على الثأر من الخونة، ومداهمة وسرقة ممتلكات المعمرين. في حين كانت جبهة التحرير الوطني تحاول فرض النظام على المدينة، فقامت بحراسة المراكز الحيوية، والأحياء الراقية. لكن سعيدة مع ذلك سلمت نفسها لأهلها من الجزائريين، الذين كانوا يلزمون بحياة كريمة كالبشر. جراء الفراغ الذي قذفهم إليه المستعمر في أطراف المدينة.

- "الملعب والمسرح والشجر والعصافير والأرض والسماء كلها صارت اليوم ملكا لأطفالنا."<sup>2</sup>

من خلال المشاهد التي سطر فيها الكاتب مسار تحول مدينة سعيدة، نستشف وعيا حادا للكاتب اتجاه المدينة كخطاب، يحتاج تأملا وأكثر من قراءة بحثا عن الخفايا، وعن أحداث هامة وفارقة من تاريخ الجزائر الثوري لا تزال مبتورة وقيد الإخفاء والطمير.

نستشف أيضا، إحساسا جريحا بقوة الصدمة والانحيار الباطني. ففي الفترة المفصلية التي حاول فيها الشرفاء إعادة ترتيب المدن الجزائرية، وملمة أشلائها وشذراتها، كانت هناك أياد وجهات أخرى تحاول العبث بإنجازات الثورة المسلحة.

- "إنه يسيء، مثل حزبه، إلى شعب وبلد بأكملها"<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - أنا وحايم، ص 230.

<sup>2</sup> - أنا وحايم، ص 231.

<sup>3</sup> - أنا وحايم، ص 294.

بوجع الانكسار والفقْد، يَصور لنا الكاتب سعيدة وهي تغوص في مرحلة مضطربة، تفقد فيها معالم كولونيالية، كانت شاهدة على التقاء حضارتين، وقوميتين وثقافتين. طالتها يد الحماسة والجشع، فدمرتها ونهبت حجارها وتحفها.

– "ما يؤلم النفس غالبا ليس فقط فقدان عزيز أو شيء ثمين لهما في قلبنا مكانة، ولكن أيضا ما يزول من حولنا مما كان لذاكرتنا علامات تُنتدي بها إلى وجودنا وتاريخنا، آثارا كانت أم كلمات أم صور"<sup>1</sup>.

لم يقتصر التحول على نظم وقيم المدينة، ومعالمها المعمارية فحسب، بل طال شريحتها السكانية، التي حرص الكاتب على تصويرها بالتعايش الإثني، والتنوع الثقافي. موت حاييم اليهودي-البطل الثاني للرواية- هو رمزية لفقد التنوع السكاني في المدينة. هذا التنوع الذي أقرّ الكاتب أنه كان يزيد تنوعا وانفتاحا.

– "وافترضت له أن المشهد كان سيبدو جميلا ورائعا لو أن من كانوا فيها من الأوربيين، قبل عامين، يختلطون، الآن، بأولئك المواطنين الذين كنا نمشي وسطهم، يتقاسمون الشارع نفسه والفضاء."<sup>2</sup>

– سعيدة.. أنساق ثقافية:

سعيدة "الحبيب السائح" كمعظم المدن في الروايات الجيدة، مهياة لقراءة سيميائية لأنساقها ونظمها الثقافية. عمرانها وأكلاتها الشعبية، أزيائها التقليدية، عاداتها وتقاليدها في حفلات الزفاف والختان، ومناسبات العزاء ومواسم الجني والحصاد.

– "حضرت لي جدتي طاجين الرقاق بمرق من لحم الدجاج واللفت والحمص"<sup>3</sup>

– "كنا نشتهي، مثل قراءة الروايات في أيام الثلج، الحريرة والبركوكس بالحشايش والمطلوع بالعسل والرفيس بالشاي والرشته بلحم الدجاج"<sup>4</sup>

– "وعوائد الأعراس عند عائلات اليهود والمسلمين وتشابها كما في مراسم موكب العروس يوم زفها إلى بيت العريس مشيا أو في هودج أو على ظهر دابة"<sup>5</sup>

<sup>1</sup> – أنا وحاييم، ص 316.

<sup>2</sup> – أنا وحاييم، ص 263.

<sup>3</sup> – أنا وحاييم، ص 108.

<sup>4</sup> – أنا وحاييم، ص 161.

<sup>5</sup> – أنا وحاييم، ص 40.

الأطعمة والاحتفالات بالمناسبات في الرواية، حضرت غالباً عند استرجاع ذكريات الطفولة الحميمية، كما أراد الكاتب من خلالها توضيح التشابه الكبير بين الأكلات الشعبية للأسر العربية المسلمة، وتقاليدها، وأكلات وتقاليد الأسر اليهودية في الجزائر. فضلاً عما تحمله هذه الأنساق من رمزية الانتماء، والاحتفاء بالإرث الثقافي والحضاري لمدينة سعيدة.

أما الألبسة، فقد عكست الوضع الاجتماعي للبطلين، كما أبرزت الجانب الثقافي لكل الفئات المكونة للمجتمع الكولونيالي في تلك الفترة. عرب مسلمون، ويهود، وأوروبيون. جزمات سوداء طويلة ومعاطف وقمصان قطنية، وفساتين مدورة وقبعات استوائية. وبرانيس وجبب وعمامات وحلي وغيرها.

من المهم أن ننوه بأن هذه الأنساق الثقافية تدخل في الفضاء اليومي للمدينة والشخصيات. وتشكل عاملاً أساسياً في تقريب المحكي للقارئ. كما أنها تحضر (لتشكيل إيقاع جمالي مجرد ولتعميق الإحساس بقوة الفضاء المرئي وما يحيل عليه من ذاكرة أو بشر أو أشياء).<sup>1</sup>

حرص الكاتب على إبراز هذه الأنساق، بشكل مكثف ولافت للانتباه، يجعلنا نتيقن أنه استحضار مدروس ومتعمد، ينأى عن مجرد الحشو والإطناب، والاستحضار العشوائي. إلى كونه استحضاراً للتوثيق والمعرفة، ولإضفاء مزيد من دفق الحياة الإنسانية على شخوص وأحداث الرواية.

### 1-3 قسنطينة.. مسار تحول

أشاد عدد من المستشرقين بجمال مدينة قسنطينة، ووصفوها بالمدينة المثيرة للإعجاب، على غرار ما فعل الرحالة الفرنسي "لويس بورترو" Louis Bortrand في كتابه (إفريقيا). هذه المدينة التي ألهمت عدد كبير من الأدباء والشعراء والفنانين والرحالة. ودفعتهم لتدوين نصوص إبداعية خالدة بعدما تملكهم الهوس بعراقة حضارتها وعبقريتها بنائها وتفرد عمراتها، وهي مشدودة بين جسرين عظيمين، ومحاطة بمرتفعات خضراء.

<sup>1</sup> - شعرية الفضاء، ص 141.

صدرت الكثير من الكتب الهامة حول المدينة ككتاب (نفع الأزهار عما في قسنطينة من الأخبار) لـ "سليمان الصيد" وكتاب (تاريخ حضارة قسنطينة) لـ "الحاج أحمد بن المبارك العطار". كما ألقت قصائد ودواوين لا حصر لها تشيد ببهاء المدينة وتاريخها. كديوان (تحسدها النساء والمدن) للشاعر "نور الدين درويش".

في الرواية الجزائرية، نجد مدينة قسنطينة حاضرة في أعمال عدد من الأسماء الروائية البارزة في الساحة الأدبية التي تكتب باللسان الفرنسي كـ "مالك حداد" و"كاتب ياسين" و"رشيد بوجدره" و"زهور ونيسي". والأعمال المكتوبة باللغة العربية كروايات "طاهر وطار" و"أحلام مستغانمي" و"فضيلة فاروق".

فضلا عن دراسات نقدية ومقالات ومذكرات أكاديمية هامة أضافت الكثير إلى المكتبة الجزائرية والعربية. تناولت قسنطينة من منظورات متعددة، وفي عهود تاريخية مختلفة. من حيث تاريخها وتعاقب الأقوام والأمم عليها، ومن حيث أنساقها الثقافية والاجتماعية والدينية، وجماليات فضائها، وعراقة وتفرد طرزها المعمارية، وجهود علمائها وأدبائها ومصالحوها. كدراسة "ابن السائح الأخضر" لرواية (ذاكرة الجسد) في كتابه القيم (جماليات الفضاء القسنطيني) الصادر سنة 2007م، عن منشورات دار الأديب. التي تتبع فيها قرائن وتداعيات فضاء مدينة قسنطينة، وأبعادها الرمزية.

على مستوى الرواية الجزائرية، أشاد الكاتب "طاهر وطار" في روايته (الزلزال) بجمال وهدهد قسنطينة في الفترة الاستعمارية، من منظور بطله عبد المجيد أبو الأرواح، الذي كان ناقما على التحولات التي شهدتها المدينة بعد الاستقلال بسبب توافد الريفيين خاصة إليها. الذين أغرقوا المدينة بفوضاهم وصخبهم، وحركتهم الدائمة في الأزقة والشوارع.

- "زمن الفرنسيين كانت هادئة. هادئة بشكل ملفت للنظر. تدب الحياة فيها مع مطلع النهار، رويدا رويدا، وتزدهر بين العاشرة ومنتصف النهار، ثم تخفت فجأة، حتى الساعة الثالثة، لتستأنف تصاعدها، حتى تشتد بين الخامسة والتاسعة عندما يغادر التلاميذ المدارس والثانويات والمعاهد، وتتألق الأنوار، وتنطلق العطور من الغادات الأوروبية والإسرائيليات اللاتي يملأن الشوارع كالحوريات، بهجة وحبورا."<sup>1</sup>

تبدو حركة الزمن في المدينة الكولونيالية منتظمة ومتعاقبة بشكل منظم، وسكانها يباشرون أعمالهم وانشغالهم تدريجيا مع حلول الصباح، ليركنوا إلى الراحة فترة القيلولة. ويعاودوا حركتهم في المساء. وهذا الانتظام في الحركة من

<sup>1</sup> - الطاهر وطار، الزلزال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1974، ص8.

شأنه أن يصبغ المدينة بصبغة النظام والسكون. على عكس حركة الزمن المتسارعة والمتداخلة في المدينة بعد الاستقلال. صخب وحركة دؤوبة من السكان الأصليين والوافدين، وهو ما أشعر البطل بالتوتر والقلق، ودفعه إلى سب وشم الوافدين للمدينة خاصة، ونعتهم بأفبح الصفات. ووصفهم بالكسالى والملاعين، والخنافيس والشياطين. حتى ألوان عمارة المدينة وإن تعددت وبدت زاهية، فالبطل يميل لجمال لونها الأوروبي الذي كان يطبعها زمن الاحتلال والذي وصفه بالسكري الوقور!

المقاهي والأنزل هي الأخرى فقدت جمالها ووقارها بعدما كانت تجمع الباشوات والآغوات والمشائخ وكبار القوم وأعيان المدينة. وصارت اليوم تلم شمل الباعة المتعبين، والحمالين المرهقين، الذين تنبعث من أجسادهم روائح التعب والعفن.

التحول طال المدينة أيضا من حيث كثافة سكانها، وملاحهم. فبعدها كان عدد سكانها لا يتعدى المائة والخمسين ألفا، وملاحهم بارزة، ملامح عربية وأخرى أوروبية. صارت اليوم ملاحهم كثيرة ومتداخلة بين الشاوي والفرجيوي والقلبي والزناقي والسكيكدي وغيرهم. وعددهم فاق النصف مليون.

الكاتب "طاهر وطار" يشعر المتلقي بمرارة تحول مدينة قسنطينة من خلال استحضاره لأعلامها وشيوخها البارزين في الإصلاح الديني والاجتماعي كالشيخ العلامة "عبد الحميد بن باديس" وينعتهم بالشعب الحقيقي الذي تفتقده المدينة. فبعدها كانت قسنطينة مدينة ثقافية تستقبل كبار المشائخ والعلماء، صارت مرتعا للرعاة والمسولين والباعة المتجولين، وغاب عنها ملمح النظام والوقار. تبدلت بعض الجوامع لتصبح عيادات طبية، وافتقدت المدينة لروائح عطور الياسمين واللبان التي كانت تفوح من غاداتها الحسنات. واستسلمت المدينة لوجهها الرعوي والتجاري والاستهلاكي، وازدحمت طرقاتها بالغبار والبصاق، وبالباعة المزارعين المحملين بسلال الثمار والبيض والديوك الرومية. حتى غدت متداخلة الروائح والملامح والأصوات والأشخاص، وكل ما في الطرقات. وهي صورة أراد أن يرصد من خلالها الكاتب مدى التحول العميق للمدينة على جميع المستويات من الأفضل إلى الأسوأ الذي لا يكاد يحتمل.

- "يبدو أن الأمور مختلطة بشكل كبير في هذه المدينة. وأن كثيرا من الأشياء صارت فيها طبيعية.."

الباعة متداخلون، والتجار والحرفيون متداخلون، والجيران متداخلون والآباء والأبناء متداخلون، والأخوة والأخوات متداخلون. الراجلون والسيارات متداخلون والروائح متداخلة، شأنها شأن اللهجات والملاح، والأجناس أيضا"<sup>1</sup>.

نستطيع أن ندرك سمة المدينة الكولونيالية من خلال هذه المشاهد. سمة تقوم على مبدأ النظام الذي تفرضه التراتبية الاجتماعية بين المثقف واللامثقف، وبين الرجل والمرأة، والغني والفقير، والمعمرين والأهالي. وبغياب الطبقة والتراتبية انتفى النظام وحلت محله الفوضى.

بدأت صورة قسنطينة بعيد الاستقلال، وبالتحديد في سبعينات القرن العشرين من منظور الكاتب "طاهر وطار" مدينة التناقضات، مربعة، وقائمة، وداكنة اللون. كقطعة هاربة من الآخرة. ضيقت شرفاءها، وفقدت روحها ومحتواها، ولم يبق فيها إلا ما هو شكلي من الأنهج والمباني والجسور. واستسلمت للضغط الفوقي، والتخريب التحتي، وزجت بسكانها وزوارها في متاهة من الوحشة والاعتراب.

— "المدينة هذه أشبه ما تكون بباخرة في محيط عظيم، توحى في كل خطوة بالوحشة، وبالشعور بالاعتراب، والانقطاع عن العالم"<sup>2</sup>

المسميات الجديدة والمستحدثة لشوارع المدينة، هي الأخرى أشعرت ماريها بالاعتراب، فهي لم تعد تحمل أسماء الشهداء والعلماء فحسب، بل حملت أسماء دول ومدن شيوعية. مما عكس التحول الذي بدأت تتجه إليه مدينة قسنطينة، تحول جذري في المنظومة الاقتصادية للدولة ولنظمتها الاجتماعية. النظام الاشتراكي الذي يحمل شعار الأرض لمن يخدمها، وهو ما دفع بالبطل الشيخ أبو الأرواح أن يلجأ إلى أقاربه حتى يورثهم ورقيا بعض أراضيهم، حتى يمنع الحكومة من تأميمها واقتطاع بعضها، وتوزيعها على الفقراء وصغار الفلاحين.

الكاتب رصد من خلال تتبعه لمسار تحول مدينة قسنطينة مرحلة اقتصادية فارقة في تاريخ الجزائر سنوات السبعينات. مرحلة قللت من الفوارق الاجتماعية والطبقية بين المواطنين، وقلصت الهوة بين طبقة العمال الكادحين والطبقة البورجوازية.

<sup>1</sup> - الزلزال، صص 40-41.

<sup>2</sup> - الزلزال، ص 54.

اهتمام الكاتب بتقديم المدينة وتحولاتها دفعه لوصف أحيائها وأزقتها وجسورها، وأسواقها ودكاكينها وبنائاتها، ومقاهيها ومنعرجاتها ودروبها. وكل ما تزدهم به من بشر وعربات وبضاعة، وسيارات ومنحدرات وجبال. ناقلا تأوهات ولعنات البطل، وسخطه من هذا التحول الكاسح.

المدينة التي كانت تحمل سمة الحضارة والعلم، صارت اليوم وكأنها مجزأة إلى مداشر وقرى، مزدحة طرقاتها وأركانها بالمتسولين وبالريفيين الذين أسماهم البطل الآفاقيين، وأرجع تحلف المدينة وتراجعها إليهم.

الكاتب ولاهتمامه الشديد بمدينة قسنطينة نقل إلينا كل تفاصيل تحولاتها. مقارنة بين وضعها الذي كانت عليه في فترة الاحتلال، ووضعها الحالي بعيد الاستقلال. أوضاع اجتماعية وثقافية وسياسية زجت بالذين يحملون حنين الماضي في دوامة من الاغتراب والوحشة.

صورة هذه التحولات ليست بعيدة عما قدمه الكاتب "رشيد بوجدره" الذي جال بنا قسنطينة بين عهدين، العهد الاستعماري، وعهد الاستقلال. في مشاهد قليلة وقصيرة، لكنها ممتلئة بالدلالات. عكس من خلالها المدينة في فترات زمنية فارقة في تاريخ الجزائر. ما قبل الغزو الاستعماري عند تشييد الباي لسورها المانع للغزاة سنة 1848م، وأثناء الثورة التحريرية، وبعيد الاستقلال، والعشرية السوداء في تسعينات القرن الماضي.

- "تفتت ضوءاء هذه المدينة عند مجيء الليل ويعم السكوت فيها. ويبقى الفراغ شاغرا بين مكتب البريد المركزي ودار الولاية. كانت مدينة قسنطينة في هذه السنة، أي سنة 1958، تتمظهر بورشاتها الاصطناعية فتعمل وكأنها حريصة على تشغيل آلاف البطالين. فيلاحظ الناس وجود بعض الرافعات هنا وهناك وخروج بعض العمارات من الأرض وهي لا زالت في صدد الإنجاز، محاطة بأحبة من الخشب المنخور وقد غطيت كلها بملصقات تنادي بالسلم وتوقيف القتال"<sup>1</sup>

المدينة الكولونيالية من خلال هذا المشهد تحاول امتصاص غضب الأهالي الجزائريين، الذين ذاقوا ذرعا من القهر وأصناف التعسف، فتسعى لتوفير العمل لهم، وتدعوهم عبر شعاراتها إلى توقيف الحرب.

المدينة أيضا وبحسب تقديم الكاتب "بوجدره" لها كانت نموذجاً للمثاقفة والتعايش مع الآخر المختلف، من خلال رابطة الصداقة التي جمعت بين بطل الرواية، وصديقيه كمال رايس واليهودي هنري كوهين. غير أن هذه السمة بدأت بالتلاشي تدريجياً. إذ غادرتها معظم الأسر الأوروبية والإسرائيلية. ولم تعد قسنطينة مدينة صديقة

<sup>1</sup> - الزلزال، ص 56.

لأحد. إذ ظهرت الكآبة على مدى سنوات استقلالها، وفي سنوات العشرية الدموية بالأخص. سحنة الكآبة والحزن نستشفها ونستشعرها من خلال ذكريات البطل البائسة.

- "قسنطينة حيث اكتسبت هذا الوجه البالي وهذه السحنة الشاحبة منذ سن المراهقة. قسنطينة حيث الإغراء بالانتحار يهيمن على سكانها أكثر من أي مدينة أخرى"<sup>1</sup>

وهل هناك أكثر بؤسا من مدينة جميلة، لكنها تشعرك بالعزلة والوحشة والرغبة في الانتحار. وتزداد هذه الرغبة جموحا في سنوات التسعينات. فينقل لنا الكاتب هدوء مدينة تميمون الصحراوية، ويربكنا بمقاطع مفاجئة يصف فيها مشاهد الاغتيالات والموت بطرق بشعة في قسنطينة المعلقة. وكأنه يود أن يعرض مدى فارق الأمان بين مدينتين في وقت مترام. قسنطينة التي كانت وجهة للسياح والعلماء، ومحطة للقاءات الحب والغرام، تبدت لمدينة منفرة، عنيفة، وساحقة.

قسنطينة "كاتب ياسين" بدت مدينة مهزومة هي الأخرى. مرت عليها أقوام كثيرة، وتغيرات من حال إلى حال. متعبة، بمنأى عن الثبات. الروائي "كاتب ياسين" قدمها في مشاهد عديدة ومطولة من خلال قصة صداقة أربعة شبان جزائريين، في رحلة بحث عن الهوية والتاريخ والحرية، والحب والحقيقة والحياة.

- "نوميديا القديمة حيث تنابعت سلالات الرومانيين، نوميديا التي لم يعد إليها الفرسان من المسلخ أبدا، كما لم يعد القراصنة الذين كانوا يقطعون الطريق أمام شارل كانث.. لا النوميديون ولا البربر استطاعوا أن يتناسلوا مطمئنين في بلادهم، تركوها لنا عذراء في صحراء معادية. في حين تعاقب، دون سبب، المختلون والطامعون، ودون حب..."<sup>2</sup>

إحساس جريح ينمو تدريجيا مع التعمق في قراءة قسنطينة "كاتب ياسين". تاريخ حافل بالوقائع المؤلمة. انتصارات وهمية يحققها الطامعون جيلا بعد جيل. وآخرها الفرنسيون. وعود كاذبة ومختزقة. وسقوط ضحايا باستمرار. أحداث 8 ماي. والمأساة تتواصل. ورحلة البحث عن (نجمة) رحلة غير منتهية.

وأما قسنطينة "أحلام مستغانمي" فهي مدينة للذكريات والأشواق المسروقة، والكفاح المسلح، والحب الوهمي. جالت بنا الكاتبة في روايتها (ذاكرة الجسد) قسنطينة عبر أزمنة مختلفة. عاكسة بذلك سمة هذه المدينة التي لا تكاد

<sup>1</sup> - الزلزال، ص 77.

<sup>2</sup> - كاتب ياسين، نجمة، تر: السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2014، ص 186.

ترسو على حال حتى تستسلم مجددا للتحول. تواريخ كثيرة، وملوك وبايات وقادة كلهم اتخذوا من قسنطينة مستقرا لهم.

–"من هنا مر سيفاكس.. ماسينيسا.. ويوغرطة.. وقبلهم آخرون. تركوا في كهوفها ذاكرتهم. نقشوا حبهم وخوفهم وأهنتهم. تركوا تماثيلهم وأدواتهم، وصكوكهم النقدية، أقواس نصرهم وجسورا رومانية.. ورحلوا.<sup>1</sup>"

–"هنا أضرحه الرومان.. والوندال.. والبيزنطيين.. والفاطميين.. والحفصيين.. والعثمانيين واحد وأربعين بايا تناوبوا عليها قبل أن تسقط في يد الفرنسيين.

هنا وقفت جيوش فرنسا سبع سنوات بأكملها على أبواب قسنطينة"<sup>2</sup>

الكاتبة أرادت أن ترصد التراكمات التاريخية لهذه المدينة، ولعل قسنطينة من أكثر المدن العربية عراقة وقدمًا. مع ذلك فهي مدينة محافظة، تتمسك بقيمتها الدينية ونظمها الثقافية. في الأكلات والأزياء والحلي وطقوس الأفراح والأحزان. وهي ثرية بجماليات عمرانها، خاصة قصباتها وجسورها التي تعكس هويتها التاريخية.

نفس مسميات بعض الأماكن ترددت في رواية (ذاكرة الجسد) والكثير من الروايات الجزائرية المهتمة بالفضاء القسنطيني. رجة الجمال ورجبة السويقة، والجابية والكاديا والجسور، قنطرة سيدي راشد، وقنطرة الحبال وغيرها من الأنهج والأزقة التي احتفظت بمسمياتها، ولكنها قطعًا كانت تفرغ من دلالاتها وإثارتها لتشحن بدلالات جديدة حسب الأزمنة، ونظرة ساكنيها وزوارها. فهي تارة مشحونة بالحب والجمال، وتارة بالألم والهزيمة. وهي مراتع للصبيا ومرح الطفولة أحيانًا، ومراتع للكفاح والموت في أحياء أخرى.

سفوح مرشوشة بشقائق النعمان، وأزهار النرجس بين الممرات الخضراء. والنسوة يستقبلن الربيع بـ 'البراج' والحلويات والقهوة. وذات الأماكن كانت مسالك للمجاهدين نحو قواعدهم العسكرية السرية. ومراتع للكر والفر، والنزال والمعارك.

تطالعنا الكاتبة من منظور بطلها خالد بن طوبال بنفس المسار الثقافي للمدينة. مدينة ثقافية تحتضن جمعية العلماء المسلمين، وإصدارات كثيرة من الجرائد والصحف. وقراء بأحلام كبيرة وطموحات عظيمة. بينما بعد

<sup>1</sup> – أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، ط30، بيروت، لبنان، 2013، صص290-291.

<sup>2</sup> – ذاكرة الجسد، ص291.

الاستقلال وباسم إحياء الثقافة تم قتل وطمر كل مظاهر الثقافة. إصدارت أقل، وقراء أقل بأحلام صغيرة وطموحات نافهة.

- "يومها كانت أمنياتنا أجمل.. وأحلامنا أكبر. (..) وكانت هذه المدينة بمفردها تصدر من الجرائد والمجلات والكتب ما لا تصدره اليوم المؤسسات الوطنية لا نوعا.. ولا عدا.

يومها كان لنا من المفكرين والعلماء.. والشعراء والظرفاء والكتاب، ما يملأنا زهوا وغرورا بعروبتنا.<sup>1</sup>

ويرى الباحث "ابن السائح الأخضر" في كتابه (جماليات المكان القسنطيني) أن الكاتبة، استطاعت بلغة مكثفة وممتعة استحضار مدينة قسنطينة من خلال قرائنها المكانية، المتعلقة بها من جسور ومساجد وأسواق ومقابر وشوارع، ومن خلال أنساقها الثقافية من لباس وحلي وأغاني. وبهذا أعطت الكاتبة (صورة شاملة لهذا الفضاء الذي يعبر عن تلاعب الكاتبة بصورة المكان في الرواية واستغلاله إلى أقصى الحدود بإسقاط الحالة الفكرية والنفسية على الأبطال وعلى المحيط الذي يعيشون فيه، وجعلت للفضاء دلالة تفوق دوره المؤلف كديكور أو كوسط يوطر الأحداث).<sup>2</sup>

هذا وتأخذنا "أحلام مستغانمي" إلى مدينة اعتادت على العنف. كي نقضي مع شخصياتها خالد وحسان فصولا في الخيبات والأحزان. شخصيات مثقلة بالمآسي وبالذكريات الهاربة. خيبة فقد الأحبة في أجواء متوترة أفرزتها علاقات حب فاشلة، وفوضى السياسة في الوطن. في أواخر ثمانينات القرن العشرين وتسعيناته. مذابح جماعية ومقابر سرية على يد الجزائريين أنفسهم. بعدما كان القتلة رومان ووندال وبيزنطيين، أتراك وفرنسيين.

<sup>1</sup> - ذاكرة الجسد، ص 301.

<sup>2</sup> - الأخضر بن السائح، جماليات المكان القسنطيني، قراءة في رواية ذاكرة الجسد، منشورات دار الأديب، دط، وهران-الجزائر، 2007م، ص 150.

## المبحث الثاني: مدن الذاكرة المقدسة

1-2 الأندلس، نوستالوجيا<sup>1</sup> الفردوس المفقود

استحضرت عدد من الروايات العربية مدن الأندلس انطلاقاً من تيمات مختلفة. الانبعاث التاريخي، واسترجاع مجد وحضارة العرب والمسلمين في الجزيرة الأيبيرية. وإسقاط ما حدث على الواقع الحالي للأمة العربية، وما تعيشه من فقد وانكسار، وما تتخبط فيه من ضياع واحتلال. ونوستالوجيا الفردوس المفقود، وأيام القوة والصبا والجمال.

إن الأندلس بتاريخها العريق، الممتد إلى أكثر من ثمانية قرون، كانت ولا تزال معيناً ثراً للأدباء، يقتبسون منه أفكار وأحداث نصوصهم الإبداعية، فنجدهم يستحضرون أمراءها وعلماءها، وقصورها وحدائقها، وسنوات ازدهارها وتألقها، وأيام انكساراتها وسقوطها، وأقول مجدها. على غرار ما نجد في رواية (ثلاثية غرناطة) لـ "رضوى عاشور" و(سلام) لـ "هاني نقشبندي" و(رحلة الغرناطي) لـ "ربيع جابر" و(راوي قرطبة) لـ "عبد الجبار عدوان".

على صعيد الإبداع الروائي الجزائري. وعلى الرغم من أن الأندلس جزء مهم وفارق في تاريخ الأمة العربية والإسلامية، وفي تاريخ الجزائر القديم، إلا أن حضورها في الرواية الجزائرية أقل بكثير مما هو متوقع.

الروايات الجزائرية التي استحضرت الأندلس قليلة جداً، بالموازاة مع الكم الهائل للروايات العربية، خاصة منها روايات المشرق العربي، التي متحت من تاريخ الأندلس العريق، ومن وقائع حروبها وصراعاتها ضد الحملات الصليبية، وحضارة عمرانها وزخم علومها وعلمائها.

ويعد الروائي "واسيني الأعرج" من أكثر الروائيين الجزائريين استحضاراً للأندلس، من خلال ما دونه من روايات كرواية "رمل المائة". فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" سنة 1993م. ورواية "حارسه الظلال. دون كيشوت في الجزائر" سنة 1996م. ورواية "البيت الأندلسي" سنة 2010م.

المتتبع لكتابات "واسيني الأعرج" يتضح له بجلاء تقاطع الروايات الثلاث في كثير من النقاط: المجد الأندلسي الضائع، وسقوط غرناطة في يد الصليبيين، وقسوة محاكم التفتيش، التي دفعت بالكثير من المسلمين للهروب إلى الضفة الأخرى.

شخصيات رواياته المركزية، تعيش قلقاً وتمزقاً داخلياً، على مستوى القيم والأفكار والعواطف. دائمة الاشتياق والحنين للزمن الأندلسي المفقود. وتتخبط بين عالمين متناقضين، عالم جميل مثالي أفل، وعالم راهن فجع ومبتذل.

<sup>1</sup> - يستخدم هذا المصطلح لوصف الحنين إلى الماضي.

الأحداث، بعضها متشابه ومكرر. انتهاء حروب الاسترداد بسقوط غرناطة، آخر معقل المسلمين في إسبانيا، على يد الملكة إيزابيلا، والملك فليب. ومشاهد القتل والتعذيب التي عاشها المسلمون، جراء محاكم التفتيش الوحشية التي أقرتها الملكة، والتي تنص على إجبار المسلمين على اعتناق المسيحية، أو يتم تعذيبهم وقتلهم، أو ترحيلهم ونفيهم.

الزمن، تنطلق حكايات رواياته من فترة المجد الأندلسي، وانتهيه في أواخر القرن الخامس عشر، وتنتهي في الزمن الحاضر. أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين.

هذه التعالقات النصية، لم تصل لحد التكرار المتبدل، وإعادة إنتاج نفس النصوص طبعا. فالكاتب وإن متح من مواد تاريخية متشابهة ومتقاربة في الزمن، فإنه تعامل بحرية معها. فأبدع وحوّر وغير.

يروى الكاتب "واسيني الأعرج" في روايته "البيت الأندلسي" قصة رجل موريسكي، يدعى غاليليو، أنقذه راهب طيب من محاكم التفتيش، فهاجر إلى وهران التي كانت آنذاك تابعة لإسبانيا، ثم رحل واستقر في المحروسة، وهناك اشتغل مع أحد رياس البحر في الصيد، كما احترف حرفة صياغة الذهب. وتمكن من شراء أرض مطلة على البحر، استطاع من خلالها تشييد بيت جميل على الطراز الأندلسي، كان قد شاهد مثله في مدينته غرناطة، مع حبيته سلطانة -والتي التحقت به لاحقا إلى المنفى- ووعدتها أن يبني لها مثله كمهر لها. هذا البيت مكته من استعادة ما ضاع منه من حلم وأرض وصبابة.

غاليليو قبل وفاته ترك مخطوطة لأحفاده، أوصاوم فيها بضرورة التمسك بالبيت الأندلسي، وسرد فيها ماضيه وما وقع من أحداث مروعة للمسلمين عند سقوط الأندلس. تعاقب على البيت عدة سكان، أجنب وأحفاد من موريسكيين ورياس بحر وأتراك وفرنسيين وجزائريين، وعرف البيت مع تعاقب الزمن تحولات عديدة من دار للبلدية إلى بيت للموسيقى، وإلى منتجع شتوي، ثم إلى ماخور، وبيت للدعارة، ومحل للخمر، ثم إلى مركز لبيع الممنوعات والأسلحة. إلى أن وصل إلى مراد باسطا، آخر من كافح لأجل بقائه. وآخر من شهد انهياره ودكه على الأرض ليتحول إلى برج تجاري، سمي تيمنا بالماضي العريق للبيت (برج الأندلس).

- "هذه الدار تسمى البيت الأندلسي.. كانت في الأصل مكانا معزولا، قبل أن يتم تشييدها شيئا فشيئا، بحسب الحملات التي توالى عليها. السكان الأوائل، الرومان، المسلمون، الأندلسيون، الأتراك، الفرنسيون ثم ناس ما بعد الاستقلال، أي نحن"<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - واسيني الأعرج، البيت الأندلسي، منشورات الجمل، ط1، بيروت، لبنان، 2010، ص 139.

البيت الأندلسي، بمعمارته على الطراز الغرناطي، السقيفة والنافورة والأقواس، وحديقته المأوى بالنباتات ذات الأصول الإسبانية كمسك الليل الإشبيلي وياسمين غرناطة والتفاح الأندلسي. رمزية مجد شامخ في طريقه للأفول. مجد تتبع مساره التاريخي في صورة بيت. لنكتشف في آخر مراحلها أنه استلهمه من قصر خداج العمياء. قصر عريق بالجزائر العاصمة بناه أحد الرياس العثمانيين لابنته المددلة خديجة.

استعان الكاتب في سرده للأحداث، ووصفه للمشاهد بأسماء شخصيات ومواقع وجبال وأحياء ومعالم وموانئ حقيقية. من مثل (فريدريكو غارسيا لوركا، ميغيل سرفانتس، حسن فينيزيانو. جبال البشرات، ميناء المارية، حي البيازين، قصر خداج العمياء.) فضلا عن تفاصيل كثيرة، ألفاظ وعبارات إسبانية، لوحات فنية عالمية، وكتب شهيرة، ومقاطع موسيقية، وأسماء لنباتات إسبانية الموطن. لا حملنا على تصديق الحكاية، بل لجعلنا نشعر أكثر بجل ما حدث، وبفداحة ما خسرناه من مجد عظيم لا يتكرر.

في روايته "حارسه الظلال" يستحضر الكاتب الأندلس بشكل مختلف. ليس في صورة بيت عريق، بل في صورة رجل. هو صحفي إسباني، من أحفاد ميغيل سرفانتس يدعى فاسكيس دي سرفانتيس دالميريا. قدم إلى الجزائر على متن سفينة لشحن السكر. مأخوذا بأشواق جده الأول، وحلمه أن يزور الأماكن التي زارها في الجزائر. يلتقي الصحفي فاسكيس والملقب بدون كيشوت بحسيسن موظف في وزارة الثقافة، ومسؤول عن العلاقات الإسبانية - الجزائرية، يستضيفه هذا الأخير في بيت قريته العجوز حنا الموريسكية، المملوءة بفيض من الأشواق والحنين لماضي أجدادها الموريسكيين. ويخرج معه في جولة في مدينة الجزائر ليشاهد معالمها التاريخية، ويزور المغارة التي أسر فيها جده. والتي كانت مهملة ومنسية في مفرغة. ليتأزم الوضع بعد ذلك، ويُعتقل دون كيشوت قبل ترحيله إجباريا بتهمة الجوسسة، وتهديب آثار وطنية. أما حسيسن فيجد نفسه متهما بالخيانة والتواطؤ ضد مصلحة الأمة، ليتم طرده من وظيفته. وبترا لسانه وعضوه الذكري ليغدو مواطنا صالحا !

العجوز حنا الموريسكية حبيسة العمى، لكنها تصارع ضد خواء الذاكرة، محملة بأمل عودة زمن الرجال الأبطال والفروسية، وتردد باستمرار أسطورة حارسه الظلال. حسب رواية حنا فهي سيدة بلا سن، تحمي الذاكرة من التسرب والتلف والضياع. تنتظر عودة حمو، الموريسكي الهارب من محاكم التفتيش، حاملا الشمس، ليعيد للمدينة نورها.

- "حارسة الظلال موجودة إلى اليوم في زاوية ما من زوايا المدينة، تنتظر عودة خويا حمو. كلما سقطت الأمطار، تخرج رأسها قليلا لتتنظر إلى السماء المغلفة بالسحب"<sup>1</sup>

كعادته "واسيني الأعرج" استدعى الأندلس، ليدكرنا بقسوة السقوط والانحيار. هذا السقوط الذي يتكرر في الوقت الراهن. ويتجسد في مظاهر التناحر، والفساد والنهب والهيمنة ومختلف أشكال الضغينة والنفاق والحقد والكرهية. كما استحضرت شخصية دون كيشوت رمز التحدي والصمود ضد قوى الشر، وحماقات الإنسان. من خلاله توجه الكاتب على لسان بطله حسسين بانتقادات لاذعة اتجاه المسؤولين، الذين يشاركون في عمليات نهب عقارات وأموال الدولة وآثارها. ويعيثون فسادا فيها بجهلهم وجشعهم وصفقاتهم المشبوهة، وسوء تسييرهم لشؤون البلد، بإهمالهم للتراث، وإسنادهم مهام ووظائف حساسة لغير أصحابها.

- "لا أدري كيف حدث ذلك ولكن وجدت نفسي في حالة من الهذيان الكبير. كيف يقبل بلد أن ترمى ذاكرته في مفرغة"<sup>2</sup>

- "البلد لم يغير طقوسه رغم المآسي، فقد سير دائما بالطريقة نفسها"<sup>3</sup>

- "الأملك السكنية الجامعية نبتت لتنتهي بين أيدي مجموعة فوق القوانين والبلد نفسه"<sup>4</sup>.

أما روايته (رمل المائة) فتعج بالإسقاطات التاريخية. أوغل في مرجعيتها التاريخية إلى العصر الإسلامي. ساردا وقائع تاريخية كثيرة من فترة العصر العباسي إلى النصف الثاني من القرن العشرين. ذكرا الفتن والإختلافات والحروب التي وقعت في بلاد المسلمين، ومقتل العلماء والصالحين على يد الطغاة من الحكام كمقتل الحلاج والتكليف به. واستدعى عددا من الخلفاء الراشدين كسيدنا "علي بن أبي طالب" و"عثمان بن عفان" وبعض من الصحابة الأجلاء كالصحابي "أبو ذر الغفاري" و"عبد الله بن مسعود" و"زيد بن ثابت" و"عبد الله بن الزبير" و"سعد بن العاص". عارضا بذلك لمسألة تحريف القرآن المعروفة في التاريخ الإسلامي، ومسألة الخلاف حول مال المسلمين، أظهر من خلالها فاجعة الهوة بين غنى الأغنياء وفقير الفقراء فيما مضى والوقت الراهن. كما أتى على ذكر الكثير من مواقف الظلم في حق الصالحين والعلماء ورجال الدين والأبرياء في العصرين الأموي والعباسي.

<sup>1</sup>-واسيني الأعرج، حارسة الظلال، دون كيشوت في الجزائر، ورد للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 2011، ص156.

<sup>2</sup>-حارسة الظلال، ص157.

<sup>3</sup>-حارسة الظلال، ص207.

<sup>4</sup>-حارسة الظلال، ص207.

بيد أن أكثر فترة زمنية استلهم منها مادته التاريخية كانت من عهد الأندلس. إذ يسترجع مأساة المسلمين أثناء مقاوماتهم للجيوش الصليبية التي حاصرت غرناطة. ويكشف لنا حجم الألم والخوف الذي عاشه المسلمون آنذاك.

- "الجيوش القشتالية في شوارع غرناطة فردناندو وإيزابيلا يمسخون حي البيازين من آخر المقاومين"<sup>1</sup>

نفس المأساة ونفس المشهد الإنساني المؤلم يتكرر عبر تاريخ المدن العربية الإسلامية. التعصب الديني، والنبذ الإثني، والخيانة، والصراع لأجل الملك، والعنف غير المبرر ضد الآخر المختلف.

- "تلمست المدينة فوجدتها مدفوعة مندفعة وسط دمعة حارقة باتجاه السيوف القشتالية والمدافع الإيطالية"<sup>2</sup>

أعاد الكاتب بعث مأساة الموريسكيين الذين طالتهم سجون محاكم التفتيش، عندما جعل بطل روايته البشير الموريسكي يستيقظ من رقدته في الكهف بعد ثلاثمائة وتسع سنين. ليجد نفسه في الجزائر (الجملكية) سنة 1987.

قصة أهل الكهف، الصالحون الهاربون من بطش الحاكم وقيانوس تتكرر مع البشير الموريسكي الفار من ويلات جحيم الصليبيين. والتي صورها الكاتب بكثير من التفاصيل. ضرب وحرقت وتقطيع للأجساد بالكماشات الحارقة، وتسليط الكلاب والجرذان المجرّعة على المسلمين الذين رفضوا الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية.

أراد الكاتب بهذا البعث أن يحيي تاريخاً آفلاً من تاريخ العرب والمسلمين، تاريخ فارق قلب كفة الميزان لصالح الغرب والمسيحيين، بعدما كان العرب والمسلمون هم سادة الأرض وملوكها.

اتخذ الكاتب من ألف ليلة وليلة منطلقاً لروايته، إذ تروي دنيا زاد أخت شهرزاد للملك شهريار بن المقتدر حاكم جمهورية نوميدا-أمدوكال قصصها عن الأندلس الضائعة، وعن البشير مخلص الجملكية من الطغاة. المدينة التي جمعت بين الحكم الديمقراطي والملكي، والتي كانت الحياة فيها كالفرديوس السماوي، وغدت معتمة، تملأ شوارعها الرهبة من الطغاة، وتعرق بدم الاغتيالات. تماماً كما الأندلس التي كان أهلها ينعمون في السلام والسلوى، وأمساوا مشتمين في البحار والفيافي.

<sup>1</sup>- واسيني الأعرج، رمل المائة، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1، دمشق-سوريا، 1993، ص47.

<sup>2</sup>- رمل المائة، ص52.

- "كانت جملكية نوميدا-أمدوكال زهر الياسمين، يقول رواة آخرون، ونهد العذارى، وحليب العاشقات، ورغوة القبلات الطفولية الأولى، كانت تفاح المجالين وحنين المشتاقين(..) ولكن الآن، لم يبق إلا الإسمنت المسلح والمعدن الذي نما كثيرا وترعرع حتى أصبح دبابات تملأ الشوارع رعبا، وطائرات حربية تخرق كل فجر عذرية السماء والغيوم البنفسجية."<sup>1</sup>

أسقط الكاتب ما حدث في أزمنة الأندلس من تشتت وخيانات وغطرسة الملوك وجشعهم على ما حدث في الجزائر من صراعات حزبية وفساد في السلطة، واستخفاف بعقول الشعب.

يبكي الكاتب على مدار الرواية فقد الفردوس، ويتوجه بثئوراته الفكرية لتعرية سلطة اليوم.

- "غابت نوميدا-أمدوكال داخل نقطة دم استحمت بها عبوبي، وسقطت في جوف المدن القديمة، فبدأت ملامح غرناطة تتشكل."<sup>2</sup>

البشير الموريسكي، محرر كتاب المدينة، وكاشف الحقيقة، جاء مخلصا للشعب والمدينة. وأخطاء أمس التي ضيعت الفردوس لن تتكرر، وخيانة الملك محمد الصغير الذي باع الأندلس، واشترى المال والحياة والنساء.

- "أقسمت لهم بذاكرتي، أي لن أسلم المدينة، ومحمد الصغير سينتهي عند حدود الليلة السابعة بعد الألف، سيسمع مثله مثل شهريار بن المقتدر حكايته الأخيرة، للمرة الأخيرة ثم يشطب بعد ذلك مثل الخطأ الذي يرتكب بغباء."<sup>3</sup>

تنتهي رواية رمل المائة بالقضاء على الملك الظالم شهريار على يد العلماء السبعة والبشير الموريسكي، الذي كان حقيقة المدينة المغيبة ومخلصها وصوتها المكتوم.

نهاية يتأملها الكاتب كرجبة عميقة في تصحيح التاريخ الرسمي المزيف بمغالطات المؤرخين. وحلم إنساني دفين في تجنب أخطاء الأولين، والتخلص من كل طغاة الأمة، والمتعصبين باسم الدين.

حاول الكاتب إذن في رواياته الثلاث السابقة ممارسة فعل الإزاحة، وتحريك الثوابت، والماهيمات المتجذرة. ضرورة هذه الإزاحة أملت عليها الظروف الراهنة الفجة، المشحونة بالصراعات الدينية وغطرسة السلطة وفساد الشعب. رواياته السابقة، أشبه بالتثويرات الفكرية، تمتح من التاريخ الموغل في القدم لتعري هنات وملابسات الحاضر.

<sup>1</sup> - واسيني الأعرج، رمل المائة، ص108.

<sup>2</sup> - رمل المائة، ص195.

<sup>3</sup> - رمل المائة، ص150.

أخيراً، الأندلس الفردوس المفقود حضرت في روايات "واسيني الأعرج" في صور وأشكال مختلفة. شخصيات تاريخية (طارق بن زياد، موسى بن نصير، عبد الرحمن الداخل، ابن رشد، لوركا، سرفانتيس..). ووقائع وأحداث (معارك حي البيازين بغرناطة وحرب جبل البشرات، واقعة عام الرماد، اعتقالات محاكم التفتيش المقدس، هجرة المسلمين وتشتتهم في المنايا..). وأماكن ومدن (جبال البشرات، ميناء المارية، حي البيازين، غرناطة، إشبيلية، قصر الحمراء..). وتفصيل صغيرة ومكثفة تجلت في كتب ومخطوطات وموسيقى وعمران ومعالم أثرية ونباتات أندلسية. فضلا عن أغاني وقصائد، وأساطير وأحلام وذكريات، وسهرات رقص وغناء، وقصص حب وصبابة. كلها مستلهمة من حضارة الأندلس.

ويمكن أن نجمل القول مجدداً، أن الكاتب استحضر الأندلس بتفاصيلها الكثيرة كحلم هارب وذكرى موجعة في (البيت الأندلسي) وكفكرة وأسطورة في (حارسه الضلال) وكمنقذ ومخلص في (رمل المائة).

## 2-2 القدس، زهرة المدائن

تملك القدس ثراء روحيا ودينيا وتاريخيا وثقافيا وجغرافيا ما يجعلها محط اهتمام الأدباء والباحثين والدارسين. فنجدها حاضرة في جل الأجناس الأدبية. في الشعر والرواية والقصة الطويلة والقصيرة وقصص الأطفال والمسرح.

في ذاكرتنا الأدبية والروحية تحضر دائما على شكل موجودات وأشخاص ومواقع وأحداث وأشياء وتفاصيل بسيطة لكنها عميقة. خالدة في عمق الذاكرة الجمعية العربية والإسلامية. ولها أثرها البالغ على النفوس والقلوب. كقبة الصخرة، والمفاتيح، والمناديل الفلسطينية، ونعناع القدس، وسوسن الأودية وأغصان الزيتون، والرطب، والتفاح من شجر الوعر، وقطعان الماعز في الأودية، والرماله والمخدفة. وصلاح الدين الأيوبي. وقصة الإسراء.

غير أن حضور القدس كفضاء روائي وكمسرح للأحداث في الرواية الجزائرية قليل جدا. وما نجده غالبا لا يتعدى إشارات إلى إشكالية الأرض والصراع اليهودي الفلسطيني، والجرائم الإنسانية التي يرتكبها الصهاينة في حق الفلسطينيين. وفي أحسن الأحوال يجعل الروائيون بعضا من أبطال أعمالهم فلسطينيين. على غرار ما نجد في رواية (ذاكرة الجسد) لـ "أحلام مستغانمي"، التي فضلت أن تجعل من البطل زياد الخليل الغزاوي غريبا لخالد بن طوبال، شاعر وفدائي أحب وطنه، وفضل البقاء لاجئا، رافضا الانتماء إلا لوطنه.

في (سوناتا لأشباح القدس) لـ "واسيني الأعرج" سجلنا حضورا ممتلئا دراميا وجميلا لمدينة القدس. يمكن عده ضمن سرديات الشتات. إهتم فيها الكاتب بقصة معاناة عائلة مقدسية، إضطر فيها الأب وابنته الصغيرة مي إلى الهجرة إتجاه أمريكا، هربا من بطش الصهاينة. لتكبر الفتاة وهي لا تزال بعد تتجرع مرارة فقد مدينتها، وتحاول أن تحييها في كراسة يومياتها، وبين ألوان لوحاتها.

أدرك الكاتب "واسيني الأعرج" القيمة المركزية التي تكتسبها القدس، فانتقاهم مدينة لنصه، وأنصت لما تقوله عبر مأساة هذه الأسرة اللاجئة، ومن خلال آلام ويوميات مي، وعبر شتات وشظايا أصوات المنازل والطرق والساحات. جعلنا نعيش دفق الحياة المقدسية من خلال ذكريات طفولة البطله. وامتد اهتمامه بالمدينة بدءا من تاريخها العثماني القديم إلى النكبة وسقوط المدينة في يد الصهاينة. وحرص على السفر بنا إلى ماضي مدينة القدس أيام الأتراك، فجال بنا في أسواقها ودكاكينها وحرارتها، كل هذا من خلال ما تروييه الصغيرة مي، التي أحبت مدينة القدس القديمة، وعملت على رسمها وتلوينها.

كما سجل ووثق لعدة وقائع وحوادث فارقة في تاريخ المدينة، من ذلك ضرب الأسطول البريطاني للساحل الفلسطيني سنة 1915م، وواقعة تفشي الجراد، الذي كان له أثر كبير على إمدادات الغذاء، إذ التهمت أسراب

الجراد كميات كبيرة من محاصيل الفلسطينيين. كما أرخ الكاتب لقرار جمال باشا في مصادرة القمح والحنطة لصالح الجيش العثماني. مما أدى إلى انتشار المجاعة في القدس وفي المناطق المجاورة لها. وازدادت حدة الفقر والمجاعة والخوف، فتوافدت حشود من العائلات الأردنية واللبنانية على القدس، وعرفت المدينة بسبب هذه الهجرات، والمعارك بين البريطانيين والعرب تحولات مهمة في تركيبها السكانية واللغوية والاجتماعية والعمرانية.

- "وعندما اكتظت القدس بالهاربين من هذه المصائب، انهار كل شيء، الناس والعمران الذي لم يعد يملك قدرة على المقاومة. فقد جلب الوافدون ضيقهم وخوفهم وبؤسهم وخراهم وطريقة عيشهم القاسية، التي لم تكن توائم النمط المدني أبدا. فقد دمرت الكثير من الأماكن الأثرية وحولت إلى زرائب للحيوانات وأثافي للطبخ"<sup>1</sup>

بيد أن الكاتب لم يصور النكبة وسقوط المدينة بالتفاصيل، بل عرج عليها بشكل يكاد يكون سريعا، رغم أنه من سمات أسلوب "واسيني" الإطناب والاهتمام بدقائق التفاصيل. وربما يعود هذا لاهتمامه الأكبر بتصوير معاناة مي، أكثر من اهتمامه بتاريخ سقوط مدينة. والتي هي معاناة إنسانية تفيض ألما، قد يعيشها أي إنسان آخر فقد مدينته، واضطر للعيش معظم سنوات حياته في المنفى.

بهذا الشكل، تتجاوز القدس كونها أرضا متنازعا عليها، إلى كونها جرح غائر في الأعماق والذاكرة.

الكاتب جعلنا نعيش على امتداد الرواية ألم الوحدة والغربة والمنفى مع مي التي ظلت مدينة القدس قابضة في وجدانها. تحاول الاحتفاظ بماضي طفولتها المقدسي عن طريق كراستها النيلية، التي دونت فيها جزءا من ذكرياتها القديمة، وأحلامها وانكساراتها، وتركبتها لابنها يوبا حتى يقرأها من بعد رحيلها. هذه الكراسي تعتبرها مي الخيط الوحيد الذي يربطها بالقدس. هي ماض جميل مغتصب، وهوية عريضة مهددة بالتشتت والأفول.

وكما تحضر كراسي الذكريات لتقييد ماض يُخاف أن يأفل، يحضر الفن، الموسيقى والرسم. ليس لحفظ الماضي، بل لإحيائه وإعادة تركيبه من جديد. سمفونية يوبا التي كان يعمل على تأليفها لأجل الأحبة الذين غيبتهم يد الغدر والظلم. والرسم والألوان على يد مي، التي استعانت بخيالاتها وانكساراتها بلوحاتها وریشتها، فلجأت لعالم جميل أكثر إشراقا ونورا لتجسد فيه مدينتها المسلوقة، بل ولتجسد كل مدن أحلامها، المدينة الأم ومدن الملجأ.

الكوابيس والأحلام تحضر هي الأخرى لتعكس هول الفاجعة، وألم الفقد، الذي عاشه المقدسيون عند سلب مدينتهم. بل وتتجلى مدينة القدس بشكل حي مستمر لا متناه. تراحم مدينة نيويورك، وترفض الاندثار والزوال،

<sup>1</sup>- سوناتا لأشباح القدس، ص 178.

في صورة موجودات تملكها مي وخالتها دنيا زاد. المفاتيح والمعطف، والقهوة العربية، والزرية، وشجرة مسك الليل، كلها أشياء بسيطة لكنها تبعث شعورا بالراحة في نفوس المغتربين، وبالأمل أن الماضي لا يزال قائما يصارع لأجل البقاء. ففي التي حرمت حنان والدها، وغيبه المرض والموت قبل أن تسترجع معه ما سلته منهما الحياة من ألفة الحياة الأسرية، كان معطفه أنيسا لها. معطف لا يزال يحتفظ بروائحته القديمة، رائحة نسائم القدس، ورائحة شقاء السفر، وألم الخوف والمنفى.

- "المعطف الخشن الذي جاء به أول مرة إلى هذه الأرض. كانت به روائح لم تمت. الغريب أني شممت آخر رائحة غزت أنفي وأنا أعادر بيروت، كانت تشبه رائحة القهوة المحمص، والسفينة التي كانت رائحتها تشبه الحمامات التركية النسائية في القدس".<sup>1</sup>

المعطف مجرد قطعة من قماش وقطن لكن رائحته اختصرت على مي ذاكرة نصف قرن من الألم. كذلك المفاتيح الفلسطينية لم تعد تفتح أبوابا، بل لم يعد هناك وجود لأبواب وبيوت لأشخاص رحلوا قسرا عنها، وخلفوها لعائلات مُغتصبة. لكنها بالرغم من ذلك تحمل رمزية عميقة، فهي تعني أن المكان لا يزال حيا في الذاكرة.

- "أرأيت المفتاح الخشن المعلق عند مدخل البيت؟ هل تعتقدن أنه سيفتح شيئا يوما ما؟ لا أعتقد. الأحياء تسرق الواحد بعد الآخر، بعد سنوات قليلة لن يصبح لهذا المفتاح أي معنى باستثناء التذکر والتألم"<sup>2</sup>

بدا الكاتب من خلال اهتمامه بهذه التفاصيل الصغيرة، أكثر وعيا وعمق الوجود، وبقسوة المنفى والتهجير القسري. وعيه الحاد بقيمة هذه الموجودات، المفاتيح والألوان والقهوة والسفونوية واللوحات الفنية وغيرها، التي هي في الأصل تجسيد لمناهضة العجز. عجز المقدسين عن العودة لمدينتهم، وعجز العرب عن استرجاعها.

اهتمام الكاتب بحياة المهجر، لم يمنعه من سرد مشاهد سقوط القدس في يد الصهاينة، إذ استحضر بعضا من وقائع الاحتلال والمقاومة. مقاومة الشيخ الحسيني في القدس في ثلاثينات القرن العشرين. ومذبحة دير ياسين واحتلال حيفا، والكثير من الأحياء المقدسية العربية كحي القطمون وحي الشيخ جراح، والذي تلاها بعد ذلك سقوط المدينة. كما لم يمنعه من تعرية تحاذل الحكام العرب وعجزهم عن الدفاع على المدينة. غير أن استدعاءه لتاريخ القدس كان أغلبه لا يتعدى الإشارات.

<sup>1</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص40.

<sup>2</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص273.

الكاتب وثق لمسميات الأحياء العريقة للمدينة، لكنه لم يتوقف لتقديم شكل بعضها على الأقل معماريا. وهذا يعد تخليا عن بعض أسلحته واستراتيجيته الكتابية. فالقارئ في مثل هذه المواضيع يتوق لقراءة وتخيل الأحياء والبيوت والأسواق والحارات بكثير من التفاصيل والروائح والأصوات والألوان والأشكال، لكن الكاتب اختصرها.

- "عندما أغمضت عيني وجدتني أدور في الحارات القدسية حارة حارة وبابا بابا: الحرم القدسي الشريف وقبة الصخرة والمسجد الأقصى مع باب الرحمة الذي لا أدري ماذا بقي منه اليوم، حارة الشرفة وحارة اليهود.. وحارة المغاربة.. ثم حارة الأرمن.. وغيرها"<sup>1</sup>

هذا لا ينفي بطبيعة الحال ملمة شتات من مشاهد وصفية، نركب بها صورا معمارية المدينة. ممرات ومعابر حجرية، ودروب ضيقة، وتربة آجرية. وقلاع عالية. وحارات وأزقة ملتوية، وبيوت حجرية، باردة صيفا ودافئة شتاء، ذات شرفات ملأى بالورد. تعبق بالعطور وبروائح بهارات الأطعمة المقدسية.

وكما حرص الكاتب على توثيق مسميات الحارات، خوفا منه على أفولها، حرص على ذكر بعض معالم المدينة العريقة كقبة الصخرة وكنيسة القيامة، التي قدمها بكثير من الوصف، على عكس قبة الصخرة والمسجد الأقصى رغم أهميتهما. ليجلي لنا الكاتب وجه المدينة المتسامح والعريق، الحافل بالأديان وألوان الإيمان.

يؤخذ على الكاتب أيضا عدم حرصه على وصف الجانب الثقافي للمدينة، عاداتها وتقاليدها من أطعمة واحتفالات وألبسة. فقد عرج عليها بشكل باهت. من ذلك ذكره لاحتفالات خميس الغسيل المقدس في كنيسة مار يعقوب، وأسبوع الآلام واحتفالات سبت النور في كنيسة القيامة دون التوقف لوصف هذه الأنساق الدينية. وقد يعود هذا لاهتمامه الأكبر كما ذكرنا آنفا بألم المنفى وحرقة الشوق، ومرارة الإقصاء. إن (سوناتا) بهذا التقديم هي قصة إنسان تسكنه مدينة، قبل أن تكون قصة مسار سقوط مدينة.

في رواية (الصدمة) لـ "ياسمينه خضرا" حضرت القدس كخلفية لبعض الأحداث العابرة. وكمدينة لذكريات قديمة آفلة. في مهمة للبطل الطبيب أمين جعفري يجتاز مدينة القدس، ويجعل من ضاحية المدينة القديمة مكانا للاستراحة المؤقتة. ويتخذ من أحد بيوتها محطة انطلاق لبيت لحم.

معماريا، يصف الكاتب دكاينها بالازدحام والحويوية. وبيوت ضاحتها القديمة الخاصة بالسكان اليهود، واطئة، أحرقت الشمس جدرانها. تمتد غير بعيد عنها تلال كثيرة الحصى ويساتين مخضرة. مدينة أسطورية تحتضن الجوامع والكنائس بتسامح وتقبل كبيرين.

<sup>1</sup>- سوناتا لأشباح القدس، ص388.

رغم كل الانتهاكات، والتخريب، وحماقات البشر تظل منتصبه، تستمد قوتها وقدرتها على البقاء من رسالاتها السماوية. مدينة روحانية، تعبق بالبخور والروائح الكونية.

–"لطالما أحببت القدس في مراهقتي. كانت تخالجي العرشة نفسها أمام قبة الصخرة وعند حائط المبكى على حد سواء، ولا أستطيع ألا أتأثر بالسكينة المنبعثة من كنيسة القبر المقدس. كنت أنتقل من حي إلى آخر مثلما أنتقل من أسطورة أشكنازية إلى قصة بدوية، بالقدر نفسه من السعادة."<sup>1</sup>

استحضرها الكاتب ليؤكد على فكرة التسامح الديني، باعتبارها مدينة كل الأديان والأطياف. مدينة قديسة عفيفة، ترفض أن تكون محظية لأي عرق أو دين ما. مدينة حزينة على الدوام تنوء بثقل الأنواء والشدائد.

<sup>1</sup> – ياسمينه خضراء، الصدمة، تر: نحلة بيضون، دار الفارابي، ط1، بيروت-لبنان، 2007، ص163.

## 2-3 مكة، مدينة الله

إن فضاء مدينة مكة في جوهره فضاء قدسي روحاني بامتياز، نظرا لمرجعيته الإلهية وأبعاده التاريخية والثقافية والادبيولوجية والرمزية. هذا لا ينفي بطبيعة الحال وجود بعض التناقضات والتصادمات والأمور الدنية التي تعتوره، التي تسببها خطايا البشر. بيد أن هذه النقائص لا تلغي قدسية المكان. حيث الإحساس بالكونية والسمو الروحي، والأمان والسكينة. وتكتسب الحياة المدنية هناك، وحتى الأشياء البسيطة لونا وذوقا وحضورا مميزا.

عدد ليس بالقليل، من الروايات الجزائرية وثق لرحلات الحج، وأجواء ولائم وجلسات الحجيج قبل وبعد رحلة الحج. وصبغتها بطابع البهجة والفرح. وصورت مشاهد الأطفال الصغار وهم مبتهجون بالهدايا، وأهل البيت وهم يحضرون لاستقبال أو لتوديع الحجيج. على غرار ما نجد في رواية (الدوائر والأبواب) لعبد الوهاب عيساوي، الذي تطرق قليلا لولائم ومراسم توديع الحجيج. عندما وصف أجواء البطل السوفي، الذي كان يجلس في غرفة مفروشة واسعة يستقبل فيها المودعين.

- "رفع رأسه وتأمل الوجوه من حوله، كانوا ينظرون إلى السوفي بإعجاب في حلته البيضاء، والعمامة الذهبية، وقد اتكأ في مكانه"<sup>1</sup>

غير أننا سجلنا حضورا باهتا لمكة المكرمة في الروايات الجزائرية. وإن كانت مدينة الله حضرت بشكل كبير في الأعمال الروائية السعودية تحديدا والخليجية والمشرقية عموما، فهي لا تكاد تذكر في الأعمال الروائية الجزائرية. باستثناء مشاهد تحضيرات رحلات الحج - كما ذكرنا آنفا- أو إشارات عابرة من مثل أن فلانا ذاهب في رحلة إلى بيت الله أو قادم منها. أو الاكتفاء باستدعائها كرمزية للأمان. على غرار ما نجد في رواية (فضل الليل على النهار) لياسمينه خضرا.

يلوم صاحب المطعم البطل عيسى لتركه ابنه وحيدا لساعات في انتظاره في مكان غير آمن في وهران.

- "أين تحسب نفسك؟ في مكة؟ ماذا حدث لك حتى تنسى ابنك في مكان مثل هذا؟"<sup>2</sup>

ذكرت مكة هنا كرمز للأمان مقابل مدينة وهران. ليظهر الكاتب حجم الهوة بين المدينتين. وهران أنذاك كانت تحت وقع الاحتلال، غارقة في أصناف الانحراف والمخاطر والصدمات.

<sup>1</sup> - عبد الوهاب عيساوي، الدوائر والأبواب، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2018، ص141.

<sup>2</sup> - فضل الليل على النهار، ص20.

الروائي "كاتب ياسين" في روايته (نجمة) اكتفى هو الآخر بالتوثيق لرحلات الحج في النصف الأول من القرن العشرين. رحلة حج لم تكتمل للبطلين الشيخ السبعيني سي مختار، المثقل بالذنوب، والشاب الغر رشيد، الهارب من الجندية، هذا الأخير الذي لم يتمكن من الذهاب في الرحلة إلا بأوراق مزورة بصفة بحار.

الكاتب وثق لإجراءات وتفصيل الرحلة من البداية. ووصفها عن طريق البحر بالمغامرة، وبأنها رحلة للتطهير وتخفيف العقوبات. ولأن الشيخ سي مختار كان ممثلاً للحجاج الجزائريين، فقد تمت استضافته في كل الجهات ثلاثة أشهر قبل الذهاب. هذا أمر عكس من خلاله الكاتب مكانة الحاج، ومدى قدسية مكة في قلوب الناس الذين استضافوه قبل الرحلة، على أمل أن يذكرهم في صلواته، ويبلغ دعواتهم إلى الله من هناك. الحجاج يتم توديعهم أيضاً بمراسيم لائقة:

— "تمت مرافقة سي مختار إلى مرفأ الإبحار في سيارة مغلقة بهيمة، وقد استقبل هو وأمثاله من النقاة استقبالا رسميا من وكيل والي عنابة"<sup>1</sup>

رصد الكاتب أيضا ظاهرة اقتصار الحج غالبا على كبار السن، إشارة منه إلى الاعتقاد السائد سابقا أن التطهير من الخطايا يستحسن أن يكون في آخر سنوات العمر.

— "كان عمر أصغر حاج لا يقل عن الستين سنة، وكان سي مختار أكثرهم نشاطا. الوحيد الذي قدم من غير عصا ومن غير عكاز"<sup>2</sup>

قدم الكاتب أجواء توديع الحجاج في جو استطريقي رائع. الحجيج يصعدون متن الباخرة، تحت الأضواء الكاشفة للمرفأ، وسط جمهرة المودعين، وعلى صوت صفير الباخرة في ظلمة الليل ولمعان ماء البحر.

واصل الكاتب إشراكنا معه في أجواء الرحلة البحرية. ليس بتفاصيل كثيرة، لكن كانت كافية لتصوير الرحلة كاملة. الباخرة تتوقف في مدينة بنزرت ليقتني الحجاج أثواب الحج، وأشياء صغيرة أخرى، لم يشر لها الكاتب. كما رست مجددا في ميناء مدينة بور سعيد لاستبدال المال بالليرة المصرية، التي يمكن تحويلها إلى الريال بسهولة. لم يقدم الكاتب وصفا للمدينتين، لكنه وضعنا في موضع تشويق مع البطل رشيد الذي صعد متن الباخرة، متظاهرا أنه من طاقمها ثم اختبأ في حمام العيادة، وصار سي مختار يهتم به. يزوده بالقوت وبمعلومات عن الرحلة. الذين تم

<sup>1</sup>-نجمة، ص118.

<sup>2</sup>-نجمة، ص118.

ضبطهم بأوراق مزيفة تم حبسهم في قاع الباخرة. استطاع الكاتب أيضا أن يصور لنا ما يعانيه البحارة من مشاق وتعب أثناء الرحلة. وتقرز بعضهم من تصرفات وسلوك بعض الحجيج الذين لا يحافظون على نظافة السفينة.

سرد "كاتب" قبح مدينة جدة بعبارات حادة، ووصف ميناءها بالمقفر، وبأنه خارج الزمن!

- "أنعشت نسمة خفيفة عصر سبتمبر، لكن الشمس كانت تثقل المرسى المقفر ظاهريا، واختصرت المدينة البعيدة في شقوق جدران غارقة في الأرض الصلصالية، المقعرة، الناتئة الصخور، وفي شعاب المرجان المحاطة بالفضلات."<sup>1</sup>

- "كأن ميناء آخر تجلى من زمن آخر أغمي عليه في شمس نائية. لم تكن جدة سوى صحراء مغدورة"<sup>2</sup>

رصد الكاتب أيضا ظاهرة منع التصوير الفوتوغرافي. وصرامة موظفي الديوان مع الحجيج الذين يعثرون لديهم على آلة تصوير، أو مع الذين يستمعون للأغاني بدلا من التراتيل. هذان القانونان يمنحان شعيرة الحج سطوة وقدسيتها. لكن الكاتب اعتبرها خيلاء وغطرسة من موظفي الديوان. الذين نعتهم بالمتوحشين وبالقطع والبهلوانيين. وأنهم أحفاد من أبعده النبي عليه الصلاة والسلام من مدينة مكة. وأنهم هم من بدد الحضارة والإيمان. وبأنهم لا يحسنون إلا تحديد تركتهم وترديد نفس الآيات، التي كان بوسعها إيقاظهم.

- "إنهم يفعلون ما فعله آباؤهم: طردوا نهائيا حفيدهم الذي استيقظ ذات صباح ليكشف لهم عن رؤاه القديسة الغامضة، وما رغبوا في الإتياع."<sup>3</sup>

الكاتب صبغ الأرض بالقدسية، ووسمها بأنها أرض الرسالة والإيمان والرؤى الإلهية. وبأنها موطن التبشير والانتقاء الرباني. وأنها موطن الجنة القديمة، التي أعاد النبي عليه السلام، والذين خلق القرآن لأجلهم -على حد تعبير الكاتب- فتحها بثورة وبجلم لم يجد طريقه للتأقلم في أرض مكة، ووجدها في المدينة.

- "إلا أنهم طاردوه، جعلوه يقتلع حلمه، يبعثره بلا تبصر، متكلا على صدفة الرياح المواتية"<sup>4</sup>

<sup>1</sup> - نجمة، ص 123.

<sup>2</sup> - نجمة، صص 123-124.

<sup>3</sup> - نجمة، ص 124.

<sup>4</sup> - نجمة، ص 124.

أعاد الكاتب في خضم حديثه عن رحلة الحج سرد أجزاء من بدايات البعثة الحمديّة، مستبعدا موظفي الديوان من الذين فتحت لأجلهم الجنة، بل هم حسب رؤية البطل رشيد أحفاد من أدرك الوثنية، ومن لا يزال يعيش في العصر الحجري. هذا النقد اللاذع يعكس الخلفية الايديولوجية للكاتب.

رصد الكاتب أيضا بالإضافة إلى صعوبة الرحلة ومضايقات موظفي الديوان، تكاليف الرحلة الباهضة. وانتقد بعض الحجيج الذين كانوا يأتون للتجارة، وشراء الذهب بدلا من التطهير والعبادة.

— "آه يا أي، إنك ساذج جدا، نصف الذين يأتون إلى هنا لا همّ لهم سوى التجارة، كأنه معرض سنوي تحت رعاية الله".<sup>1</sup>

لم تكتمل رحلة الحج، وجعل الكاتب البطلين يعودان أدراجهما مع طاقم السفينة باتجاه السودان، بدلا من مواصلة رحلتها إلى مكة.

بالمجمل، فقد وسم الكاتب أرض الحجاز بالجنة القديمة، التي تحتاج إلى فتح آخر، ملغيا في الوقت ذاته سمة التقوى والنبيل عن بعض الحجيج، وعن بعض من أبناء سعود. شبه هذه الرسالة تقريبا نجدها في رواية (غادة أم القرى) لأحمد رضا حوحو، الذي سعى إلى تغيير بعض العادات البالية في النظام الاجتماعي والأسري المكّي.

ولعل (غادة أم القرى) من الروايات الجزائرية القليلة، التي استحضرت أجواء مدينة مكة وعاداتها ونظمها الاجتماعية والدينية والثقافية. حجب الفتيات مبكرا، ومنعهن من مزاوله دراستهن، والاكتفاء بأشغال البيت من تنظيف وخباطة وتطريز. واللجوء إلى الشعوذة والدجل لعلاج المرضى. ورغم أنه نسق ثقافي مرفوض في مكة، إلا أنه فرض وجوده في أوساط الجهلة والبسطاء، رغم سطوة النسق الديني المقدس، الذي يفرضه الحرم المكّي، وبيت الله المقدس. ناهيك عن انتشار الأمية، وغلبة فئة من الناس، الذين وسمهم الكاتب بالشباب الحديث، الذين يقتربون الذنوب والخطايا في مدينة الله. ويجمعون المال بطرق غير شرعية، في حين أن الأسر المكّية العريقة تحيا على الهامش، ببساطتها وبؤس بعضها، والتي يعيش أبنائها بمرتبات زهيدة يتقاضونها من الوظائف الحكومية. ورغم بساطة الحياة في مدينة مكة، فأهلها سعداء بملكهم العادل.

<sup>1</sup> - نجمة، ص 126.

بتفاصيل أكثر، يروي الكاتب "أحمد رضا حوحو" في روايته-والتي عددها بعضهم قصة طويلة<sup>1</sup>- قصة فتاة تدعى زكية، من أسرة مكية عريقة متدينة، وموسومة بالغلو في المحافظة والالتزام. تبادلت حبا عنيفا وعفيفا مع ابن خالتها جميل. لكن حبهما لم يكتمل بالزواج. فقد زج بالشباب ظلما من غريم له في السجن، بعد اتهامه بالسكر. وأصيبت حبيبته زكية بالحنين حزننا وحسرة عليه. وختم الكاتب قصة الحب هذه بنهاية درامية مؤلمة، بموت الحبيين في يوم واحد ودون لقاء أخير.

عكس الكاتب من خلال هذه العلاقة العفيفة نظرة المجتمع المكّي آنذاك للحب والمرأة. والتي كانت تعد الحب جريمة لا تغتفر، وإن كان طاهرا نقيا. كما رصد الكثير من الأخلاقيات المتردية والعادات البالية، التي لا علاقة لها بالدين، ولا بسطوة المكان وقدسيتها المدينة. الدجل والشعوذة والجهل والرشوة وشهادة الزور. والمحافظة في الأوساط الأسرية حد الغلو.

طبوغرافيا، أتى الكاتب على ذكر ووصف بعض الأحياء والمناطق في مكة، وصفا كشف عن بساطة المدينة وترقيتها، وسط سلسلة من الجبال والوديان.

- "ما كادت الشمس تتوارى وراء الأخشبين- جبلين من جبال أم القرى العديدة الشاملة التي تناثرت الدور بينهما بدون نظام ولا ترتيب"<sup>2</sup>

- "حرج جميل ذات مساء يتجول في ضاحية جرول وهي أجمل ضواحي مدينة أم القرى وأوسعها، حيث انفرجت عندها سلاسل الجبال العديدة الملتوية كالأمعاء في مراوي إبراهيم، فكشفت عن بطحاء شاسعة رائعة المناظر"<sup>3</sup>.

كما وصف سجنها بالظلمة والاتساح. وأبرز الكاتب من جهة أخرى قدسية المدينة في حرمة الذي يلجأ إليه المكلمون والعشاق والعباد. ومدى نظامها الديني الصارم المستمد من الشريعة الإسلامية في إقامة الحد على شارب الخمر وشاهد الزور وغيرهما.

<sup>1</sup> صنفها محمد مصايف في كتابه (النثر الجزائري الحديث) قصة طويلة، ثم أعاد تصنيفها في ذات الكتاب، وفي موضع آخر رواية بقوله (بهذا الأسلوب كتبت كل من غادة أم القرى، والطالب المنكوب. ومع ذلك فليس هناك ما يمنعنا من عد هذين العملين روايتين على سبيل التجوز). انظر: النثر الجزائري الحديث، محمد مصايف، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1983، ص 118.

<sup>2</sup> أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، دط، الجزائر، 2001، ص 27.

<sup>3</sup> غادة أم القرى، ص 37.

استطاع الكاتب، رغم قصر نضبه، وقلّة المشاهد التي التفت فيها إلى وصف المدينة أن يجعلنا نجول بخيالنا مخلقين فوق الأبطح والدور المتناثرة حول الكعبة المشرفة، وجعلنا نعلق القراءة ونعيش مع الكاتب أجواء الاحتفال باستقبال الملك العادل، من تنظيف للشوارع ورشها بالماء، وتزيينها بالأعلام، وترديد الهتافات وأناشيد أطفال المدارس.

من جهة، وفي طرحها لفلسفة المكان المقدس، وبشكل موجز ترى الكاتبة "أحلام مستغانمي" أن المعيشة اليومية تزيل قداسة الأشياء. وأن البعد عن الأماكن التي نحبها أو نحترمها هو ما يحافظ على سطوتها وقداستها أمامنا.

- "كان أحد الصحابة ينصح المسلمين بأن يغادروا مكة، حال انتهائهم من مراسيم الحج، حتى تبقى لتلك المدينة رهبتها وقداستها في قلوبهم، وحتى لا تتحول بحكم العادة إلى مدينة عادية يمكن لأي واحد أن يسرق ويزني ويجور فيها دون رهبة."<sup>1</sup>

يبقى السؤال مطروحا. لماذا هذا الحضور الباهت لمدينة مكة رغم أهميتها الروحية والدينية في الرواية الجزائرية؟ هل لأن كبار الأقلام الروائية الجزائرية غير متدينة كفاية لتتهم بمدينة الله؟ أم لأن مكة مدينة مقدسة تملك من السطوة ما يمنع الروائيين من خوض تجارب روائية حولها قد تسقطهم في المحذور؟ أم أن خيالهم قاصر، لم يمكنهم من الوصول إلى أرض الحجاز؟

<sup>1</sup>- ذاكرة الجسد، ص 363.

## الفصل الثاني

إنتاج المعنى بين التقاطعات المدينية والشخصيات والزمن

المبحث الأول: التقاطعات المدينية في الرواية

المبحث الثاني: شخصيات وزمن المدينة وتشكيلها السرد

## المبحث الأول: التقاطبات المدينية في الرواية

## 1-1 المدينة والمطر

المطر من الظواهر الكونية المهمة، التي لفتت انتباه الإنسان منذ الأزل، كونه ارتبط بالوجود والنماء والحياة، والفرق والموت. وقد تفتن الشعراء العرب لشاعرية المطر، ودوره في إثراء الصورة الفنية، وما يوقعه في النفس من طرب وشجن.

ربط الشعراء العرب الأوائل المطر بالأطلال والمحبوبة، وأيام الحرب، ورحلات الصيد، ومراتع الصبا وأيام الوصال. وأسهبوا في ذكر أسمائه وأنواعه، ووصف سيوله وما يصحبه من رعود وبروق. كما ربطه الشعراء المحدثين بالحياة والثورة والشجن، والذكريات التي أفلت.

النص القرآني الكريم، والنصوص النبوية الشريفة، تضمنت الحديث عن المطر، جماله ونفعه، وإعجازه وشدته. على غرار ما نجد في سورة النور والبقرة والأعراف. سور ونصوص نبوية تبرز قدرة الله وإعجازه في خلق المطر، وجمالياته. في البعث وبث الحياة، والاستبشار والتفاؤل. وشدته في الدمار والسخط والعذاب. ومن الآيات التي تعكس نفعه وجماليته نجد قوله تعالى: {ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (9) والنخل باسقات لها طلع نضيد (10) رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (11)}. الآيات 9.10.11 من سورة ق.

وأما الآيات التي تقف على رمزية المطر كونه مصدرا للعذاب والغضب والسخط الإلهي فهي كثيرة أيضا. منها قوله تعالى: {فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم}. الآية 24 من سورة الأحقاف.

الرواية الجزائرية احتفت هي الأخرى بتيمة المطر وجمالياته وشجنه في المدن، فكانت حاضرة بشكل مكثف في عدة روايات. ومشبعة بدلالات ثرة وموغلة في العمق. على غرار حضورها في رواية (سوناتا لأشباح القدس) لـ "واسيني الأعرج".

عند تماطل الأمطار في المواسم الباردة، تستيقظ بدواخلنا روح الفن والإبداع. هكذا مَيَّ بطلّة الرواية، لم تستسلم لدفع بيتها وهدوئه، وأيقظت نقرات حبات المطر على زجاج النافذة رغبتها في الكتابة، وتدوين عوالمها الدفينة في دفتر ذكرياتها:

- "أستطيع الآن أن أواصل الكتابة. يصعب عليّ النوم ومقاومة هذه الشهوة الكبيرة. تسقط أمطار الخريف الأخيرة، وتهب الرياح مكنسة ساحات نيويورك وحدائقها وشوارعها."<sup>1</sup>

المطر يزيدنا شجنا، ويدفعنا للتفكير والتأمل في الوجود والبعث، وثنائية الموت والحياة. مَيّ في صراعاتها الأخيرة مع الموت، تتأمل قصر الحياة ومدى فنائها:

- "تنحدر قطرات المطر على زجاج النافذة متلاحقة، الواحدة بعد الأخرى، في تتابع مستمر، ثم تنكسر وتتلاحق مكونة قطرة ثقيلة، سرعان ما تنزلق على الزجاج لتنتهي بدورها على الحواشي والأطراف، ثم تعاود من جديد في التكون وعلى نفس الوتيرة، مختزلة في حركتها الوجود بكل تعقداته وأزليته المتكررة."<sup>2</sup>

المطر يوقظ الحنين المتخفي في الأعماق، وكثير من التفاصيل التي سهونا عنها في رحلة الحياة. ويبعث فينا ذكريات الطفولة، بأصواتها وألوانها وروائحها، ووجوه البشر الذين عرفناهم في تلك الفترة.

تتذكر مَيّ موسم الأمطار في القدس، عندما تقف أمام زجاج نافذة بيتها في مرتفعات بروكلين، أو خلف نافذة غرفتها في المستشفى المركزي لمرضى السرطان بنيويورك، وهي تشاهد قطرات المطر تنقر الزجاج، وتتأمل عن كثب سيول الأمطار تنحدر في الطرقات والشوارع، تتماثل أمامها القدس وذكريات الطفولة:

- "تضع أمي على رأسي كيسا بلاستيكيًا، وتصنع لي به قبعة كما يفعل الفلاحون عندما يخرجون إلى حقولهم في الأيام الماطرة. نودع طانت جينا ونخرج ركضا. الناس يجرون في كل الاتجاهات.. تكاد السيول أن تغلق الطريق.. أواصل الركض بدون توقف حتى ندخل عمق حارة المغاربة. لا أدري أي سعادة يشعر بها المرء وهو يدخل بيته وهو يتقاطر ماء؟.. كان الزمن مشابها لليوم"<sup>3</sup>

شارع المغاربة بالقدس، والمطر ينهمر في الطرقات والدروب الحجرية، ورائحة خشب الزيتون والدالية، وعبق روائح الخبز المحروق على الجمر. كلها ذكريات أحيتها أمطار بروكلين، وجعلت قلب مَيّ يفرح فرقا وحرنا على أيام أفلت. أراد الكاتب من خلال هذه المشاهد والمواقف الأثيرية أن يعكس لنا عمق أحزان الفلسطينيين المغتربين كرها عن مدتهم المغتصبة.

<sup>1</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص 440.

<sup>2</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص 442.

<sup>3</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص 444.

تحمل أمطار القدس من القوة، ما يحمله المقدسيون من روح ثورية. ولطالما كانت الأمطار رمزا للقوة والثورة والشدة.

- "حبيبي جينا، أمطار القدس مثل ناسها، في كل قطرة عاصفة، وفي كل شخص قبلة موقوتة".<sup>1</sup>

حضور تيمة المطر بشكل كبير في الرواية، يفسر رغبة الكاتب في جذب المتلقي، ودفعه إلى التخيل. وهو ما حدث فعلا، فقد وفق الكاتب "واسيني" في إثارتنا، وجعل خيالاتنا تتدفق مثل المطر. نشتهي اللعب والركض تحته تماما كما اشتهدت البطلة مَيّ، وهي في حالة قهر مرضها، وإحساسها بالعجز أن ترفرف كالطير عاليا في سماء بروكلين الممطرة:

- "كنت أشتهي مثلا أن أطيّر الآن. أن أخرج إلى شوارع بروكلين الهادئة والمستسلمة لأين الماء. للمطر وقع كبير عليّ وعلى شوارع هذه المدينة".<sup>2</sup>

المطر يضفي جمالا باذخا على المدن. هكذا بدت نيويورك (سوناتا)، والتي صورها الكاتب مدينة ساحرة، خاصة عندما تغتسل بماء المطر ليلا، ويغطي الضباب الكثيف شوارعها وجسورها:

- "تأمل سيارة فرانثيسكو حتى غابت في شوارع إليزابيث المضرب، قبل أن تتحول إلى مجرد نقطة ضوئية تماهت وسط الآلاف من الألوان المتكسرة على الإسفلت وحببات المطر. أغمض عينيه قليلا. كانت نيويورك لذيذة في ذلك المساء، تغتسل بالمطر وتلبس الضوء والألوان والضباب".<sup>3</sup>

في أحايين كثيرة، يمتزج وقع الجمال الذي يحدثه المطر على شوارع المدن بدفق من الأحزان والانكسارات. القدس غير نيويورك، مدينة معتصبة، جريجة. مطرها يحضر في (سوناتا) مصحوبا بالحب والشهوة، والفقد والعزلة، والذكرى الأليمة. تكتب الألمانية إيفا رسالتها إلى حبيبها المقدسي، وهي وحيدة، وسجينة الخوف والتخفي من الموساد، التي أهدرت دمها:

<sup>1</sup>- سوناتا لأشباح القدس، ص 443.

<sup>2</sup>- سوناتا لأشباح القدس، ص 445.

<sup>3</sup>- سوناتا لأشباح القدس، ص 82.

- "ينزل الليل بسرعة على جراحات القدس وأينها. لقد صارت المدينة تغلق أبوابها مبكرا بينما الأمطار التي تنقر نافذتي المعزولة، لا تتوقف عن النزول. أتعلم أي حزن يحدثه المطر في؟ مثلما تحدثه شفتاك وهما تمضغان بدفء حُلْمَيَّ النهدين الموردتين المليئتين بالرغبة والحياة."<sup>1</sup>

الكاتب "الحبيب السائح" تفطن هو الآخر لما يضيفه المطر من جمال على شوارع المدن، وأزقتها، وعلى أسطح بيوتها. ولما تحققه رائحته من نشوة وشجن. فوظفه بكثرة في روايته (أنا وحايم) و(تماسخت).

في مشهد درامي حزين، يصور لنا الكاتب "الحبيب" الليلة الأخيرة، التي جمعت الصديقين حاييم وأرسلان ذات شتاء في أحد شوارع مدينة سعيدة، وهي تعيش وقائع دامية، بسبب اندلاع الثورة التحريرية.

- "نزلنا، جنبا إلى جنب، عبر شارع إيزلي من جهته الشرقية على رصيفه الشمالي، تحت رذاذ خفيف، صامتين كحال من كان في شرود ذهني. فتخللنا بين حين وآخر مارين آخريين من الأقدام السوداء والأوروبيين بقبعات ومعاطف يسرعون الخطى ضاغطين رقابهم بين أكتافهم"<sup>2</sup>

الكاتب استعان برذاذ المطر، ليضيفي الكثير من الوصب والشجي على مشهد وداع الصديقين، وانكسار المدينة التي باتت تستيقظ كل يوم على وقع نواقيس كنيستها، معلنة عن قتلى جدد في صفوف العسكر الفرنسيين.

الرذاذ هنا لعب دور المثبت لذكرى الفرق والثورة. بيد أنه في مشاهد أخرى من الرواية، حضر مرافقا للقاءات الحب الحميمة. ولنا أن نتخيل بلذة تفاصيل غرفة مزينة بزراي ومساند حمراء، مضاءة بشمعدانين وفانوس نحاسي، ينبع من تحريماته نور خافت. وعلى لمعة البرق، وهزيم الرعد ينتشي الحبيبان لحظات سعادة سلسلة ولذيذة.

المطر، كان ولا يزال رمزية للبدايات الجميلة. وللحركة بعد السكون، والحياة بعد الموت، والنصر بعد الهزيمة، والانبعث بعد العدم. الغيث في المقابر، لا يزيد من حدة الوجع، بقدر ما يزيد في جرعات الأمل. المطر في المقابر يتخذ بعدا روحيا، يدفعنا للتأمل والتعمق في ذاتنا، والتفكير في دورة الحياة والموت. والوجود والفناء. الروائي الحبيب اتخذ من المطر المتساقط في مقبرة اليهود سبيلا لطرح قضايا إنسانية ووجودية حول صراع الأديان، وتصادم العقائد، واختلاف رؤى الأمم والأقوام حول مسائل البعث والفناء، وحياة ومصير الأرواح بعد الموت. الرذاذ والصور الحجري العتيق الذي يحيط المقبرة، وأشجار السرو الخضراء زاد في جمالية المقبرة وسطوتها، فضلا عن امتزاج الحياة والرجاء بالرحيل والبين. مثيرا في ذات الزمن وذات المكان وذات المشهد الممطر فكرة إيمان اليهود بزحف

<sup>1</sup>-سوناتا لأشباح القدس، ص536.

<sup>2</sup>- أنا وحايم، ص169.

أرواحهم وأجسادهم بعد الموت إلى القدس. محيا بذلك القضية الفلسطينية، والصراع حول الأرض والتراب والتراث بين العرب المسلمين واليهود. المطر حياة ولا حياة بعيدا عن الأرض الأم.

- "وتحت أول رذاذ للخريف، نزلت من السيارة.. نطقت مسرحا ناظري إلى السرو المخضر الذي يحيط به السور الحجري العتيق؛ وقد ثار في ذهني سؤال: أليست المقابر هي ممالك العدم؟"<sup>1</sup>.

في مشاهد مختلفة يحضر المطر ليعمق من جرح معاناة الحرب. في مواقف تراجيدية مؤلمة عكس الكاتب بما تضحيات الأوائل من الأبطال، الذين استبقوا الجهاد على حياة البذخ.

- "مثلما خرجت زليخة من صيدلية حاييم في تلك الليلة، كنت، في ليلة شتاء آخر ممطرة كهذه التي يقصف رعداها مدينة وهران حد أن أسمع أزيز زجاج نافذة مكتبي، دخلت عليه فيها من بابها الخلفي نفسه."<sup>2</sup>

الأمطار في (نوار اللوز) تحضر بشكل مكثف أيضا، لكن الروائي "واسيني الأعرج" وظفها في أغلب مشاهد روايته ملازمة للبؤس والقبح والشقاء. فالتجار الصغار تمنعهم الأمطار من وضع بسطاتهم، وعرض بضاعتهم في زوايا الأسواق والطرقات. كما تفاقم الأمطار من إحساسهم بالنبد والتمهيش. هذا وإن كانت الأمطار تزيد من جمالية بعض الأحياء الراقية في المدن، فهي على العكس من ذلك في أحياء وأزقة الفقراء تزيدها قبحا ونفورا، إذ تمتلئ الأزقة بالبرك والوحل، وتغرق البيوت والأكوخ القصديرية بالسيول. فتزيد من قساوة شتاءاتهم وبرودتها.

- "شعر بالتعب يثقل جثته في هذا اليوم الممطر البارد. قدماء لم تعودا قادرين على حمله. انتابه الملل وهو ينتظر فتح الباب."<sup>3</sup>

الأمطار في (نوار اللوز) حاضرة أيضا في المقابر، ولحظات الدفن المؤلمة، وأثناء معارك المتخاصمين حول التفاهات، والأحقاد القديمة في المقاهي.

بنفس الصورة الكاسفة، يصور لنا الكاتب "محمد ديب" في روايته (النول) المطر وهو يرمي بثقله على مدينة تلمسان، وعلى أهلها الأشقياء، الذين كانوا يعانون الفاقة والبرد بسبب الاحتلال والحرب العالمية.

<sup>1</sup> - أنا وحاييم، ص 330.

<sup>2</sup> - أنا وحاييم، ص 184.

<sup>3</sup> - واسيني الأعرج، نوار اللوز، تغريبه صالح بن عامر الزوفري، دار الحداثة، ط1، بيروت- لبنان، 1983، ص 63.

الضباب يغشى المدينة البائسة حد العتمة، والأمطار تهطل بشدة، فتزيدها ظلمة وغشاوة، وتغوص الشوارع والأزقة بمداول المياه المتتوية بين المباني والبيوت الهرمة، المتآكلة. فتتجلى المدينة في أشد صورها قفرا ووحشة.

أدرك الكاتب "محمد ديب" مدى ما تضفيه تيمة المطر في تعميق صورة البؤس والمعاناة، التي أراد إيصالها لنا، فاستعان بها كثيرا في عدة مشاهد من الرواية. حتى صور فصل الربيع التي يفترض أن تبدو أكثر جمالا وإشراقا، ناءت بحمل ثقيل على البائسين من أهل المدينة، وما أكثرهم!

- "وفجأة أخذت الأمطار تدك الفضاء في عناد أقوى، وهذه هي المدينة، المظلمة الملتئمة، المختنقة بين جدران أساورها.. ويشبه كل حي من أحيائها أن يكون كتلة من وحل، هذه هي المدينة تنتصب الآن وقد لاح منظرها أشد ما يكون عداوة ونكرا."<sup>1</sup>

- "كانت المدينة قد أفقرت مرة أخرى تحت وابل المطر."<sup>2</sup>

- "وعادت تغطي سماء المدينة سحب كثيفة كأنها الرصاص ثقلا. وأخذت تهطل أمطارا رقيقة بلا انقطاع.. وعادت المدينة تغرق في أفكارها السود."<sup>3</sup>

المطر في النول، وعلى مدار كل الرواية تزامن حضوره مع ظواهر التسول والضحك والحرمان في شوارع المدينة. وحضوره ليس مصادفة، بل اعتمده الكاتب، ليؤكد أن الثورة اقتربت لتجلي وطأة الليل البهيم على المدينة. تماما كما الأمطار تجلي قذارة جدرانها وأسطحها، وتحيي في النفوس رجاء في غد جديد مشرق.

ثلاثية المطر والثورة والفاقة في المدن تذكرنا برواية (قصة مدينتين) لشارلز ديكنز، التي وظف فيها الكاتب المطر بشكل ملفت جدا للانتباه. فكان المطر حاضرا في أشد المشاهد حزنا وألما. مشاهد السفر بين مدينتي باريس ولندن، ومشاهد الثورة الدامية، التي اندلعت بين طبقة الأرستقراطيين والمواطنين الأشقياء، الذين انتفضوا لرفع الظلم المسلط عليهم من الطبقة الحاكمة.

كذا هو الحال في رواية النول. يحمل المطر مظاهر الانتفاضة والتمرد ضد كل صور الطغيان والتعسف والتهميش.

<sup>1</sup> - محمد ديب، النول، تر: سامي الدروبي، دار الهلال، دط، القاهرة-مصر، 1970، ص16.

<sup>2</sup> - النول، ص18.

<sup>3</sup> - النول، ص95.

الكاتبة "أحلام مستغانمي" تفتنت هي الأخرى إلى جمالية المطر في المدن. وأدركت أن لا مشهد يضاهي لذة الاستماع لنقرات المطر على زجاج السيارة. هناك إثارة مميزة وإستثنائية لمثل هذه المواقف. خاصة مواقف الحب، بعيدا عن فوضى العالم.

- "كانت تشعر أنهما أخيرا وحيدان. ومختبئان عن كل الناس. يغطيهما ستار من الأمطار المنزلة على زجاج النافذة"<sup>1</sup>

في رحلة متعبة، حزينة. بحثا عن الحقيقة والحرية، والحب والحياة الكريمة. وفي مدن محتلة، ومهزومة. يوظف الروائي "كاتب ياسين" تيمة المطر في مدائن وقرى روايته (نجمة) بشكل درامي وحزين غالبا. الأصدقاء الأربعة الباحثون عن الحرية يعجزون حتى عن إيجاد عمل بسيط. الكاتب يضيف هالة الكآبة والأسى بتساقط المطر، مما يزيد مهمة البحث تعقيدا.

- "لم يغادروا حانوت بائع الفطائر. منذ يومين والبرد والأمطار تتهاطل على المدينة. وانتظروا."<sup>2</sup>

وفي رواية (كتاب الأمير) لـ "واسيني الأعرج" يوظف المطر بشكل مكثف جدا. الرواية مليئة بمشاهد الحروب والانكسارات، والمطر لعب دورا كبيرا في تعميق قتامة هذه المشاهد. لم يحضر المطر إلا لإعاقة حركة الفرسان والجنود، وإيقاظ المزيد من الشجن والألم.

- "في الفجر الأول عندما استيقظ شونقارنييه بعد إغفاءة خفيفة، وبدأ يعبر الشوارع الخالية التي كستها أغلفة بيضاء من المطر، اكتشف فجأة أمامه مدينة منكسرة عن آخرها. أهم ما بقي فيها واقفا مسجدها الموريسكي (...) والبيوت الأندلسية القديمة التي نجت من النار."<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - فوضى الحواس، ص 29.

<sup>2</sup> - نجمة، ص 269.

<sup>3</sup> - واسيني الأعرج، كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، ط2، بيروت-لبنان، 2008، ص 185.

ويواصل الكاتب تقديم مدينة معسكر التي وقعت تحت احتلال الجيش الفرنسي بشكل مأساوي، الجيش الذي قام بتدميرها عن آخرها، حصونها وبيوتها وحوانيتها. فصور لنا مشاهد مؤلمة لسقوط مدينة، وإعدام الأهالي الباقين منها، من العرب واليهود الذين بقوا متمسكين بالمكوث في بيوتهم. بيوتها الأندلسية، وأسوار أزقتها مدمرة، يتصاعد منها دخان نيران القنابل، والغيوم الرمادية المكدسة في السماء، ونقرات المطر والبرد على الأجساد المعلقة على أعواد المشانق، والكلاب الضالة متجمعة حولها تريد نهمها، والكواسر تحوم جائعة فوق الجثث المتآكلة الأطراف. هذا وحرص الكاتب على استحضار المطر بشكل دائم مصحوبا بمشاهد المعارك والموت، والانتظار والخيبات. والمنفى وطول الانتظار، والتأمل والتحول واسترجاع ذكريات سقوط المدن، وفراق الأحبة.

## 2-1 المدينة والليل

حظي الليل باهتمام كبير وحضور مكثف في الأدب العربي. خاصة منه في الشعر الغنائي والرومانسي الذي يتغنى بالطبيعة، ومظاهرها الكونية. ولأكثر ما يتذكر القراء في أذهانهم، معلقة امرؤ القيس، التي يستحضر فيها الليل (وليل كموج البحر). والكثير الكثير من القصائد، التي استدعى فيها أصحابها الليل ليستمدوا منه (أسمى المعاني ودقائق التخيلات)<sup>1</sup>.

أما القصائد التي تعرضت لتيمة المدينة والليل، فهي الأخرى كثيرة. منها (من ليالي السهاد: ليلة في لندن-ليلة في باريس) لـ "بدر شاكر السياب". و(بيروت الليل والرصاص.. وتل الزعتر) لـ "عبد العزيز المقالح". و(الليل والمدينة والسل) لـ "عبد الوهاب البياتي". و(إلى عيني غزة في منتصف ليل الاحتلال الإسرائيلي) لـ "معين بسيسو". على صعيد الرواية العربية، نجد عدة روايات تعرضت لتيمة الليل. كرواية (سمر الكلمات) لـ "طالب الرفاعي"، التي تدور كل أحداثها في ليل الكويت. (خيول الليل والنهار) لـ "مرزاق بعطاش" و(فضل الليل على النهار) لـ "ياسمينه خضرا". ورواية (النول) لـ "محمد ديب".

ليل رمزيات ثرة، تتجاوز كونه ظاهرة طبيعية، يعقبها النهار. إلى كونه رمزا للقوة والشدة، التحدي والإرادة. الكتابة والألم. اللذة والشهوة. الهدوء والسكن. الحزن والفراق. الظلم والقسوة. اليأس والضعف. الجمال والإبداع. العزلة والوحدة. التيه والضلال.

<sup>1</sup> -عمر فاروق الطباع، فنون الشعر العربي، دار القلم، ط1، بيروت-لبنان، 1992، ص88.

في رواية (النول) لـ "محمد ديب" يستوقفك الحضور الكثيف لليل، حضور طاغ وناتئ لا يمكن ألا يكون له وظيفة. ولو قدر لهذه الرواية أن تتحول إلى فيلم سينمائي، دون تحريف وتعديل من مخرجه، قطعاً ستدور جل مشاهدته في الليل.

تتكرر عبارة (لقد هبط الليل) كثيراً في الرواية، وكل عبارة منها تفيض بدلالات مختلفة. تجعلنا نخلص أن مدينة تلمسان في فترة الحرب العالمية الثانية، كانت تعيش أوج بؤسها وانهاياراتها. شلالات المتشردين، المعطوبين من الحرب، وضحايا الجوع والجذب، تملأ شوارع تلمسان ودروبها. وزرافات من المتسولين تطبع الطرقات والأرصفة، تراحم البسطاء من الأهالي في لقيمة خبز ومكان دافئ في زوايا المدينة بعيداً عن برد الشتاء وأمطاره. هذه المشاهد جعلت مدينة تلمسان غارقة في ليل بهيم سرمد.

– "كان الليل قد هبط. وهذا ضباب أسود رقيق يتموج في الهواء، ويتخلل المنازل والمارة والأشياء، التي تبتعد عنك كلما اقتربت منها. التفت عكاشة إلى عمر وابتسم مثله. ثم قال:

– كأن هذه البلاد لا تتوقع من رجالها شيئاً"<sup>1</sup>

كان عكاشة يشعر بواجب التوعية لسكان تلمسان. إنه يسعى دوماً أن يذكرهم بإنسانيتهم، بضرورة أن يوضح لهم ما يجب أن يفعلوه حتى يكفلوا لأنفسهم حياة كريمة. لكن اليأس بدأ يدب إلى قلبه. فرجال تلمسان يستبد بهم الخوف من المستعمر الفرنسي، ويخشون المطالبة بأبسط حقوقهم.

تلمسان قاسية. شوارعها تتسع للخوف والقلق. سطوتها سلبت كل الآمال والتطلعات لغد مشرق جميل. وزادها الليل، وتسلط تجارها قساوة وشقاء وخوفاً.

– "وكان هبوط الليل يقترب. وكانت تجري في السماء غمامات لا تزال مذهبة. وكانت الحركة التي تستبد بالناس عند الغسق قائمة قاعداً.

– كل شيء في المدينة بارد سيء. البائع في المدينة ملك. ويل لمن يريد أن يثور على جنس التجار. إن المدينة هي العالم الذي يعيش بغير أمل."<sup>2</sup>

<sup>1</sup> – النول، ص 112.

<sup>2</sup> – النول، ص 120.

ليل المدن صاحب غير ليل القرى والأرياف. وهو وإن كان يحمل دلالات العتمة والخوف واليأس والعزلة، فهو أيضا يفيض بالجمال. وكثيرا ما تغنى بجماله الشعراء، وأفاض في وصف جمالياته الكتاب والمبدعون.

ليل تلمسان، في أمسيات الصيف يبدو لذيذا، صاحبا، باذخا بالجمال. يمد الأهالي البائسين بجرعة من الأمل وهدوء النفس.

- "لقد هبط الليل. إن طمأنينة من الأعماق تملأ قلب عمر.

وعاد إلى الجمهور الذي تعج به الشوارع..

هذه مصابيح غاز وكهرباء قد علقها باعة الفاكهة كالأكاليل على طول الأرصفة، فهي تضيء سلالا تنساب فيها ألوان قوية مشبهة.<sup>1</sup>

لكل مدينة ليلها الذي تتسم به. فهناك مدن ليلها صاحب وفاجر، ومدن ليلها هادئ وروحاني، ومدن صناعية تأبى الركون إلى الراحة أو إلى اللذة. تعري "أحلام مستغانمي" ليل قسنطينة التي يتكشف وجهها الآخر في الليل، فيسقط عنها قناع المحافظة، وتتجلى صورتها الماجنة.

- "وفجأة.. يحسم البرد الموقف، ويزحف ليل قسنطينة نحوي من نافذة للوحشة (..) مذ أدركت أن لكل مدينة الليل الذي تستحق، الليل الذي يشبهها والذي وحده يفضحها، ويعري في العتمة ما تخفيه في النهار، قررت أن أتحاشى النظر ليلا من هذه النافذة"<sup>2</sup>

ليل مدن الصحراء، غير ليل مدن الشمال الصاحب. نحسب أنه يبعث على التأمل والتفكير أكثر مما يبعثه في النفس ليل مدن الشمال. فالصمت والهدوء والسكينة تتغشاها. يشعرك بالكونية، ويوقظ بداخلك مشاعر الحب والوجد.

<sup>1</sup> - النول، ص 133.

<sup>2</sup> - ذاكرة الجسد، صص 21-22.

في روايته (مريم بين النخيل) والتي تعد من أوائل الروايات الجزائرية، الصادرة سنة 1936 عن دار النشر لبلازا بوهران، يفيض الكاتب "محمد ولد الشيخ آغا" في مشاهد عدة من روايته في وصف جماليات الليل، خاصة في تافليلات المغربية. ورغم أنها رواية تسرد قصة فتاة من أب فرنسي وأم عربية مسلمة، شاركت في رالي الطائرات بين الجزائر والمغرب، وتسقط أسيرة في قبضة قطاع الطرق. إلا أن الليل تجلى في صورته الباذخة بالبهاء والإثارة، نائية به عن مشاعر الحزن التي تتغشى الأبطال.

– "ابتسام الغروب بدأت تدبل. المساكن والقلاع والمآذن وأشجار النخيل المتوهجة فيما قبل، بدأت تخفت مع قدوم الليل الهادي"<sup>1</sup>

في رواية (فضل الليل على النهار) لـ "ياسمينه خضرا" يحضر الليل بدلالات متنوعة ومختلفة أيضا، أراد من خلالها الكاتب أن يبرز الدور الهام الذي لعبه المستعمر الفرنسي في ازدهار وتطوير المدن الجزائرية، من ناحية الاقتصاد والعمران، والطب والتعليم وغيرها.

– "يدين لنا هذا البلد بكل شيء. لقد شققنا الطرق، وضعنا السكك الحديدية إلى غاية أبواب الصحراء، بنينا جسورا فوق مجاري المياه، شيدنا مدنا جميلة وقرى أجمل عند منعطف الأدغال... حولنا قفارا أبديا إلى بلد رائع ومزدهر وطموح..<sup>2</sup>"

هذه الفكرة، هي ما كان يؤمن بها المحتلون. يرون أن لهم الأحقية في الجزائر، لأنهم ساهموا في تطويرها وخدمتها. ذات الدلالة للليل قدمها الكاتب "ياسمينه خضرا" ليعين حجم المعاناة والتضحيات التي مر بها المناضلون الجزائريون في فترة الحرب التحريرية وقبلها، من أجل استرجاع حرية وسيادة الوطن.

الهوة كانت شاسعة بين حياة الأروبيين وحياة الأهالي الجزائريين غير المقربين من السلطة زمن الاحتلال، للحد الذي دفع بالكثير من الكتاب الجزائريين لتصويرها، عاكسين بذلك فداحة شراسة وقساوة المستعمر، وحجم التمييز العنصري والتهميش الذي سلط على الأسر الجزائرية البسيطة. هذا ما حاول التأكيد عليه الكاتب "ياسمينه خضرا" بصيغ مختلفة في عدة مشاهد، ومقاطع سردية من الرواية.

<sup>1</sup> – محمد ولد الشيخ آغا، مريم بين النخيل، فواصل للنشر والإعلام، غرداية-الجزائر، ط1، 2020، ص138.

<sup>2</sup> – ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، وزارة الثقافة، دط، 2017، ص218.

"أخذنا إلى الجهة الأخرى من المدينة... لا يوجد أفصح من تقلبات المدينة. يكفي أن تبعد قليلا عن  
البنيات الشاهقة الجميلة كي تجد نفسك تنتقل من النهار إلى الليل، من الحياة إلى الموت"<sup>1</sup>.

هكذا عبر البطل يونس عندما وصل مع أسرته إلى مدينة وهران، التي بهرته شوارعها الجميلة وطرقاتها المعبدة،  
ومنازلها الراقية. لكن سرعان ما تغير إعجابه إلى صدمة حين رافقهم عمه إلى الأحياء الفقيرة من المدينة، لاستئجار  
سكن هناك.

الليل إذا في الرواية الجزائرية، صاحب مشاهد الفرق والألم والحرب والفقر والأسى والخوف، كما صاحب مشاهد  
اللقاءات الحميمة والسكينة، والهدوء والتأمل، والقوة والشدة.

### 3-1 المدينة واللذة

نقصد باللذة هنا كل ما له علاقة بالمتعة، ورغبات النفس، ومطالب الحياة. وكثيرا ما وسمت المدن بأنها الفضاء  
المناسب لطلب اللذة. بأسواقها ومحلاتها التجارية، ومقاهيها، ونواديها العلمية والرياضية. والمسارح، والملاعب،  
ودور السينما والأوبرا. ومعارض اللوحات الفنية والتحف، والمتاحف والمعالم التاريخية والثقافية. والمكتبات وجلسات  
الشعر والفن والأدب.

وقد عرف التاريخ البشري الكثير من المدن الآفلة التي ارتبط اسمها بالجمال والسحر، والعلم والبذخ. والمتعة  
وغدق الحياة واللهو والملاذات. كمدينة بابل وسدوم وعمورة، وسبأ ويومي وروما القديمة.

حاليا، هناك عدة مدن عالمية، تعرف بأنها مدن جذابة، منفتحة، تتمتع بالكثير من أماكن التسوق والسياحة،  
واللهو والمتعة كمدينة دبي الإماراتية، ومدينة لاس فيغاس الأمريكية.

الروائيون الجزائريون تفتنوا لهذه السمة الهامة في المدن. فهي فضاءات مناسبة للأحلام والأشواق، وتحقيق  
الطموحات، وكسر الرتابة وسدف الحياة. فكانت الجزائر العاصمة حلما جميلا للقادمين من الضواحي والقرى.  
على غرار ما تأملت فيها نفيسة بطللة (ريح الجنوب) لـ "عبد الحميد بن هدوقة". والبطللة دوجة في (الديوان  
الإسبرطي) لـ "عبد الوهاب عيساوي". كما كانت مدن الأندلس غرناطة وقرطبة جنات فردوسية ران لزيارتها  
الكثيرون. من أبطال روايات "واسيني الأعرج". ومدينة نيويورك التي كانت مسارا جميلا ساعد على تحقيق الكثير  
من الأحلام الهاربة، كما حدث مع البطللة مي في (سوناتا لأشباح القدس).

ومن أكثر المدن التي ارتبط اسمها بالمتعة واللذة في الرواية الجزائرية، مدينة وهران التي وسمها العديد من الروائيين الجزائريين بالمدينة الكسومبوليتية، ومدينة الغواية والسحر. بناياتها الشاهقة، وعماراتها الكولونيالية الجميلة، وحنانها وشواطئها، ومطاعمها وساحاتها المخصصة للراحة واللقاءات الحميمة. دفعت بالكثير من الكتاب الجزائريين لاستحضارها في رواياتهم مرتبطة باللذة. كرواية (الموت في وهران) و(أنا وحايم) لـ "الحبيب السائح". و(فضل الليل على النهار) لـ "ياسمينه خضرا".

بدأت مدينة وهران في كتابات "الحبيب السائح" باذخة، ذات سحر لا يقاوم. في الفترة الكولونيالية. مساءاتها الصيفية صاحبة. يقصدها الجميع طلبا للمتعة ولأجوائها اللذيذة الماتعة.

- "غادرت إلى وهران، المدينة الكوسموبوليتية المرمية على ضفة المتوسط الجنوبية التي لا يقاوم سحرها وإغواؤها؟"<sup>1</sup>

كما يصفها بأنها ذات مفارقات عجيبة. فبعض مناطقها هادئة تبعث في النفس السكينة والراحة. وبعضها صاحب، يزدحم بدفق الحركة والحياة.

- "من الهدوء المظلل إلى أجوائها إلى الحياة الصاخبة التي تعرفها شوارعها إلى مساءاتها اللذيذة ولياليها الحمراء"<sup>2</sup>

ويستغرق الكاتب في وصف مساءات المدينة ليحملنا معه على تخيل جمالها، وأثر إغوائها. الترحل في شوارعها الرئيسية (لاري دارزو) و(أزاس لورين) الغاصين بجموع المتسوقين، الذين تزدحم بهم مقاهيها ومحلات ألبستها، ودكاكين حلوياتها وقشدها. وعلى جادة البحر يأخذ المتجولون صورا تذكارية فورية. أزواج، وعائلات بأطفالهم. وعلى الرصيف المحاذي تلمع واجهات المحلات والسيارات والشوارع بالأنوار. تضيء جوارها رائقا مغريا واستثنائيا.

- ((هذه السمات تنسي الشخص تعب))، قال حاييم مستنشقا هواء البحر. فعبرت له عن اعتقادي أن وهران تنزل الإنسان في حاضره بكل زخمه. وقالت زليخة، مبتسمة: ((لأنها مدينة مغرية حد الخطورة))<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - الحبيب السائح، أنا وحايم، ص 137.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص 137.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، ص 319.

في مشاهد قليلة وقصيرة، لكنها ممتلئة بالدلالات. تظهر مدينة وهران في رواية (مريم بين النخيل) في المنتصف الأول من القرن التاسع عشر جميلة لا تضاهي. أحيائها راقية، بها فيلات فخمة مطلة شرفاتها على البحر والحدائق. وتقطنها عائلات أوروبية مرموقة.

– "تقطن مريم في فيلا راقية بحي قنبيطا **Gambetta** تسمى فيلا البستان. متكئة على متراس شرفة الفيلا، تنظر إلى البحر وكأنه يمتد بها إلى ما لا نهاية. على اليسار تظهر حديقة "والسفورد **Welsford**". ميناء وهران مزدحم وصاخب جاثم في أسفل "الميرجاجو" **Murdjadjjo**"<sup>1</sup>

الكاتب حرص من خلال استحضار مدينة وهران على توثيق الكثير من معالمها الشهيرة، التي لا تزال باقية بنفس مسمياتها إلى اليوم. عاكسا بهذا تاريخ المدينة الحافل والموغل في القدم.

من جهته، يصف "ياسمينه خضرا" هو الآخر مدينة وهران بالغاوية والجمال والحيوية. تستهوي النفس، وتجعلها منتشية، وتغريها للسقوط في الطابوهات.

– "استهوت وهران على أرواحنا. يرتعد صخبها في عروقنا، وتعيد لنا جرأتها حيويتنا. كنا منتشين، وقد سحرتنا فعلا حيوية الشوارع بمحلاتها اللامعة وحاناتها الغاصة بالناس. دوختنا العربات والسيارات والترامواي المتدحرجة في جميع الاتجاهات. أما الفتيات الساحرات المندفعات، الوقحات بلطف ومكر، فكانت ترفرف حولنا شبيهة بالحوريات."<sup>2</sup>

ويستطرد الكاتب في وصف مدينة اللذة في مشاهد سردية ممتلئة بزخم المعاني. تعكس ازدهار وتطور الحياة الثقافية والاجتماعية في مدينة وهران في الفترة الكولونيالية. السيارات تملأ الطرقات، وقاعات المسرح. وقاعات السينما الفاخرة، والمحلات الكبرى، وأكشاك الجليد.

<sup>1</sup> – محمد ولد الشيخ آغا، مريم بين النخيل، ص16.

<sup>2</sup> – ياسمينه خضرا، فضل الليل على النهار، ص106.

ويتابع وصفها بأنها مدينة جريئة، تجعل من المرح ذهنية، وقانونا أساسيا في الحياة. ولقبها بالمدينة الأمريكية، التي تليق جميع هلوسات العالم بأمزجتها.

أخيرا، يمكن القول إن الأعمال الروائية التي تخلو مدنها من الليل والمطر واللذة هي أعمال تفتقر للجهد الإبداعي والجمالي والفكري. فضاءات مدنها غير مغرية، منعدمة الإثارة. إذ أن هذه العناصر وما شاكلها هي منطلقات لإدراك فضاء المدن.

## المبحث الثاني: شخصيات وزمن المدينة وتشكيلها السردي

## 2-1 شخصيات المدينة

تعد الشخصية من أهم مكونات النص السردى، الذي لا يخلو منه عمل أدبي. إذ من خلالها تتطور الأحداث وتتأزم وفق إطار مكاني وزماني. وهي تعني ما يميز شخص عن غيره من صفات أخلاقية واجتماعية وفيزيولوجية وسيكولوجية. كما يعتبرها بعض الدارسين أحد أفراد النص الإبداعي الخياليين أو الواقعيين.

ويرى عدد من الباحثين أن الشخصية لا تقتصر على كونها إنسانا، بل قد تكون الشخصية حيوانا أو نبتة أو شيئا أو بطلا آليا، على غرار ما نجد في رواية (ملاك) لـ "ربيعة جلطي" وأغلب الروايات الخيالية والغرائبية، وقصص الأطفال.

والمتبع لتقسيمات الشخصية وأنواعها يجدها كثيرة ومتباينة انطلاقا من اختلاف الرؤى والمرجعيات والمنطلقات. كأن يتم تحديد الشخصية إلى نامية وساكنة، أو يتم تقسيمها إلى شخصية مركبة وأخرى بسيطة. أو شخصية رئيسية وشخصية ثانوية.

في دراستنا هذه اعتمدنا دراسة الباحث "فليب هامون philippe Hamon" التي وسمت بأنها من أبرز الدراسات العميقة والناضجة والشاملة حسب العديد من الناقدين كالناقد "جميل حمداوي" و"سعيد بنكراد" و"عبد الفتاح كليطو".

مثلت هذه الدراسة تصورا جديدا (للشخصية، وللعلامة في الوقت ذاته، انزياحا كليا عن كل المقاربات التقليدية التي لم تتعامل مع هذه المقولات إلا من زاوية نظر سيكولوجية أو اجتماعية، أو تعاملت معها في الكثير من الأحيان استنادا إلى رؤية ساذجة)<sup>1</sup> لا تميز بين الكائنات الورقية والكائنات الحية الحقيقية.

وعليه فقد حدد "فليب هامون" الشخصيات الروائية إلى ثلاثة فئات:

- 1) فئة الشخصيات المرجعية: كالشخصيات التاريخية والأسطورية، والوقائع الاجتماعية.
- 2) فئة الشخصيات الإشارية: كالشخصيات الناطقة باسم الكاتب أو القارئ. أو شخصية رسام أو كاتب أو فنان.

<sup>1</sup> - فليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية-سوريا، 2013، ص13.

3) فئة الشخصيات الاستذكارية: وظيفتها ربط أجزاء العمل السردي بعضها ببعض. أي أن (وظيفتها من طبيعة تنظيمية وترابطية بالأساس).<sup>1</sup> وهي شخصيات للتبشير أو لتأويل الأمارات أو للتكهن.

ويجدر التنويه أن هذه الشخصيات قد تتداخل، فقد تنتسب شخصية واحدة لكل هذه الفئات بالتتابع.

وعليه ستكون دراستنا وفقاً للفئات التي قدمها "فليب هامون". غير أننا لا نختار من النماذج سوى الشخصيات التي لها علاقة أساسية وبارزة بالمدينة. سنختار الأمير عبد القادر والبشير الموريسكي كشخصيتين مرجعيتين. استناداً لطبيعة حضورهما في رواية (كتاب الأمير) و(رمل المائة) لـ "واسيني الأعرج". وشخصية أرسلان في رواية (أنا وحايم) لـ "الحبيب السائح"، وشخصية أمين ويونس في روايتي (الصدمة) و(فضل الليل على النهار) على التوالي للكاتب "ياسمينه خضرا" كشخصيات إشارية. والقوالون والعرافون والرواة والحكماء كشخصيات استذكارية في كل من رواية (رمل المائة) لـ "واسيني الأعرج" و(تلك المحبة) لـ "الحبيب السائح".

### 1) شخصيات مرجعية:

يرى "فليب هامون" أن الشخصيات المرجعية تحيل على معنى ممتلئ وثابت، وأدوار واستعمالات ثابتة حددتها الثقافة، وقراءتها تكون وفقاً لهذه الثقافة، ووفقاً لدرجة استيعاب القارئ لدلالات هذه الشخصيات في مجموعتها الثقافية.

وهي شخصيات تاريخية، وأسطورية، ومجازية، واجتماعية. ولكي نقرأ هذه الشخصيات وندرسها بشكل صحيح وكاف يجب أن نتعلم ونتعرف على المرجعية الثقافية لهذه الشخصيات.

من الشخصيات التي يمكن أن نضيفها أنها شخصية مرجعية، شخصية البشير الموريسكي في رواية (رمل المائة) لـ "واسيني الأعرج". شخصية استلهمها الكاتب من قصة أصحاب الكهف المذكورة في القرآن الكريم. رجل هرب من تعذيب محاكم التفتيش الصليبية عند سقوط غرناطة. يفر على متن سفينة إيطالية لينتهي به المطاف نائماً ثلاثمائة سنة وتسعة في كهف بمدينة تسمى بالجملكية، يحكمها ملك طاغية اسمه شهريار بن المقتدر بالله. يلتقي بالحكماء السبعة للمدينة ويشرحون له ما حدث معه.

– "هو ذا أنت ياسيدي العظيم. قطعت النار والقفار واخترت أن ترتاح في هذه الأرض الطيبة. ننتظر قدومك منذ أكثر من ثلاثة قرون. لقد تأخر مجيئك أكثر من تسع سنوات"<sup>2</sup>

<sup>1</sup> – سيمولوجية الشخصيات الروائية، صص 36-37.

<sup>2</sup> – رمل المائة، ص 47.

يظل متمسكا بأشواق المدن المسروقة، ويقف إلى جانب الحكماء السبعة، ويخلصون المدينة من ظلماتها. لكنه لم يستطع البقاء في أزمنة وأمكنة ليست له، فعاد لينام مجددا في كهفه.

البشير الموريسكي رمزية لتاريخ المدن المسلوقة، ورمز للحقيقة والجرأة والثبات والتمسك بالمبادئ. والقراء غير المطلعين على قصة أصحاب الكهف في الكتب السماوية لن يتمكنوا من التفتن لكون شخصية البشير الموريسكي شخصية مستلهمة من مرجع ديني، كما أن تحليلهم لرمزيات هذه الشخصية وأبعادها الدينية والاجتماعية والتاريخية سيكون قطعاً قاصراً وغير شامل.

وشخصية الأمير عبد القادر في رواية (كتاب الأمير. مسالك أبواب الحديد) للكاتب "واسيني الأعرج" التي قدمها لنا الكاتب عن طريق القس الفرنسي مونسينيور ديوش، ومساعدته جون موي. وكذلك عن طريق الشخصية ذاتها، إذ كان الأمير يملئ سيرته على كاتبه، كما كان يدخل في حوارات مع القس، ليوضح جوانب كثيرة من حياته وكفاحه الثوري ضد المستعمر الفرنسي في القرن التاسع عشر.

تقديم الكاتب لشخصية الأمير، ليست ببعيدة عما جاء في كتب التاريخ. من حيث كونه فارس شجاع، وبطل مقدم، زاهد، عابد، حلیم، صادق، سمح، ذكي. مخطط بارع في الحروب. غير أن الرواية ليس من أساسيات إعادة سرد التاريخ، بل تعرية بعض جوانبه المسكوت عنها.

الكاتب قدم شخصية الأمير كرمزية لحوار الأديان، والحضارات. من خلال تسامحه الكبير وحلمه مع أسرى العدو. وصدافته مع القس الفرنسي مونسنيور ديوش.

الأمير حارب الخرافات والبدع، وقانون العصبية القبلية، والغارات على القبائل. وأسس لبناء دولة يحكمها النظام والقانون الشرعي. أقدم على تغييرات جذرية في الحياة والمحيط. أنشأ مدن عسكرية وثقافية محصنة بالحصون والأسوار. ومصانع الأسلحة والبارود والجلود والمدافع. وسلم عددا من مناصب دولته للأجانب والأتراك واليهود، الذين استفاد من خبرتهم في الحروب وتشبيد الجسور والمعابر وتنظيم الجيوش، وصناعة الأسلحة. في إشارة من الكاتب على انفتاح الأمير على الآخر، والتعايش معه، والاستفادة من معارفه وخبراته.

–"عبد القادر، مثل نابليون متدين وهادئ وبسيط في ملبسه ومعشره، حيوي وشجاع وسيد نفسه، صادق وعبد لوعده، ولا شيء يفقده صوابه مثل الكذب والبهتان. مثل نابليون، متفان في خدمة عائلته وبمارس نوعاً من السحر على كل الذين يقربون منه. وسخاؤه أهل لكل مديح."<sup>1</sup>

<sup>1</sup> – كتاب الأمير، ص 552.

الكاتب جعل من القس الفرنسي ديوش هو أكثر من قدم للقارئ شخصية الأمير، وأشاد به. ليرسخ فكرة تقارب الأفكار المحورية بين الأديان السماوية، ورجال الأديان. وليمنح سرده عن الشخصية الكثير من الموضوعية.

شخصية الأمير عبد القادر وشخصية القس الفرنسي ديوش كانتا في الرواية شخصيتين مركبتين، تدور حولهما كل الأحداث. وقد اختارهما الكاتب كأمودجين مناسبين لحوار الحضارات، وتسامح الأديان.

أما من حيث علاقة شخصية الأمير بالمدن، فذكرنا سابقاً أنه في مساره الثوري الممتد لخمسة عشر سنة فقد أسس مدن، وأسقط أخرى.

الأمير أقدم على تأسيس مدن لدولته. محصنة بالأسوار العالية، ومجهزة بمصانع الأسلحة والبارود. فضلاً عن تنشيط الأسواق، وتجارة الحرف والذهب. وإنشاء مكتبات كبيرة لجعلها مدن عسكرية ومدن مثقفة في آن واحد. كما كان دقيقاً في اختيار موقع وطبيعة تأسيس مدنه، على غرار ما فعل مع مدينة تكدامت. مدينة كانت أطلالا، بناها الرستميون في القرن الثامن الهجري. محاطة بغابات البلوط والزيتون. وترتبتها صلبة. وأعاد تأسيسها لتصبح مدينة دولته المركزية.

- "صحيح أن طبيعتها قاسية إذ أن البرودة القاسية تبدأ منذ شهر أكتوبر ولكن موقعها لا يضاهاى. لا نختار الأمكنة هكذا. الذين وضعوني في هذا المكان كانوا يعرفون جيداً الدلالة. كان حلمي أن أجعل منها مدينة حرب ولكن كذلك دار علم وثقافة كما كانت."<sup>1</sup>

بالمقابل فقد حاصر الأمير مدناً كثيرة وأسقطها. وهي المدن التي تمردت على إمارته، ورفضت دفع الزكاة والضرائب. كعين ماضي التي كانت آنذاك مدينة مستقلة، تحت حكم ونظام مقدم الزاوية التجانية. محصنة بالأسوار، وتنعم بالأمان وطيب العيش. لكن كان على الأمير تأديتها لتساهم بأموالها في الكفاح الثوري ضد المحتل الفرنسي. تم تطويقها وحصارها حتى اشتد الجوع بأهلها، ثم مهاجمتها ودك أسوارها بالمدافع.

- "حوت مدينة عين ماضي من كل جهة ومنع الداخل إليها والخارج منها. تم الهجوم على الحدائق المحيطة بها وحرقتها وتدمير أسوار المدينة الواطئة."<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - كتاب الأمير، صص 204-205.

<sup>2</sup> - كتاب الأمير، ص 265.

مدينة عين الماضي، عكست مسار مدينة متمردة. كان مآلها السقوط. فقد استسلم شيخها وخرج مع حاشيته باتجاه وادي ميزاب. أراد الكاتب من خلالها رصد منجزات الأمير الثورية. كما أراد أن يوثق لتاريخ نهايات وانكسارات المدن زمن الحرب.

## (2) شخصيات إشارية:

حسب "فليب هامون" هي شخصيات ناطقة باسم المؤلف أو القارئ أو من ينوب عنهما. كالشخصيات العابرة، وشخصيات لفنان أو رسام أو كاتب. ويرى "فليب هامون" أنه من الصعب الإمساك بهذه الشخصيات. من الشخصيات الملفتة للانتباه، شخصية الطبيب الفلسطيني أمين جعفري والصيدلي الجزائري يونس محي الدين. في روايتي (الصدمة) و(فضل الليل على النهار) للكاتب "ياسمينه خضرا". شخصيتان متقاربتان، كونهما يمثلان نموذجاً لتقبل العدو، والسعي للاندماج معه.

الطبيب أمين جعفري، جراح فلسطيني. ولد وعاش طفولته في مدينة جنين، وعندما كبر وصار جراحاً اختار أن يتخلى عن عشيرته، وينفصل عن أمه. ليقتني بيتاً في تل أبيب، ويشغل في أحد مستشفياتها، حاملاً الجنسية الإسرائيلية، ومذنباً لكل الفوارق والحوازج التاريخية والعقائدية والإثنية والجغرافية بينه وبين الإسرائيليين. لا يرى أن الكفاح المسلح يعنيه، ولا الدماء التي تكفح في سبيل التراب أمر يخصه، كل ما يهمه أن يمارس مهنته، ويحيا في غدق العيش.

– "تخلبت عن عشيرتي، وقبلت الانفصال عن أمي، ووافقت عن التنازل تلو الآخر من أجل تكريس نفسي فقط لمهنتي كجراح"<sup>1</sup>

لا يقف لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء. معتبراً أن البشر والتاريخ آثمين على حد سواء. وأن ما يقوم به الفلسطينيون والإسرائيليون أمر مؤسف ومناف للعقل.

بطل الرواية في نظرنا نموذج للاندماج الناجح نسبياً. رغم المضايقات ومواقف العنصرية التي يتعرض لها أحياناً في تل أبيب. مع ذلك يبدو أنانياً لحد بعيد أيضاً، إذ تنصل من قضية أجداده ومن كل ما له علاقة بهويته وتاريخه. ولخص كل اهتماماته في مهنته. وكان الأجدد لو اختار الحياد، أن يختار أن يكون جراحاً في مستشفيات فلسطينية، بدلاً من أن يكون جراحاً في مستشفيات إسرائيلية. لكنه شخصية سلبية ينظر للحياة من زاوية مادية،

<sup>1</sup> – الصدمة، ص 191.

ولو أن الكاتب كان يحاول إظهار عكس ذلك. تل أيب قدمت له ما تعجز أي مدينة فلسطينية أن تقدمه له من حيث المكانة الاجتماعية والسكن والراتب والأصدقاء، أصحاب المكانة والكلمة العليا في البلد.

إن شخصية الجراح أمين شخصية متمردة عن الهوية الجماعية. منسلخة عن هيمنة الخطاب السائد في الساحة الفلسطينية. شخصية معاكسة لا ترى في الأرض قضية تستحق التضحية. رافضة لسلطة هوية الوطن وهوية الدين وهوية الأعراف والعادات والتقاليد. شخصية صنعت هويتها بنفسها واختصرتها في مهنتها وفي حياتها الخاصة. فالجراح أمين صرح في عدة مشاهد أن الصراع الدموي لا نهاية له. لذلك بحث عن واقع بديل للحياة. فكانت مدينة تل أيب هي المدينة المناسبة في نظره لضمان كرامته. إنه أقرب إلى الفكرة التي أراد تصريفها "عمارة لخصوص" في روايته (كيف ترضع الذئبة دون أن تعضك). جنسية إسرائيلية، ومدينة إسرائيلية ليكون في نظر الآخرين مواطناً صالحاً وناجحاً.

شخصية أمين، شخصية نشاز، تصرخ في الصوت المعاكس للتيار. نشاز وتمرد انبثقا (من إحساس بالحاجة إلى واقع بديل لا يستطيع تحقيقه إلا عبر الانسلاخ عن ثوابت الهوية والمضي إلى أقصى درجات الاغتراب).<sup>1</sup>

هذه الشخصية تخلت عن مقاومتها، وصمودها ضد المحتل، الذي عجزت عن طرده ففضلت الاندماج والتعايش معه، مستسلمة لرغباتها وأحلامها التي لا تراها قابلة للإجهاض في حالة التكيف مع الآخر المحتل والمختلف إثنيا وعقائدياً وفكرياً.

يقول الناقد "حسن نجمي" في هذا: (يمثل الفلسطيني لعجزه ومخاوفه فيتخلى عن صموده ويستسلم لأوامر حياته الداخلية وحدها وإكراهات علائق اجتماعية متعارضة مع ذاكرته ورغباته وتكوينه النفسي والثقافي والاجتماعي).<sup>2</sup>

الكاتب "ياسمينه خضرا" في روايته (فضل الليل على النهار) يقدم نموذجاً مشابهاً لشخصية الفلسطيني أمين. وهي شخصية يونس، وهو نموذج آخر واضح وصريح يعكس التصدع في جدار الهوية الجماعية. وهشاشة الصمود وتيه الذات بين خيارين صعبين، خيار مجابهة العدو أم خيار التعايش والاندماج معه.

<sup>1</sup> - شعرية الفضاء، ص 167.

<sup>2</sup> - شعرية الفضاء، ص 168.

- "لست إلا جباناً. ترفض أن ترى ما يحدث في قرانا التي تقصفها الطائرات بالنابالم، وما يحدث في السجون حيث يشنق أبطالنا، وفي الجبال حيث يموت المجاهدون تحت رصاص جيش العدو، وفي المحتشدات حيث يقبع مناضلونا. ما نوع البشر أنت، جوناك؟ ألم تفهم بعد أن شعباً بأكمله يكافح من أجل إنقاذ أمثالك؟ لم أجبه."<sup>1</sup>

يونس الطفل ابن الفقير الذي وفد مع عائلته لمدينة وهران، يختار له أبوه مستقبلاً مغايراً عن أقرانه من أطفال الأهالي الجزائريين. يتكفل عمه بتربيته مع زوجته الفرنسية، التي تحرف اسمه ليصبح جوناك. يلتحق جوناك بالمدراس الأوروبية، يتعلم الفرنسية ويندمج مع مجتمع المعمرين الأوروبيين. ليصير واحداً منهم. يتخلى تدريجياً عن أسرته. ويكوّن صداقة وطيدة مع شبان أوروبيين.

اندلاع الثورة التحريرية في الجزائر لم تعنيه كثيراً. فقد كان يفضل الحلول السلمية، ويميل للتعايش مع المحتل، الذي يراه ساهم بشكل ما في تعمير الوطن.

مساهمته في الثورة اقتصر على تنفيذه لأوامر بعض أفراد الجيش الجزائري بدعمهم بالأدوية من صيدليته. لكنها مساعدة لم تكن عن محبة. ويظل البطل جوناك متمسكاً برأيه حول الثورة، رغم اعترافه بأحقية الشعب الجزائري في حياة عادلة وكرامة.

قلنا سلفاً أن شخصية الفلسطيني أمين، والجزائري يونس متشابهتان. في تقبلهما للمحتل والتعايش معه. إن هذه المسألة أعمق من كونها شخصيتان عابرتان. إنها مسألة رؤيا وفكر واقتناع ورسالة أراد الكاتب تصريفها للقارئ. تتلخص في كون لكل فرد حرته في اختيار هويته. وهو غير ملزم بتبني قضية ما لمجرد أن الجماعة التي ينتمي إليها قد تبنتها. كما أن الأرض للجميع. وحياة الإنسان أتمن من أن تهدر في سبيل صراعات البشر.

إن مسار الكتابة والوعي لدى "ياسمين خضرا" معقد. إذ أنه يتطرق إلى مساءلة الالتزام بدلا من الالتزام، ومن المجاهدة الذاتية بدلا من المجاهدة لأجل الوطن. (من حقل الانتماء إلى الوطن إلى حقل الانتماء للذات)<sup>2</sup>

بهذا فالكاتب يركز أكثر على الهوية والحرية الذاتية، ويفتت عناصر الهوية الجماعية، كما يهمل سلطة المجتمع وما يمليه من إكراهات إيديولوجية واجتماعية.

<sup>1</sup>-شعرية الفضاء، ص163.

<sup>2</sup>- فضل الليل على النهار، ص247.

الكاتب "الحبيب السائح" في تقديمه لشخصية أرسلان في رواية (أنا وحايم) يقف موقف النقيض مع شخصيات الكاتب "ياسمينه خضرا".

أرسلان بن القايد. من عائلة جد ميسورة، مقربة للمحتل الفرنسي. درس في المدارس الفرنسية، وتعلم في جامعتها. ليتخرج أستاذا في الفلسفة. ورغم حياته السعيدة والباذخة في أسرته، ومدى الاحترام الكبير الذي يتلقاه كونه ابن قايد إلا أنه يتحسر على الوضع البائس الذي يعيشه الأهالي في ظل الاحتلال.

– "اعتقدت لحايم أن ما يوهم بالتعايش بين الأقدام السوداء والأوروبيين من جهة وبين الأهالي من جهة ثانية ليس سوى سراب تبرقشه مصالح الأقلية من أولئك، لحاجتهم إلى اليد العاملة الرخيصة من الأهالي في الزراعة والرعي وتربية الخنازير أيضا"<sup>1</sup>

الحياة المترفة التي يعيشها أرسلان لم تمنعه من التنصل من واجبه اتجاه الوطن. كان عاشقا لمدينة سعيدة، واختار الالتحاق بصفوف المجاهدين في الجبل، اختيارا لا إكراها. كي يحررها من ربة المستعمر الأوروبي.

إن شخصية أرسلان بهذا الشكل تعكس وبوضوح رؤية الكاتب، الذي يجعل من الهوية الفردية نواة للهوية الجماعية. كما يصوغ فكرته عن طريق أرسلان الداعمة للتمسك بثوابت الهوية الجماعية. ورغم أنه في الكثير من أعماله الروائية ك (تلك المحبة) و(تماسخت) و(الموت في وهران) يرفض الحروب، والتناحر، والصراعات الإثنية والعقائدية، ويدعو لتسامح الأديان. إلا أن المقاومة ضد المحتل تأخذ مجرى آخر إذ تعد واجبا لحفظ الكرامة والحرية، وهي تختلف لحد بعيد عن حماقات البشر الموسومة بالإرهاب.

### 3) شخصيات استذكارية:

وظيفة هذه الشخصيات الربط والتنظيم. وهي غالبا ما تقوم بتأويل الأمارات، أو بالتكهن أو التذكير.

يمكن اعتبار دنيازاد والقوالين والوراقين والحكماء السبعة في (رمل المائة) ل "واسيني الأعرج" شخصيات استذكارية. فدنيازاد تعرف سر البشير الموريسكي، آخر من تبقى من سلالة مسلمي الأندلس، وآخر من نجا من فاجعة سقوط غرناطة. جعلها الكاتب محيطة بكل الأخبار المنسية، والأسرار المخفية.

<sup>1</sup> – أنا وحايم، ص 77.

- "كانت دنيازاد تعرف الكثير مما خبأته شهرزاد عن الملك شهريار. فالأسرار والأخبار المنسية كانت تأتيها من القلعة والحقول المسيجة والبراري وأسوار المدينة والحيطان الهرمة التي كانت تدفع أمواج السواحل الهرمة."

تروي حكايته لحاكم الجملكية الملك شهريار بن المقتدر. وتنبأ له بمستقبل مفعج لجملكيته، مما جعل الحاكم شهريار كل ليلة يفكر في قتلها، لكنه يتراجع لسمع المزيد عن سر البشير الموريسكي.

دنيازاد الفاتنة تواصل كل ليلة سرد حكاية البشير الموريسكي، الهارب من محاكم التفتيش الصليبية. بدأت حكايتها العجيبة منذ مأساة ابن رشد الذي نفاه المنصور من قرطبة، وأحرق كتبه. واتهمه بالإلحاد والزندقة. وتواصل سردها حتى طلوع النهار عن أبي ذر الغفاري، الذي نفى هو الآخر مع عائلته في صحراء الربذة.

الكاتب من خلال حكايات دنيازاد للملك شهريار أراد أن يعري هفوات التاريخ. استبداد الحكام بالرعية وبرجال الدين والفلاسفة والعلماء.

إن شخصية شهريار في الرواية، حضرت بشكل أساس لتنبه الملك شهريار أن نهايته قد اقتربت. وأنها ستكون على يد البشير الموريسكي.

القوالون في أسواق المدينة هم أيضا يروون نفس الحكاية. حكاية الليلة السابعة بعد الألف التي طالت، والتي ستحدث فيها فواجع وحروب أشبه بيوم القيامة. ويؤكدون أن البشير قدم من زمن أفل ليعيد ترتيب الأشياء التي فقدت نظامها في المدينة.

الكاتب قدم لنا القوالين في صورة رواة الحكايات العجيبة التي تحمل أسراراً ونبوءات يستعصي على العقل تصديقها. كانوا يملأون الأسواق بحكاياتهم، وعند الغروب يتفرقون، يقصدون المطاعم الصغيرة، يتغذون ويسكرون ويتضحكون. ويعودون للأسواق في يوم جديد ليطمئنون نفس الحكايات.

ومن أبرز الشخصيات التي نسبها الكاتب للقوالين شخصية عبد الرحمن المجدوب، الذي كان يطوف الأسواق مع كلبه وثعبانه، ويغني للرعية أغاني تعري الزيف، وتحلي الحقيقة.

الوراقون، في (رمل المائة) حضروا بصور كاسفة. لا يدونون إلا ما يرضي الحكام الطغاة. يعرفون الحقائق، ويضللون الرعية، ويدونون تاريخاً سطره الطغاة. الكاتب من خلالهم مرر أفكاره الثورية ضد حقيقة تزييف التاريخ. التاريخ يكتبه الأقوياء والطغاة. ومعظم ما سطر عن تاريخ المدن وسقوطها، وقتل العلماء والأبرياء هو زيف وتضليل.

الحكماء السبعة، والذي استلهم الكاتب قصتهم من الأساطير الإغريقية، هم من عثروا على البشير الموريسكي الذي تقاذفته الأمواج إلى الكهف منذ سقوط الأندلس، فنام في الكهف لقرون عدة. هم يدركون أنه مخلص الجملكية من حاكمها الطاغي. كان يروي لهم ما حدث له في غرناطة، وكانوا يفسرون له ما حدث لاحقا معه من أحداث متتالية غريبة.

- "قال له علماء المدينة فيما بعد إنه الكلب قطمير، كما وصلهم ذلك من إحدى روايات حسن البصري."<sup>1</sup>

- "أكد له علماء المدينة على أشياء كثيرة لم يكن يعرفها قبل هذا الزمن."<sup>2</sup>

الحكماء السبعة كانوا ينتظرون ظهور المخلص البشير الموريسكي، يعدون لتاريخ حضوره. بعدما نفاهم الحاكم المستبد شهريار في قلعة في أعلى قمة بالجملكية، وادعى أنهم جماعة من السحرة والسفلة، وأنهم أدياء الحكمة المزيفة.

الحكماء السبعة، هم رمزية للحق الذي يقف صامدا ضد الاستبداد. جعلهم الكاتب شخصية مساعدة للشخصية الرئيسية في الرواية. يفسرون ويحسبون ويخططون. وبفضل مساندتهم للبشير الموريسكي تم القضاء على الحاكم شهريار وابنه قمر الزمان.

هذه الشخصيات الاستذكارية كما رأينا هي شخصيات بديلة عن المؤلف المتحكم. إننا بفضل دنيازاد والقوالين والوراقين والحكماء السبعة استطعنا أن نفهم الأحداث الاستذكارية والاستباقية. إنها بالفعل كما يرى "فليب هامون" (مهمتها هي القيام ببعض "التوقعات" و "التوضيح" و "استشراف للمستقبل" و "الحدس الاستباقي" كما يقومون به بعض أصدقاء الطفولة أو أطباء أو كهنة).<sup>3</sup>

في رواية (تلك المحبة) يوظف الكاتب شخصيتين لعرافتين متناقضتين في مسارهما. بنت كلو وبنت هندل. فأما بنت هندل فهي عرافة يهودية، من سلالة اليهود الأوائل الذين قدموا من الأندلس، واستقروا في صحراء الجزائر بمدينة أدرار. العرافة لها علم بكثير من الخفايا، تستشيرها البتول في معظم أمورهما.

<sup>1</sup> - رمل المائة، ص 43.

<sup>2</sup> - رمل المائة، ص 43.

<sup>3</sup> - سيميولوجيا الشخصيات الروائية، ص 141.

العرفاء بنت هندل تروي تاريخ خراب قصور اليهود، وأخبار محمد التلمساني الذي قطع دابر اليهود، إلا القليل منهم، بعدما عاث كبراًؤهم ومرابوهم فسادا في المدينة. كما أنها عالمة بسر الأعشاب وأخلاطها. وبسر النساء وحكاياتهن. وهي من قارئات الفأل بما أوتيت من الحكمة في علمه. حسب تقديم الكاتب لها.

المتتبع لشخصية العرافة بنت هندل يتضح له دورها الأساسي في الرواية، فهي شخصية مساعدة للبطللة البتول. تؤول لها ما يخفى من الأمور، وتتكهن لها بالغيبيات من الوقائع.

أما بنت كلو فهي عرافة وساحرة، تفشي الأسرار، وتشبع الأكاذيب والفضائح، وترصد بالبتول لتلحق بها الأذى، وتوقع بها، حسدا وبغضا. إنها شخصية معيقة للبطللة.

- "وكانت بنت كلو وعدت بنت هندل مالا وفيرا وجاها كبيرا عند الأسياد إن هي قصت لها من شعر البتول خصلة فأتتها بما فعقدت ببعضها عقدة تطعم منها الخفاش"<sup>1</sup>

- "فوقفت لها بنت هندل في الطريق، قائلة: ((غيرتك من السيدة ليس لها دواء إلا التراب. انظري إلى حالك. توسوس عقلك. وتنغصت نفسك. وتكدر خاطرك. الحساد لا يدخلون الجنة حتى بعد الغفران.))"<sup>2</sup>

الشخصيات الاستذكارية، كما رأينا شخصيات مفوضة من الكاتب. تنوب عنه في سرد ووصف الأحداث، وتكسر من حدة حضوره وتحكمه.

### \*اليهود في المدينة:

اليهودي، ذلك الآخر المرفوض والمجابه غالبا في المخيال الثقافي العربي والإسلامي، لارتباط صورته بالاحتلال والمكر والخداع، والبخل وتكنيز المال، والغدر وخيانة العهد. ورغم وجود بعض النصوص الإبداعية العربية، التي تعاملت معه بخيارات القبول والتعايش، إلا أن حضوره الإنساني لم يتمكن بعد من اختراق النصوص الروائية العربية، وفرض تقبله لدى الكتاب والقراء العرب على حد سواء. خاصة على صعيد الرواية الفلسطينية التي حضر فيها اليهودي (حضورا عنيفا، استفزازيا، مهددا، ثقيلًا ومرفوضًا)<sup>3</sup>

الرواية الجزائرية، هي الأخرى تعاملت مع الحضور اليهودي بالتغيب والطمس والتهميش. باستثناء بعض الروايات التي قدمته في صورة إيجابية كرواية (اليهودي الأخير في تمنطيط) لـ "أمين الزاوي"، ورواية (السلب) لـ "رشيد

<sup>1</sup> - تلك الحجة، ص 100.

<sup>2</sup> - تلك الحجة، ص 106.

<sup>3</sup> - شعرة الفضاء، ص 196.

بوجدره". ورواية (أنا وحايم) لـ "الحبيب السائح". هذه الأخيرة التي سلطت الضوء على يهود الجزائر، معتبرة إياهم جزءا من النسيج الاجتماعي والثقافي والتاريخي للبلد.

كسر الحبيب السائح الصورة النمطية لليهودي الشيلوكي، والمعتصب للتراب، ونأى عن المؤلف في تقديمه لحايم بنميمون، الشخصية الرئيسية الثانية في روايته (أنا وحايم). صديق الصبا والعمر، الذي عاش مع أرسلان بن القايد الجزائري المسلم أجمل أيام حياتهما في مدينة سعيدة. درسا سويا كل مراحل تعليمهما، وعاشا معا متعة مغامرات الطفولة، وتشاركيا ملذات وأسرار وانشغالات الشباب سويا. فكّونا بذلك علاقة صداقة مثالية، تجاوزت كل المصالح المادية والشخصية، وتغلبت على كل مواقف وسدف الحياة، وأقصت كل الاختلافات الإثنية والعقائدية بينهما.

حايم الشخصية التي انتقاها الكاتب بعناية شديدة، والتي قدمها في منتهى الطهر والوفاء والتضحيات. تروي قصة أسرة يهودية وفدت إلى مدينة سعيدة من مدينة الأغواط، واندججت مع سكان المدينة، فصارت جزءا من النسيج الاجتماعي والثقافي والتاريخي للمدينة. رفضت الرحيل إلى فلسطين، كما رفضت الاستفادة من قانون التجنيس، الذي أتاحتها فرنسا لليهود في تلك الفترة. وظلت محافظة على اسمها العبري، وعاداتها وتقاليدها وقيمها التي تشبه إلى حد بعيد عادات وتقاليدها وقيم العائلات الجزائرية المسلمة. فكانت بذلك نموذجا لليهود الفاعلين إيجابا في ازدهار المدينة وبناء مجدها التاريخي.

حرص الكاتب على مدار الرواية على تصوير التشابه والتقارب القائم بين الطائفة اليهودية في المدينة والمسلمين من أهلها، من حيث لغة التواصل والعادات والتقاليد، وطريقة إحياء الاحتفالات في الأعياد وحفلات الأعراس، والأطعمة والأكلات التقليدية، والتقارب الشديد بين أحكام الديانتين الإسلامية واليهودية من حيث تحريم الزنا وشرب الخمر، وأكل اللحم الحلال والحلتان.

- "حيث سبحنا مرة عارين فتكشف لنا ختنا"<sup>1</sup>

- "أجبت أن عائلي مثل عائلة حايم لا تأكلان من تلك اللحوم."<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - أنا وحايم، ص13.

<sup>2</sup> - أنا وحايم، ص22.

- "كان لسان أفرادها مستقيما وسليما في نطقهم الأصوات العربية مثلهم مثل بقية اليهود الأهالي في جهات ومدن أخرى"<sup>1</sup>

حرص الكاتب "الحبيب السائح" على إبراز التشابه القائم بين المسلمين واليهود، هو محاولة منه لجعلنا نشعر بالتعاطف معهم، وتقبلهم كونهم جزءا من المجتمع. كما أراد أن يذكرنا بالتسامح والتعايش الذي اتسمت به سعيدة وباقي مدن الوطن. حتى في الفترة الكولونيالية كان هناك من يؤمن بفكرة التعايش ويدعو لها من الفرنسيين ذاتهم.

- "وكتب على السبورة ما أمرنا بنقله على الكراريس: (المعلم في المدرسة لا يفرق بين تلاميذه. ولا يحايي بعضهم على بعض على أساس الدين أو العرق)"<sup>2</sup>

وحسب ما سعى الكاتب لتأكيدده أيضا، هو أن يهود مدينة سعيدة الكولونيالية كانوا مصنفين في فئة الأنديجان، مرفوضين ومنبوذين من الأوروبيين مثلهم مثل الأهالي. وإن فضل بعض يهود المدينة التخلي عن هويتهم التاريخية والثقافية، والاندماج في المجتمع الأوروبي. والبعض الآخر فضلوا الرحيل إلى فلسطين مثل كولدا صديقة حاييم، فإن فئة ثالثة منهم كعائلة حاييم قد اختارت الجزائر وطنا، وسعيدة مقاما. هذه الفئة الأخيرة هي التي أراد الكاتب تقديمها بأنها تستحق الاحترام والاعتراف بالتضحيات التي بذلتها في سبيل تحرير الوطن.

حاييم نموذج اليهود المخلصين للوطن. سخر صيدليته وأدويتها لعلاج الجرحى والمعطوبين والمرضى من المجاهدين. ووضع نفسه موضع الخطر من المستعمر الفرنسي. وواصل جهاده السري هذا إلى غاية انجلاء آخر عسكري فرنسي من المدينة.

لم يكن حاييم من أولئك اليهود أمثال الموراي مردوخ، الذين يحتكرون الأسواق بتجارتهم، ويؤيدون الأفعال العقابية التي تصدرها الإدارة الاستعمارية بحق الأهالي عند تسليط الضرائب والغرامات عليهم. كان نموذجا للمواطن المخلص، الذي ساهم في ازدهار وتحرير المدينة.

- "هل فيكم واحد مثل السيد حاييم خاطر بجياته ورزقه من أجل أن يصبح الحلم بالحرية حقيقة كما ترونها اليوم؟"<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - أنا وحاييم، ص30.

<sup>2</sup> - أنا وحاييم، ص17.

عمق الصداقة، ومقدار الحميمية التي جمعت بين الصديقين أرسلان وحاييم من ضحك وسباحة في الوادي أيام القيظ، وتراشق ولعب بكريات الثلج أيام الشتاء. وتشاركهما ذكريات وحنين الجلوس على طاولة واحدة في مدرسة جول فيري في أجواء مثيرة، رائحة المداد وطقطقة حطب المدفأة أيام البرد والصقيع. واقتناء الكتب، وتبادل الرسائل والهمسات. والتسكع في الشوارع وارتياح المقاهي والمطاعم وتقاسم الوجبات. تدفعنا لتخيل الحياة في سعيدة، في أجواء أقل ما يمكن وصفها بالأخوية والمنفتحة على الآخر المختلف.

مدينة عاش فيها اليهود بكل طوائفهم بمحبة وسلام، وعملوا على ازدهار تجارتها، وإثراء تراثها، وتحريرها من المستعمر. وصارت اليوم كاسفة حزينة بدوئهم.

في رواية (الديوان الإسبرطي) لـ "عبد الوهاب عيساوي" تجلت صورة اليهودي في المدينة كما عُهدت في التراكمات الأدبية العربية والإسلامية، الناقمة على اليهودي المحتل، الغاصب. والمنفذ والمخطط لأبشع الجرائم الإنسانية. قدمه الكاتب "عيساوي" كمساعد رئيس وفاعل في احتلال الجزائر مطلع القرن التاسع عشر.

صحيح، ثمة إشارة لأنسنة اليهودي والتعايش معه. تمثلت في الجارة الزهرة. لكن مع ذلك هذه الشخصية غير مؤثرة، ولا تخترق النص. بل ولا تؤثر تأثيراً واضحاً في الدفاع عن المدينة.

ميمون أحد يهود مدينة المحروسة، الذي ابتدعه الكاتب لتأنيث نصه التاريخي. كان يُكنّى البغض والحقد للأتراك، ويسعى جاهداً لإزالة حكمهم. يتسم بالجشع والأناية والكذب والخديعة. وعند تعرض المحروسة للمجاعة بسبب الجراد، الذي التهم معظم محاصيل أراضيها، ابتاع كل ما امتدت إليه يده من قمح سهول متيجة، وباعه لتاجري القمح اليهوديين، الذين قاما بتحميله على سفن، وباعاه إلى فرنسا. غير مبالين بسكان المحروسة الذين كانوا يتضورون جوعاً، وغير آبهين بأوامر الباشا العثماني التي تتعلق بمنع بيع القمح خارج المدينة.

اليهوديان، تاجرا القمح وثق الكاتب لهما صنيعهما هذا والذي أقحم الباشا في مسألة الديون مع فرنسا. الأمر الذي تسبب في حادثة المروحة الشهيرة. بين الباشا العثماني والقنصل الفرنسي دوفال. والتي أدت إلى احتلال فرنسا للجزائر.

- "ومنذ أضحى حسين باشا على الجزائر انشغل بقضية ديون الفرنسيين في البدء كانت بين اليهوديين والفرنسيين. (..) كان الباشا يظن أنه بدفاعه عنهما يدافع عن حق المحروسة. أما حين استفاق فقد كان

<sup>1</sup> - أنا وحاييم، ص 226.

اليهوديان قد فرا إلى باريس، وأضحيا مواطنين فرنسيين. ولم يبق للباشا حينها إلا أن يرأس الملك، الذي لم يجبه، وبقي على حاله ساخطا على القنصل حتى أقبل العيد، وحدث ما حدث.<sup>1</sup>

ولم يتوقف لؤم ميمون عند هذا الحد، في التسبب في تفاقم الجوع في المدينة، وفي احتلالها. بل تنكر لأهل المحروسة عند سقوطها في يد المحتل الفرنسي، وتقرّب للقائد الفرنسي بورمون، حتى نصبه رئيسا في مجلس البلدية. وبدلا من أن يرفع تظلمات وشكاوى الأهالي ضد ما كان يقترفه في حقهم الجنود الفرنسيون والمعمرين من سلبهم لدورهم وأراضيهم. كان يطالبهم بدفع المال مقابل ذلك، ثم يتنكر لهم، ويوحد باب البلدية في وجوههم. بل وكان مساندا ومساعدة وموجها للقادة الفرنسيين بأرائه التي بموجبها يختارون أفضل الدور والمساجد لسلبها أو لتحويلها إلى كنائس أو مؤسسات عامة تابعة لفرنسا.

— "هذا الرجل وأشباهه هو من أعان اليهود وأعطى الفرنسيين سببا لاحتلال المدينة."<sup>2</sup>

قدم الكاتب في روايته اليهود في أسوأ صورهم وحالاتهم. التملق والغدر والخبث والذل والخنوع لأجل المصلحة. هذه الصفات المشينة التي اتخذها الفرنسيون سندا في حملتهم لإسقاط المدينة. يقول كافيار أحد جواسيس وقادة فرنسا:

— "ما دام أولئك اليهود بما أعتقد أنه ليس من الصعب احتلال هذه الربوة. ميولاتهم للمال تجعلهم يخدمونا مقابل فوائد دائمة."<sup>3</sup>

إن تقديم "عيساوي" لصورة اليهودي بهذا الشكل، لا ينم على مجرد رغبة في تصوير الآخر اليهودي في صورة كاريكاتورية مشوهة، إذ لم يتعرض لخصوصيتهم الدينية، ولم يسخر من عاداتهم أو من ثقافتهم. بل قدمها كما هي في نصوص بعض المؤرخين، الذين حملوا اليهود أسباب احتلال المدينة، وتنكرهم لأهلها.

في صورة غير بعيدة عما قدمه "عبد الوهاب عيساوي" يتعرض "الحبيب السائح" في روايته (تلك الحبة) ليهود مدينة أدرار. ويحاول أن يؤصل لوجودهم التاريخي والزمني في المدينة. فيعود بنا إلى زمن سقوط الأندلس أتى أخرج اليهود والمسلمين منها فارين من بطش السيوف والمخارق الصليبية.

<sup>1</sup> - عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسرطي، ص 132.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص 211.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، ص 196.

- "لم يكن لأولئك اليهود خروج على وجه أو بسطة ولا سير في منكب من الشتات إلا خسفوا فهاموا عبر البحار وفي الجبال والأودية والأنهار بحثا عن منجى لهم من الصغار لحقهم على يد ملك النصارى الجبار في الجزيرة الخضراء"<sup>1</sup>.

ويصفهم الكاتب بأنهم قوم جبلوا على نقض العهود والمواثيق منذ أجدادهم الأوائل في سبأ وخيبر. استقبلهم أهل أدرار، واعتبروهم من أهل الذمة. وكان بينهم شروط ومعاهدات. فاستقروا هناك، وشيدوا القصور في (توات) و(تيقورارين) و(تمنيط) و(تماسخت) و(تحفيف). ورسخوا وجودهم، ومارسوا الحرف والصناعة والتجارة. وبنوا البيع ووسعوا نفوذهم. ولما تمكنوا تنكروا. وانسلوا تدريجيا من أسمال الذمة، ونقضوا ما بينهم وبين مسلمي المدينة من عهود. وعاثوا في المدينة فسادا، فمارسوا الربا والسحر، واستباحوا أموال ومصالح المسلمين، وعملوا على إذلالهم. ولما زار (محمد التلمساني) مدينة أدرار رفع إليه أهلها تظلماتهم. فجمع (محمد التلمساني) أحرار وأشرف وعبيد المدينة، وذكرهم بدينهم الحمدي، وناظر فقهاءها وناظره في مسألة الذميين. وانتهى الأمر به إلى استباحة دمهم وطردهم من المدينة تطهيرا لها منهم.

الكاتب "الحبيب السائح" عمل على تأريخ الوجود اليهودي في المدينة من جانبه السلي، وسرد قصصا كثيرة تعكس مكرهم وجبلهم على الخديعة والفساد. دون أن يجحف سمات بعض اليهود الطيبين الذين احترمو العهود كالعرافة بنت هندل.

أخيرا، ومن خلال الروايات الثلاثة السابقة، يمكن القول إن الحضور اليهودي في المدن كان في صورتين متباينتين. اليهود الذين عملوا على فساد المدن واحتلالها. واليهود الذين عملوا على إصلاحها وتحريرها.

## 2-2 زمن المدينة

تضاعف اهتمام الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنقاد والباحثين وغيرهم بالزمن منذ القرن العشرين. وتبدى هوس الزمن بصورة جلية في كتاباتهم وبحوثهم. ويرى البعض أن هذا الهوس مرده إلى الإحساس بسرعة سير الحياة، وبالأخص سرعة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، نتيجة تطور الوسائل التكنولوجية، وتنافس البشر على أمور الحياة، وظهور مبادئ ورؤى وفلسفات وقيم جديدة تراحم القيم والنظم القديمة.

<sup>1</sup> - الحبيب السائح، تلك المحبة، فضاءات للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2016، ص28.

من بين أهم الفلاسفة المعاصرين المهتمين بدراسة أزمة الزمن نجد الفيلسوف والعالم الاجتماعي الألماني "هارتموت روزا" ممثل الجيل الرابع لمدرسة فرانكفوت النقدية. والذي رأى في كتابه (التسارع الاجتماعي) أن الشعور بالتسارع الهائل للزمن ولحركة التاريخ يعود إلى منتصف القرن الثامن عشر، مع ظهور القطار والثورة الصناعية. أي أنه نتج عن التسارع التقني على صعيد وسائل النقل والاتصال وغيرها. وولد هذا التسارع التقني تبدلات اجتماعية في أساليب العيش وبنية الأسرة، والنشاطات السياسية والدينية. مما ساهم في ظهور أمراض عديدة، وتهمجات فائقة. وتعاضم في حالات القلق والاغتراب، والإحساس بعدم كفاية الزمن المتوافر.

الباحث "أحمد مندولا" في كتابه (الزمن والرواية) وفي إطار حديثه عن هاجس الزمن في القرن العشرين، رأى أن شعورنا اتجاه الزمن تغير على نحو جذري في القرن العشرين. واكتسب أهمية أكبر مما كانت عليه. وعَد هذا الاهتمام من خصائص حضارتنا، ورأى أنه عن طريق المحدثين من المؤرخين الجدد أمثال بيرك (burke) والشعراء الجدد مثل ويردزورث (wordsworth) انغرس حس زمني جديد تجلّى مثلاً في إدراك شلي (shelly) لديمومة حكم الأسطورة، واستحضار سكوت (scott) للأجواء التاريخية. وأرجع الباحث "مندولا" تطور الإحساس بالزمن إلى الرومانسيين، في حين أن الكلاسيكيين طوروا الإحساس بالمكان.

الإحساس بسرعة وتشظي وتداخل الزمن غالباً ما يصاحب الحياة في المدن خاصة منها العالمية السياحية والصناعية (مدينة سياتل مثلاً في رواية سوناتا لأشباح القدس) عكس الإحساس بالزمن في القرى والأرياف والمدن الزراعية والدينية (مكة المكرمة في رواية طوق الحمام).

هذا وربط الباحث "حسين حمودة" في كتابه (الرواية والمدنية) الزمن في المدينة القديمة بالطبيعة والدين. ورأى أن مواقيت العبادة كالصلوات في المساجد والكنائس والمعابد تنظم جدول أعمال السكان في المدينة، تماماً كما تفعل الطبيعة في تنظيم مواقيت المزارعين في المدن الزراعية. كما رأى أن الروائيين المحدثين تأثروا بما توصل إليه كل من "برجسون" و"آينشتاين" في مفاهيم الزمن.

على صعيد الرواية الحديثة، ظهر اهتمام الروائيين الكبير بالزمن، في نصوص أقرب إلى التشظي والتمزق. خاصة منهم الروائيون الغربيون من أمثال "مارسيل بروست" و"فوكتر" و"فرجينيا وولف" إذ في أغلب أعمالهم (بعث الزمن وأعيد التفكير فيه)<sup>1</sup>.

وعبر الكثير من الروائيين عن تخوفهم من تسارع وتيرة الأيام والشهور والفصول والسنوات، وعن تداخل الزمن وثقله أو تشظيه. حتى أن بعض الفلاسفة كالفيلسوف "بول ريكور" رأى أن الروائيين أحسنوا التعبير عن الزمن، وتفوقوا في طرح أزمتهم ومعضلتهم في أعمالهم الإبداعية أكثر مما قدمه الفلاسفة ذاتهم. فالروائي استطاع حسب (أن يصل إلى أعماق الزمن الإنساني بالقدر الذي لم يستطعه الفيلسوف بخصوص زمن الفلك وزمن العالم الخارجي)<sup>2</sup>

والمتتبع للروايات الحديثة يلاحظ تحلي عدد من الروائيين، المهتمين بالتجديد عن الأسلوب الكلاسيكي في تقديم الزمن (كالزمن في رواية بارداليان لميشال فكتور). فلم يتقيدوا بالترتيب الزمني، وتخلّى بعضهم عن البدايات والنهايات المعروفة لقصص العلاقات الإنسانية (فالبدايات والنهايات في البناء تهيئ الإطار الذي يحدد شكل كل فن زمني، ولكنها لم تعد تنسجم بحق مع البدايات والنهايات التيمية. وهذا يبرر مرة أخرى مشكلة الزمن في الأدب الحديث، تلك المشكلة التي غيرت الرواية وأكسبتها شكلا جديدا)<sup>3</sup>.

على مستوى الروايات الجزائرية، لاحظنا أن الروائيين الجزائريين لم ينشغلوا كثيرا بأزمة الزمن الراهنة، كما لم نعثر على روايات بني فيها الزمن أو طرح بشكل مختلف عميق أو فلسفي، باستثناء بناء الزمن بالأشكال المعروفة المستلهمة من القرآن الكريم والسينما والموسيقى من حيث المونتاج والزوايا والتركيب والإسراع أو الإبطاء، ومن حيث استرجاع الماضي والاستباق، وتقريب الصورة والتكثيف والتلاشي والتنويع في الحركة والسرعة والتوتر والإيقاع والنعمة والموتيف.

مع ذلك يمكن تقسيم الزمن من حيث علاقته بالمدينة في الروايات الجزائرية إلى زمن متعاقب ومتماسك يقوم على تطور الحكمة والشخصيات فيما يشبه سيرة حياة على غرار ما نجده في (أنا وحاييم) لـ "الحبيب السايح"، و(فضل الليل عن النهار) لـ "ياسمينه خضرا" و(سوناتا لأشباح القدس) لـ "واسيني الأعرج". وثلاثية "أحلام مستغانمي" (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير). وإلى زمن متشظ غير متماسك، يتخذ من الزمن موضوعا

<sup>1</sup> - حسين حمودة، المدينة والرواية، نماذج من كتاب الستينيات في مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط، مصر، 2000، ص285.

<sup>2</sup> - أمينة رشيد، تشظي الزمن في الرواية الحديثة، الهيئة المصرية للكتاب، ط1، مصر، 1998، صص7-8.

<sup>3</sup> - أحمد مندولا، الزمن والرواية، تر: بكر عباس، دار صادر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1997، ص14.

وإشكالية وفاعلا في شردمة البناء الشكلي المعماري للرواية، يتجاوز كونه دليلا فحسب على نمو الحدث وتطور الشخصيات. على غرار ما نجد في رواية (رمل المائة) لـ "واسيني الأعرج" و(تلك المحبة) و(ذاك الحنين) لـ "الحبيب السايح".

في دراستنا هذه للزمن من حيث علاقته بالمدينة (المكان) اخترنا ثنائية "محمد ديب" (الدار الكبيرة والنول) كنموذج للروايات التي تعكس تماسك الزمن وتعاقبه. في مدينة تلمسان في الفترة الكولونيالية. ورواية (ذاك الحنين) لـ "الحبيب السايح" كنموذج للرواية التي يتجلى فيها تشظي الزمن وتداخله. في مدينة سعيدة في الفترة ما بعد الكولونيالية.

استعار الكاتب "محمد ديب" اللسان الفرنسي ليفصح عن صبوات الإرادة العربية، وخلجات القلب العربي الجزائري وآلامه إبان الفترة الكولونيالية. فاختر مدينة تلمسان مسرحا لأحداث رواياته، وأسرته عمر وأمه عيني نموذجاً للأسر الجزائرية التي كانت تعاني بؤس الحياة وشقائها تحت وطأة الاستعمار.

ومن أكثر ما يشد انتباه القراء لثنائية "محمد ديب" حرص الكاتب على تحديد زمن وقوع أحداث رواياته. واهتمامه الكبير بالزمن عموماً. بالأيام والفصول وأوقات الساعة تحديداً.

- "في الساعة الحادية عشرة، على أبواب المدرسة نفسها، قامت معركة بالحجارة، وتتابع على الطريق الذي يحاذي أسوار المدينة."<sup>1</sup>

الزمن في مدينة تلمسان بدا متباطئاً. في منأى عن التسارع الذي تعرفه المدن الحديثة في الوقت المعاصر. يشعر الأهالي بتراتبته الطبيعية ومداه في مختلف تفاصيل حياتهم حتى الدقيقة والصغيرة منها.

- "إن الصباح الأدكن ينقضي دقيقة بعد دقيقة"<sup>2</sup>

هكذا وسم الكاتب صباحات شتاء تلمسان. وقد يرجع الإحساس بثقل الزمن إلى قساوة الحياة والفقير. والفراغ الذي يتخبط فيه الأهالي نظراً للبطالة وقلة العمل.

<sup>1</sup> - محمد ديب، الدار الكبيرة، دار الهلال، القاهرة-مصر، دط، 1970، ص26.

<sup>1</sup> - الدار الكبيرة، ص29.

فصول السنة هي الأخرى من الأمور التي حرص على ذكرها ووصفها الكاتب. وقد استحضرها كلها، متعاقبة بشكلها الطبيعي. وبخواصها المعروفة. استهلها بفصل الشتاء بعواصفه وأمطاره وثلوجه، وبرده القارس.

- "ظن الناس أن البرد قد ولى ولكن الشتاء ما لبث أن عاد إلى المدينة عودة مفاجئة، وجعل يجز الهواء بملايين الشفار الحادة. والثلج هائل لا محالة في تلمسان متى انخفضت درجة الحرارة في شهر شباط (فبراير)"<sup>1</sup>.

الشتاء في مدينة تلمسان يحضر بكل قساوته. برياحه الثلجية التي تكنس الأزقة والشوارع، وبنثفه الكثيفة التي تنقل الطرقات والأسقف، وبدرجات حرارته المنخفضة جدا. ولا يجد الأهالي الفقراء ما يواجهونه به إلا كوانين الفحم، ونار الخشب، وأفرشة جلود الأنعام. أما المتسولون منهم، فإن المارة كل صباح مع إشراقة الشمس الأولى يجدون بعضهم في عداد الموتى بسبب شدة الجوع والبرد.

أما الأطفال، ومنهم البطل عمر فإنه يضطر مع رفاقه إلى مداهمة مستودعات الخشب، ليضرموا منها نيرانا تمتد ألسنتها للسماء، ويتدفأون بها.

هذه التفاصيل في وصف ليالي ونهارات الشتاء القاسية تعكس لنا ظاهرة تكاد المدن تفتقدتها حاليا، وهي سمات الشتاء كما سطرها الطبيعة. وكما لم تغيرها يد الإنسان.

الأمطار تتهاطل مدرارا حتى يخيل للإنسان أنها لن تتوقف حتى تغرق المدينة قاطبة. هكذا وصف الكاتب "محمد ديب" الأمطار في شتاءات تلمسان. أمطار تهمز أركان سقوف وجدران البيوت بغزارتها، وهزيم رعودها، وقصف بروقها.

- "كان المطر يهطل بدون انقطاع، وكانت رياح شديدة بعيدة تهمز أركان المدينة"<sup>2</sup>

والشتاء رغم شدة عواصفه، وقساوة برده غير أنه يحمل مع أمطاره وشفير رياحه عذوبة تهدد سكان المدينة. وتبعث في نفوسهم نوعا من المتعة والنشوة.

<sup>2</sup> - الدار الكبيرة، ص 28.

<sup>1</sup> - النول، ص 10.

"سكنت الريح وانقطع المطر. لقد احتضن الضباب المدينة طوال الليل، حتى إذا طلع النهار في غد، كانت شمس فتية تسطع في سماء كانون الثاني. إنها تعلق الشوارع. العربات تجري على الأرض صاخبة. وأغان تنبع من حوانيت الخشب. إن كل شيء يبدو منغمًا، حتى النداء البح الذي يخرج من صدور الباعة المتجولين. ما من شيء كان يدع للمرء أن يتنبأ بعدوبة كهذه العذوبة الفجة"<sup>1</sup>

رغم قساوة الشتاء، فإن الأصوات المنبعثة من الطبيعة تتناغم منسجمة مع أصوات دفق الحياة في المدينة، فتشكل عذوبة للنفس ومتعة.

وأما الربيع، فقدمه الكاتب ببهجته وزهوه المعهود. دفء شمس، وزقزقة العصافير على أغصان أشجار السرو، وتفتق أولى براعم الأشجار. وعبق النوار. ورغم كسوف المدينة وحزن أهلها البسطاء، إلا أن الربيع جمل مآذنها وحدائق بيوتها. وصارت نهارات المدينة مرهفة طيبة، تبعث على النشاط والحركة، ودفق الحياة. الناس والعربات والبهائم تمضي في الطرقات والدروب. متطلعين إلى بشائر الخير مع إشراقة الشمس ونسائم الربيع وزقزقات العصافير.

"ولد الربيع في ليلة. انبثق انبثاقًا مفاجئًا: سيول من الضياء تتدفق بعد ذلك الظلام الطويل. المدينة تفتح رئيتها وقد تخلصت الذي كان جاثمًا على صدرها. أوراق الأشجار عادت تنبت على الأغصان السود التي غشيتها رغبة خضراء. والنهار استرد دفته الجميل."<sup>2</sup>

"الناس يسرون في الضوء الأزغب، وكأن شمس الربيع قد جلت المدينة فبدت نظيفة ملتمة"<sup>3</sup>

الأصل في فصل الربيع أن يجدد الحياة في الأرياف والمزارع والمدن، وفي نفوس البشر ونظام حياتهم. وهذا ما بدا عليه ربيع تلمسان. أزاح بعضًا من شقاء السكان، وأيقظ بداخلهم بشائر الأمل والخير والطمأنينة. كذلك فصل الصيف يحل على المدينة بجزائه الشديدة ورطوبته، وغباره الرمادي، وأسراب حشرات المؤذية، ومساءته الصاخبة أحيانًا، والمهادئة أحيانًا أخرى.

"الصيف يسطع على المدينة، والهواء أنسام خفيفة، والسماء السكرى تسكب دفنًا باهرا"<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - النول، ص 11.

<sup>3</sup> - النول، ص 63.

<sup>1</sup> - النول، ص 81.

لم يكن في المدينة قديماً الوسائل التكنولوجية المعروفة حالياً، والتي ساهمت في امتصاص خواص الفصول وتمايزها، ولعبت دوراً في تشابهاً وتداخلها كالمبردات الكهربائية، والمسخنات والملطفات الغازية. كانت الفصول تتعاقب طبيعياً بشكل متواتر، وكل فصل يحل بكل ما وهبته به الطبيعة من مظاهر ومميزات في الجو ودرجة الحرارة والنباتات والخضر والفواكه والورود والحيوانات والطيور والألوان والأصوات والروائح. وقد برع جداً ووفق "محمد ديب" في نقل هذه الصورة لنا.

إن تكرار مؤشرات الزمن في الروايتين (الليل والفصول) لعب دوراً جمالياً بارزاً. فالليل يتناسب مع قساوة الحياة في تلمسان في النصف الأول من القرن العشرين، كما يحمل رمزيات ثرة كرمزية الظلم والاستبداد والاستبعاد. أما اهتمام الكاتب بتصوير تعاقب الفصول على المدينة فكسر به رتابة السرد، كما أضفى به جمالاً على الحياة في المدينة رغم كآبتها. فضلاً على أنها عكست رتابة الحياة التي يعيشها البسطاء، والذين كانوا يسلمون مآلهم للقضاء والقدر، بدلاً من الانتفاضة والحرب.

أما في رواية (ذاك الحنين) فيظهر جلياً لنا هوس الكاتب بالزمن، بدءاً من عنوان الرواية إلى عناوينها الداخلية وأحداثها وإشكالياتها الرئيسية: (ذاك الحنين)، (أي قادر على قهر الدهر)، (أنت أم الحجر)، (ريق الفجر من غسل الجنة)، (الشتاء يفقد ذاكرته)، (اليوم من أمس في غده آيل إلى الحسرة)، (يوم من أيام الرب الكريم)، (زمن من العشق بعمر الفراش).

يشكو بطل الرواية من التغيرات المحزنة التي تعيشها مدينة سعيدة، المدينة التي كانت باذخة بالجمال العمراني، وبفيض العلاقات الحميمة آلت إلى القبح والتشتت والفوضى. وأفلت كل الآمال التي علقها أهلها عليها. ولعب فيها الزمن عامل المغير والمخرب والمشتت.

–"فديارها لا يزال قرميدها أحمر، ومن حولها نبتت أشجار وحشية من الخرسانة بلون القبلي لا تفهف، يجتاحها هاجس للحطمة وميقات للخوف وأجل للموت"<sup>2</sup>.

يمتد الحنين إلى مدينة سعيدة على مدى الرواية. هي أقرب إلى مرثية لمدينة فقدت معالمها المكانية القديمة، ورونق شوارعها وبيوتها القرميدية العتيقة، وحدائقها وبساتينها المخضرة، وزمنها الهادئ الجميل. تغيرت ملامحها وصارت مدينة كاسفة، حزينة ومحزنة. عمت بالعبث والغش والسحر والشعوذة، وبالعهو واللواط وزنا المحارم. ونخر الجهل والفساد مؤسساتها وإداراتها. وصارت غارقة في زمن متمزق قبيح.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص 137.

<sup>1</sup> - الحبيب السايح، ذاك الحنين، دار الحكمة، الجزائر، دط، ص 33.

- "القلب فيه حنيني محفور لمدينة هرثمت مزولتها، وبلاد أتلّف كنيسته ووجد مساجه ونسي جوامعه"<sup>1</sup>.

- "وأخفى، كم هي مرعبة في سرها المتندري تذكارات تبحث عن زمن ضاع، ولا تزال تشد إليها أهلا ليس لهم فيها غير الأمل والصبر والمنافحة والحلم بالهجرة"<sup>2</sup>.

تداهم البطل كوايس مرعبة، تنغص عليه مضجعه وحياته، ولا يجد إلا الحب واسترجاع ذكريات الماضي ملاذا وملجأ. ذكريات طفولته في زمن المعمرين مع صديقه بلغراب، ولعبهما ومرحهما عند سكة الحديد. وصيدهما للحزونات. وحب الطفولي الأول للفتاة الأوروبية مادلين. الزمن الكولونيالي الذي رغم ما فيه من مرارة كان عامرا بالجمال. ولنا أن نتخيل حسب ما ورد في الرواية كيف كانت سعيدة، مدينة منظمة ونظيفة. بيوتها منسجمة بسقوفها القرميدية الحمراء، وساحتها تفخر وتتجمل بمزولتها العريقة، التي تنظم للناس مواعيدهم وجدول أعمالهم. محاطة بالجبال والبساتين. يمر عليها في مواقيت ثابتة ومنظمة القطار، بين أشجار الصنوبر الحلبي، وخضرة الحلفاء والقنطرة والوادي. كانت سعيدة فيه كما الياقوتة. واليوم ضاع مجدها، ورحلت عنها الأيام الحميمية البهية، ورحل معها الطيبون وسادة الرجال. وتلاشى من شوارعها النظام والجمال، وعصفت بها قلوب حاقدة تعيسة، نكلت ببني جلدتها، وعاثت في المدينة فسادا وطغيانا. وولى زمنها الجميل. قلت أمطارها وندرت حلفتها وخضرتها، واستسلمت لريح القبلي والجفاف. وخيم على المدينة زمن متشظ، ثقيل ومتداخل وأقرب إلى الجمود والسكون.

- "ولا يقابله من البلاد غير شحوبه مستقبلا، وفي صبحه إنما يوقظ جميع الأحزان في جسده المعروك بهاء تاريخه القصير عمر الفراش، المفعم بأزمة فرحه فيها لحظة ربيع غادرت إلى أبدها، واليوم من أمسه في غده آيل إلى نهاية الحسرة والضياع، يستجديه فيه ملل وغربة وبقايا من تذكارات"<sup>3</sup>

في جدلية مطولة يقارن الكاتب بين زمن المدينة الأفل المتماسك والجميل، وبين زمنها الحاضر المعتم والشقي. الباعث على الملل والكآبة. ويتساءل طويلا بحثا عن الحب الصادق والشرف والرجولة والقيم الإنسانية النبيلة. وإطلاقات شرفات المدينة التي كانت مفعمة بالعطر والورد. والفتيات الحسان ذوات العيون الزرقاء، والحلوى والشكولاتة ووجوه بطلة الملائكة. ويحترق شوقا على ما أفل ويتحسر ويكي شاكيا من زمن تنكر لتضحيات أبنائه من الشرفاء. فطمر أحلامهم. وضع مجدهم. وصار الشباب يتخبطون في تبه وضياع. دراسة ثم خدمة عسكرية، ثم عمل أو بطالة، ثم زواج أو جنون.

1- ذاك الحنين، ص 11.

2- ذاك الحنين، ص 36.

3- ذاك الحنين، ص 50.

الرواية في حد ذاتها تبدو متشظية، وغير متماسكة. سردها متشدر، وأحداثها غير متسلسلة. وبنائها الزمني هو الآخر جاء متمزقا في كثير من مشاهدتها ومقاطعها السردية. وظف فيها الكاتب عبارات الزمن والتقويمات بكثافة، مما عكس هوسه الشديد بالزمن: (الليل والنهار، الصباح والزوال والمساء، الشمس والظل، الفصول الأربعة، الساعة والأيام والشهور. الزمن والدهر. وآلات تقويم الوقت كالساعة الجدارية والمزولة). كما صدر روايته بآيات قرآنية واقتباسات تتناول المواقيت والزمن.

الفصول في المدينة فقدت هي الأخرى تراتبيتها وتعاقبها الطبيعي، وتداخلت فيما بينها، وفقد كل فصل خصائصه واستثناءاته. أمطار ورياح الخريف، وثلوج وعواصف الشتاء، ونوار وزهو الربيع، وبحار القموح، ومواسم الحصاد في الصيف.

-"لم يعد الربيع للغرس، وتداخلت الفصول في البلاد، فسحقت الخضرة، ونسي النواش ألوانه، وآل الحوض إلى الفراغ، واختفى الاخضرار من على جنباته، والتهم الدهر مرافقه."<sup>1</sup>

وظف الكاتب نصوصا دينية وأدبية، آيات قرآنية ومقتطفات من سفر التكوين ومن مروج الذهب، وحكم وأمثال، وحكايات شعبية جزائرية كحكاية الغولة وحكاية نجمة خضار. ليعكس مدى ما آلت إليه المدينة من خراب وتخلف، وما أصبح عليه زمنها من تداخل وتمزق.

-"ومن كثافة أتربة القبلي هجينة موحية بالحزن والندم لم تعرفها صباحات البلاد ولا مساءاته إلا منذ أن حقت نبوءة أولاد الغولة يا حضار. ريحة القسري والبسري، ريحة العربي خش الدار"<sup>2</sup>

ضاع حلم الأولين، وجيل الثورة ببناء مدينة تفوق جمالا مكانيا وزمانيا ما كانت عليه زمن المعمرين، وتغشاها الغدر والتخلف. وبدلا من مواصلة التعمير على ما خلفه الأوربيون من مسارح وقاعات سينما ومدارس وبيوت أنيقة وأحياء منظمة وطرق وسكك وقناطر. تم هدم وتدمير ما كان. فخربت معالمها ونهبت حجارة كنيستها، واستسلمت المدينة للجحود. وفقد أهلها إحساسهم بنكهة الزمن ونشوته. وبدأوا يضيعون أسماء أشجارهم وحيواناتهم وماكولاتهم، وصفات المطر والحضر. حتى مزولتها هُرثمت، فتمزق زمنها وتشظى. وفقد رونقه ونكهته وبهجته.

<sup>2</sup>- ذلك الحنين، ص 65.

<sup>1</sup>- ذلك الحنين، ص 75.

- "هنا كانت سوزان، هنا أصبحت عينونة، وهنا كان متحف، وهنا أصبح حماس(..) وهنا كانت القشدة وكانت اللعب والدمى المتحركة، وكان المساء وكان الزوال وكانت العطلة وكان الفرع"<sup>1</sup>.

غاب الجلال والجمال والنظام بغياب الأوربيين والشرفاء من أبناء الوطن، واستسلمت المدينة للتشتت والتناحر، والخيانة، وللأذلين من السفهاء والجهلة. كانت الأحياء للمساجد والمصليات والكنائس، وللقاليق وتشكيلات الحشيش والنوار، وشرفاتها للورد والعمود. وصارت للهجر وللقاذورات وللمعارك بين أبناء الأحياء. وتدهورت كل معالمها، ولم يبق منها إلا نثار آثار مهالكة كصفارة الإنذار التي كانت تعلن عن الحرائق في أيام الصيف القائظة، وعن مواعيد الإفطار في شهر رمضان الحلو، وعن أيام الفرع في المناسبات الجميلة.

حتى مسميات الأماكن في الرواية توحى بالتيه والغياب (قهوة الزلط، بلاصة الحيرة، جبل الموت، بلاد الحسرات..).

قدم الكاتب زمن روايته في شكلين مختلفين، شكل يوحى بتمزقه وتداخله، وآخر يوحى بجموده وتوقفه. إذ مثلما بدت أن الفصول متداخلة، والصباحات والمساعات متمزقة تبعث على الشعور بالتيه والضياع، بدا الزمن أيضا في بعض المشاهد متوقفا ساكنا يبعث على الملل والكآبة. وربط الكاتب توقف الزمن وتشظيه بمزولة المدينة التي تعطلت وهرشمت. بل إنه خصص مقاطع كثيرة يصف فيها حالتها التي آلت إليها.

- "قهرشم المؤشر وبقيت الجداول في مهيب الجحود يحتمتها النسيان."<sup>2</sup>

- "ومنذئذ لم يعد للبلاد زمن فأخطأ مواعيده جميعا"<sup>3</sup>

الكاتب من خلال توظيفه لأسلوب التكرار، أراد التأكيد على ظاهرة الاغتراب التي عاشها المخضرمون، الذين عاشوا طفولتهم ومراهقتهم في فترة الاستعمار، وشبابهم وكهولتهم في فترة الاستقلال. مخضرمون دخلوا في دوامة نفسية حادة. حالات من التوتر والاضطراب والاستلاب والتمزق بسبب فارق الحياة بين حضارتين وتاريخين وثقافتين. وأنظمة وقوانين وأساليب عيش مدينية شديدة الاختلاف. تولد عن هذا الاختلاف الرفض والتثوير والعزلة والكآبة والحنين المتواصل والشديد لكل ما له علاقة بالماضي.

1- ذاك الحنين، ص52.

2- ذاك الحنين، ص86.

3- ذاك الحنين، ص85.

من جهة أخرى أدرك الكاتب أهمية تنظيم المواقيت، التي تعد من سيم الحضارة. لذلك اعتبر أن المدينة كالإنسان لا تحيا بلا زمن. كما لا تحيا بلا ذاكرة. وكرس جزءا مهما من روايته لطرح فلسفته في الوجود والزمن. وفي وصف أجواء الدعارة والسكر وخيانات الحب والصدقة، لتتناسب مع أزمة الزمن وحالات الضياع التي يتخبط فيها أبطال الرواية. كمولى المحنة الذي يتغشاه الحنين لزمن محبوبته مادلين، والصحفي بوحباكة الذي كان يخطط مقالات عن تاريخ البلاد، ويتحرق شوقا وحنينا لزمن جميل أقل. وحمو القط الذي وصف نفسه بالغريب الذي يبحث عن فرح هارب، وعن غياب وحضور، وعن ظل وامرأة.

الكاتب عمد إلى تذكير القراء بأيام الأعياد وبلياي سحور رمضان، أيان الضرب على الطبول لإيقاظ الصائمين، وبلياي الثلج والمطر، ومواسم الحصاد والأكلات الشعبية التقليدية. ليجعلهم يشعرون بمدى الفقد الذي سببه تغير الزمن في المدينة.

— "زمن فقد لونه وغوايته ولبس الانتظار"<sup>1</sup>.

زمن وسم بالجحود والكنود. في مدينة لا تعرف زراعة الورد. فقدت ذاكرتها، وخيبت آمال رجالها الشرفاء. مدينة اجتاحتها الخطيئة والجريمة وسادها المجرمون والسفلة.

هذا الأمر ليس بالجديد في كتابات "الحبيب السايح" وإن كان قد ارتقى بلغة روايته هذه إلى مصاف لم يعهد من قبل في رواياته السابقة كرواية (زمن النمرود). غير أن الفكرة ذاتها تتكرر. هناك نقد لاذع يرافق نصوصه لأولئك الذين اغتصبوا حلم الثورة وبددوه بجشعهم. جحدوا تضحيات الشرفاء من أبناء الوطن، وأنهمكوا البلاد بنهبهم وجهلهم وقصر رؤاهم وبؤس أفكارهم. فضيعوا الحضارة وبددوا مجد الأوائل والأجداد.

يروى لنا الكاتب أيضا مأساة بعض شخوص المدينة، الذين قدموا تضحيات للوطن، فقبولوا بالجحود، وتلاشى حلمهم بمستقبل أفضل. وسمهم الكاتب بالحنينيين كالحامبو الذي خسر أصابعه في مصنع دون تعويض. مايفتأ أن يستعيد أيامه في السجن وهو يصارع البرد والجوع، ويتذكر الشتاءات القاسية للمدينة، وآلام أخته التي باتت تصيح وتتقطع وفي الفجر استسلمت للموت.

هذه الشخوص بدت هي الأخرى متشظية تفتقر للوصف الدقيق والمستفيض لها. في تعمد واضح من الكاتب لإضفاء طابع الغرابة والغموض عليها. كوصف البطل لنفسه، بعدما سأله المحامي عن يكون:

<sup>3</sup> - ذاك الحنين، ص 146.

- "بلا اسم، واسمي ينوره اللوز عند نهاية الشتاء، يطل الربيع ينتظره قبلي، تحتحت نوارات اللوز، بلا مدينة أنا وقلبي المدينة لبلاد بيكيه قلبه، بلا أهل بين بشر هم الأهل وأنا الغريب، أنا ذاكرة الشجر، والحجر تذكاري، أبحث عن بحر.. عن خضرة.. عن غياب، عن حضور، عن ظل وعن امرأة".<sup>1</sup>

ذكرنا آنفا أن الرواية بدت متشظية كزمنها. إذ لا وجود فيها لحبكة محورية أو أحداث مهمة ومتسلسلة. باستثناء حنين البطل على مدار الرواية للزمن الجميل الآفل. وتشكيه من حال المدينة الذي صارت عليه. البطل الذي اختار الهجر والرحيل في النهاية للصحراء هروبا من واقع مؤلم سطرته حماقات البشر، ومن أحزان وذكريات كبر على القلب ثقلها.

أخيرا، يمكن القول بأن "محمد ديب" حمل روايته (الدار الكبيرة) و(النول) قيما زمانية جمالية واجتماعية هامة، عكس من خلالها الزمن الفلكي والطبيعي والتاريخي في المدينة الكولونيالية، زمن هادئ رتيب ومتماسك. كما عكس الحياة الاجتماعية القاسية للبسطاء أثناء الدورة الطبيعية للفصول والأيام في المدينة.

أما رواية (ذاك الحنين) فهي من أكثر الروايات اهتماما بأزمة الزمن، أجاد فيها الكاتب طرحه لرؤيته وفلسفته اتجاه الزمن ومعاناة الذات في رحلة البحث عن الزمن المفقود في تلايب الذاكرة. كما وفق في تقديم علاقة الزمن بالمكان والشخصيات في جدلية عميقة وواعية وجهتها مشاعر الحنين والفقد والصدمة. هذه العلاقة التي أبرزت جماليات النص، وأضاءت دلالاته الخفية والمتوارية.

المدينة في الروايات السابقة لعبت دورا مكثرا للزمن. فتلمسان "محمد ديب" شكلت سلسلة من اللوحات المناخية الجميلة. وسعيدة "الحبيب السائح" شكلت فضاء فاعلا للقلق والاختلال والقبح والفوضى، بعدما كانت فضاء للألفة والحميمية والجمال والنظام.

## 2-3 التشكيل السردى لإنتاج المعنى

اهتمام الروائي الجزائري بمدينته دفعه إلى المتح من عدة علوم وفنون كالرسم والموسيقى والفن المعماري، والتاريخ والفلسفة، وانتهاج استراتيجيات عديدة ومتنوعة لتشكيلها. من بين أهم الاستراتيجيات التي تم رصدها توظيف الألوان والأشكال والأحجام، والاستغراق في سرد التفاصيل الواصفة والمكونة للمدينة، وتوظيف الحواس والحلم وتقنية الاستدكار والتأطير.

<sup>1</sup> - ذاك الحنين، ص 99.

قطعا، فإن هذه التقنيات قد تتداخل، ويمكن تصنيف استراتيجية الحواس والألوان واستخدام المصطلحات الهندسية والمعمارية ضمن شعرية التفاصيل، كما قد يشتمل الحلم أو الاستذكار أو التأطير على كل ما سبق، أو على بعض منه، لكن نظرا لأهمية كل منها، ارتأينا أن نفرّد لكل تقنية مجالا مستقلا لها.

### \*توظيف الألوان:

أدرك الروائيون الجزائريون دور الألوان في كسر رتابة السرد والقراءة، كما تيقنوا أنها تعمل على الجذب والإثارة، فضلا عن أثرها العميق في نفوس القراء، من إثارة أو هيجان أو تهدئة. وفي إضفاء قيم جمالية ودلالية على النص الإبداعي. لذلك فقد لجأ عدد من الروائيين إلى استخدام الألوان بشكل كبير في وصف مدنها.

تماما كما فعل الكاتب "رشيد بوجدره" في روايته (تيميمون) إذ اهتم بتوظيف الألوان بشكل واضح في تقديم مدنيته. بدءا من انطلاق الحافلة السياحية التي يقودها البطل المتجهة نحو المدينة وصولا إلى فندقها. الكتبان الرملية الزعفرانية، وألوان الأفق البنفسجية والصفراء. وألوان مصابيح السيارات والشاحنات التي تتكسر على زجاج نوافذ الحافلة، التي تزرورق باللون الأزرق القاتم وأحيانا بالبنفسجي والبادنجاني بين الفينة والأخرى. إثارة الألوان وتزاحمها تبدأ من بداية الرواية إلى نهايتها. يصف الكاتب مدينة (تيميمون) موظفا ألوانا متنوعة ومتباينة، ما بين نارية صارخة وباردة تضيء على قصور تيميمون جمالا وبهاء يشد الناظرين لها من بعيد:

– "وتأخذني نفس النشوة عندما أنظر إلى تيميمون كلما أكتشفها من بعيد وأنا أقود حافتي. وهي عبارة عن تفاصيل متراكمة بوضوح، فيخال للإنسان أنه يتحطم نظرا لتراكم كل هذه الأحجام الصفراء والحمراء والصلصالية والخضراء التي تنحدر من أعلى إلى فوق، والعكس! فتبرز تدريجيا المدينة الجديدة ثم القصر العتيق ثم الواحة الليانة الفضية"<sup>1</sup>.

الألوان الأساسية الصارخة التي يختارها أهل الصحراء لقصورهم كاللونين الأحمر والأخضر تعمل على اهتداء القوافل الضالة، فتلعب بذلك دور المنارة والعلامة في الصحاري. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾. (فاطر/ الآية 27)

### \*استراتيجية الحواس:

<sup>1</sup> – رشيد بوجدره، تيميمون، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، ط1، الجزائر، 1994، ص78.

لجأ عدد من الروائيين إلى توظيف استراتيجية الحواس في تشكيل مدنهم، وتقديمها مجسدة بكل أبعادها. يقول في هذا الباحث "خالد حسين حسين": (لن يكون للمكان سوى دور ثانوي، ما لم يشيد في الرواية وفق استغلال واستثمار طاقات الحواس للإيحاء بالأبعاد البصرية والصوتية والذوقية واللمسية)<sup>1</sup>.

يصف "الحبيب السايح" سوق لاباسي في مدينة وهران، موظفا حواس الرؤية والشم والسمع واللمس، لإضفاء الواقعية على مشهد السوق:

– "حدث كمال الذي اشترى خليط سمك، عن سوق شارع "لاباسي" في وهران بوحلها وأضوائها، ألوانها وظلالها وصياح باعتها وزحمتها، رائحة القهوة والتوابل، وأكداش الوفرة من الخضر والفواكه، وأنغام الراي المبتدلة، والنساء والرجال في احتكاك(..). وأنواع السمك الأحمر والأبيض والأزرق"<sup>2</sup>.

الروائي "رشيد بوجدره" هو الآخر يدرك أثر توظيف الروائح في تحريك مشاعر المتلقي، وفي إثارته وتخفيفه على فعل التخيل. فيصف حدائق وبساتين مدينة تميمون، جاعلا من الرائحة عنصرا جماليا أساسيا في تقديمها.

– "تعبق روائح عطرة من خلال بساتين تميمون الصغيرة وهي عبارة عن خليط من روائح الخشب المحروق والتربة المبلولة والأقمشة الخنزة والفواكه الطازجة من مشمش وتمر وتين وطماطم مجففة، والمواد التنظيفية من شب وغسول تستعمل لتطهير القنوات"<sup>3</sup>

لنا أن نتخيل جمال المدينة وهي تعبق بروائح بساتينها، رائحة التربة المبللة بماء الري، وعبق الفواكه المجففة، وحدة رائحة احتراق الخشب، ومواد تنظيف الفقارات. روائح منبعثة من الطبيعة، تبدد روائح صحب طرقات المدينة وأسواقها.

<sup>2</sup> خالد حسين حسين، شعرة المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لإدوارد الخراط نموذجاً، مؤسسة اليمامة الصحفية، دط، الرياض، 2000، ص418

<sup>3</sup> الحبيب السايح، تماسخت، فضاءات للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2016، ص162.

<sup>1</sup> \_ تميمون، ص79.

الروائي "طاهر وطار" في روايته (الزلال) أجاد أيضا في تقديم مدينة قسنطينة من خلال عدد كبير من المشاهد ضمنها وصف المدينة بأزقتها ومقاهيها، ومنعطفاتها وجسورها، وحركة المارة والباعة في شوارعها، وشحنها بصخب الحياة والمشاعر والأجواء النفسية، والروائح والأصوات. حتى لا تكاد تشعر بقسنطينة تنبض بين الكلمات. وهو أسلوب درج عليه الروائيون الواقعيون، واحتل أجزاء هامة من أعمالهم. على غرار ما فعل "نجيب محفوظ" و"بلزاك" و"فلوير".

- "واجهته الروائح تسيل في موجاتها. الأدمغة المشوية. المرق. التوابل. ثمر الصبار. صدمته الموحجة البشرية القوية. الضجيج يرتفع بشكل فظيع. منبهات السيارات ما تفتأ تستغيث. الناس كالصم يتحدثون بصوت عال ويكررون الجملة الواحدة أكثر من مرة."<sup>1</sup>

### \*شعرية التفاصيل:

المتتبع لتقنية وصف المدن في الأعمال الروائية العربية والغربية على حد سواء يلاحظ أن الروائيين ينقسمون إلى مجموعتين حسب تقنية الاستقصاء وتقنية الانتقاء. بعضهم يفضلون الوقوف عند التفاصيل الدقيقة، وبعضهم الآخر يكتفي بالخطوط العريضة وبذكر بعض التفاصيل الموحية فحسب.<sup>2</sup>

من يعمدون إلى الوصف الدقيق يرنون لتجسيد المدينة، وبث الحياة فيها، وإضفاء الكثير من الفاعلية والتشويق عليها. بينما من يفضلون الانتقاء يرون أن انتهاج تقنية التفاصيل تحد من خيال القارئ وتقتله.

ومن أكثر الكتاب الجزائريين الذين لاحظنا أنهم ينتهجون تقنية الوصف الانتقائي نجد "محمد مفلح" و"إسماعيل بدير". ومن الروائيين الذين ينتهجون الوصف الاستقصائي الكاتب "واسيني الأعرج" و"الحبيب السائح" و"طاهر وطار".

إن اللجوء إلى تقنية التفاصيل ليست بالمهمة السهلة، فالكاتب يقضي وقتا غير قليل في جمعها، خاصة إذا ما كان بصدد كتابة رواية تاريخية، يضطر صاحبها إلى الاطلاع على تفاصيل الحياة في مدينة ما في تلك الحقبة التاريخية. طرز عمراتها، وأنساقها الثقافية من أدوات ومأكولات ومشروبات وألبسة وأثاث. وحلي وأفرشة. وما إلى ذلك من الأشياء. التي تتيح بحق للمتلقي الدخول في أجواء شاعرية مثيرة، تشعره بانتمائه إلى عالم الرواية.

<sup>2</sup> - الزلال، ص130.

<sup>3</sup> - انظر: سيزا قاسم، بناء الرواية، مكتبة الأسرة، دط، مصر، 2004، ص122 إلى 140.

وإن كان بعض النقاد يعيرون على الروائيين اهتمامهم بالتفاصيل، ويعتبرونها حشواً، وعملاً رتبياً يشعر القارئ بالملل والضجر، فإن بعضهم على عكس من ذلك، يعدونها عاملاً أساسياً في تركيب المشاهد المرئية. يقول الناقد "حسن نجمي" في هذا: (الوقوف عند التفاصيل والتقاطها، الواحد تلو الآخر، يشكلان أداة أساسية لتركيب المشاهد المرئية والإمساك بفاعليتها الجمالية والشعرية في الكتابة الروائية).<sup>1</sup>

عدد ليس بالقليل من الروائيين الجزائريين يدركون القيمة الفنية للتفاصيل الدقيقة والصغيرة. ويُعرف الكاتبان "واسيني الأعرج" و"الحبيب السائح" بهذه الميزة. أي باهتمامهما الشديد بالتفاصيل. فنجدهما يؤثنان مشاهدتهما المدينية بأشياء كثيرة. مقاعد، أرصفة، مركبات، أشجار، أسوار، ممرات ولافئات، آلات، أدوات، لوحات إخبارية. أسواق وساحات ومطاعم ومقاه ومحلات، بكل تفاصيلها الدقيقة من كراس وواجهات زجاجية وطاولات ومزهريات ولوحات معلقة على الجدران. وبضائع متنوعة الأشكال والألوان، وبنائيات وعربات بمجموعها وأشكالها المتباينة. وعيا منهم بأنها تحمل الكثير من الدلالات التي تغنيهم عن الشرح والتوضيح. أشياء تعكس جماليات المدن أو قبورها. تعكس توجهها السياسي والديني، وأنساقها الثقافية. ونوعها من حيث أنها مدينة صناعية أو ثقافية أو زراعية. غنية أو فقيرة. عالمية ومنفتحة على الآخر المختلف أو منغلقة ومحفوظة. عنيفة أو صديقة للطفل والمرأة والبيئة.

فالمدينة بهذه التفاصيل تتجاوز كونها كتلا إسمنتية صماء، إلى فضاء مخترق بدفق الحياة الإنسانية. إن (المدينة ليست فحسب هي التي تتحدث عنها الكتابة بالاسم، ولكنها أيضا تلك التي ينبغي أن نعيد تركيبها من خلال تجميع شذراتها وأجزائها وأمكنثها الواقعية والمنتخيلة).<sup>2</sup>

توظيف التفاصيل إذن هو ضرورة فنية تقتضيها الكتابة الروائية المهتمة بسرد المدن لجعلها واقعا حيا ومثيرا. يتدفق بالحياة والحياة.

### \*الانفتاح على الرسم والموسيقى والأغنية:

عندما نتحدث عن انفتاح النص الروائي على بقية الفنون كالرسم والموسيقى وغيرها، تتداعى أمامنا روايات بعينها، انتهج فيها أصحابها استراتيجيات محدثة ومختلفة في تشكيل مدغم. وتحديد معالمها وملاحظها ودلالاتها الرمزية.

<sup>1</sup> - شعرية الفضاء، ص 141.

<sup>1</sup> - شعرية الفضاء، ص 145.

رواية (سوناتا لأشباح القدس) لـ "واسيني الأعرج" الذي نبعت قيمة روايته الفنية، من خلال قدرته على استدعاء المدن ووصفها عن طريق اللوحات الفنية التي ترسمها بطلته الفنانة الفلسطينية مَي، ومن خلال مقاطع الموسيقى التي يؤلفها بطله الموسيقي يوبا، ومقاطع غنائية كانت ترددها مَي.

عناوين اللوحات الفنية التي انتقاها الكاتب توحى بدلالات ثرة، فضلا عن تفاصيل ما جاء فيها. كلوحة 'ذئب في هيئة حمل' و'فراشات القدس' و'شرفات أورشليم'. لوحات عكس الكاتب من خلالها مدينة القدس المحتلة. ذئاب بعيون نارية، وأفواه كثيرة ومفتوحة تعوي وتنتظر قدوم الليل لتهاجم على قبة الصخرة المحاطة بأسلاك شائكة. وفراشات ملونة جميلة تحوم حول فجوات حيطان القدس. تبعث بالأمل والفرح المرتقب.

- "أسلاك شائكة، في عمقها لا تكاد قبة الصخرة تظهر، إلا قليلا، على الحواف، أفواه ذئاب كثيرة، مفتوحة عن آخرها وكأنها تعوي جوعا وتنتظر مجيء الليل"<sup>1</sup>.

هذه الذئاب التي تترصده بقبة الصخرة ليست إلا الاحتلال الإسرائيلي، الذي اغتصب الأرض وشتت التاريخ والهوية. وأما لوحة شرفات أورشليم، فعبر عنها الكاتب بعمق، قدمها في صيغة أزمة وجرح يأبى أن يندمل. تقول البطلة أن الألوان استعصت معها في هذه اللوحة. انتفت الألوان الجميلة منها، وروائح الياسمين ومسك الليل، التي كانت تملأ شرفات القدس ودروبها وأحيائها، بعدما اغتصبت وضمت إلى حيطان الحي اليهودي.

وأما الانفتاح عن الموسيقى يتجلى بدءا من عتبة العنوان (سوناتا). البطل يوبا يحاول تأليف نوتات موسيقية لأجل إدخال السعادة لقلب أمه المكوم، ولإستعادة ذاكرة مدينة مسروقة ومنتهكة.

اهتمام الكاتب بالموسيقى والموسيقين، ومعرفته بهذا الفن كانت جلية وواضحة. استحضر عن طريقه مدن لها وقع في الذاكرة والتاريخ الإنساني والعربي الإسلامي، روما والقدس والأندلس. كما استدعى موسيقيين عالميين ليجعلنا نعيش متعة ولذة التخيل معه كالموسيقار العالمي "سيباستيان باخ" والموسيقي الإيطالي "غوسيبي فرديني" والموسيقي الإسباني "خوسي ماجيكا". كما ضمن مشاهدته تفاصيل وإحالات تشرح للمتلقي فن الموسيقى ونوتاته، ومصطلحاته.

- "تذكر يوبا حركات سيباستيان باخ الذي كثيرا ما كان ينهي لافويقي بالانتظام نفسه خصوصا عندما تكون السوناتا على وقع لا ميينور"<sup>2</sup>.

<sup>2</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص 318.

<sup>1</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص 47.

الأغنية أيضا كانت وسيلة اتخذها الكاتب في تقديم مدينته. داحضا بذلك فكرة ابتدائها عند البعض، وجاعلا منها ملفوظا مهما يوازي التقنيات الرئيسية في الرواية. ملفوظ ينشط الإحساس، ويثير الأفكار والأشواق خاصة حول المدن المفقودة كمدن فلسطين والأندلس.

-"آه... يا أسفي على ما مضى.

من ذاك الزمان اللي فات وانقضى..

آه يا فرقة الديار، ديار الأندلس"<sup>1</sup>

هذا وسعى "جيلالي خلاص" في تقديم مدينته في (حمام الشفق) إلى النأي بعيدا عن عمليات الوصف التي يقتضيها البناء الروائي التقليدي، فاختار أبطال روايته بدقة، رساما ومهندسة معمارية. وهو ما يتناسب مع طرحه الحديث في وصف مدينته التي فضل أن يقدمها للمتلقي بتقنيات مختلفة أهمها تقنية الرسم.

الفنان التشكيلي جميل بطل من أبطال الرواية، الذي كان يطمح مع محبوبته جميلة، وأبيها إلى تغيير وجه المدينة من مدينة عيفة إلى مدينة تسع الجميع، وتحتضن الفقراء والمقصيين. اختار البطل أن يجابه استبداد جلاوزة المدينة بالفن التشكيلي، الذي رأى فيه سبيلا للتوعية والمجاهمة.

الكاتب -عن طريق بطله- قدم مدينته في لوحات فنية جميلة ملأى بالألوان. كاللوحه التي سماها 'بياض' والتي حسب وصف الكاتب لها تصور مدينة بيضاء مطلة على بحر، ترسو سفن شراعية على شواطئها، وطيور النورس تحوم فوقها. وهي ذاتها المحروسة، المعروفة ببياض جدران بيوتها وأسوارها. ولوحة 'الحدب' التي عكس من خلالها موقع المدينة، إذ شيدت على مكان محدودب، على مشارف قمة جبلية. ولوحة 'الي خرج منا ما يعود إلينا' وهي اللوحة التي تجلى من خلال تقاطيعها هندسة الأقواس التي تعد سمة من سمات عمران المدينة، وتاريخها الإسلامي. كذا لوحة 'مصارين' قدم الكاتب من خلالها أعتق حي بالمدينة، حي القصبة العريق.

-"هي لوحة ((مصارين)) بتشعباتها وتعرجاتها وتلافيفها المتداورة المتحلزنة"<sup>2</sup>

الكاتب بانتهاجه لتقنية توظيف الرسم استغنى في كثير من المقاطع السردية على وصف مدينته، واكتفى بتقديم لوحات أبطاله في الفن التشكيلي. ومنح فرصة التخيل والقراءة، وتفجير الدلالات لقارئ روايته.

<sup>2</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص28.

<sup>2</sup> - جيلالي خلاص، حمام الشفق، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، ط2، الجزائر، 2001، ص36.

هذه التقنية في نظرنا تكسر رتبة السرد، وتثير القارئ بخرقها للمألوف والعادي.

### \*التأطير:

تعد تقنية التأطير واحدة من الأدوات التي يلجأ إليها الكتاب عند اشتغالهم بتفاصيل الفضاء عموماً. ويظهر التأطير في صيغة لوحة فنية أو مشهد على مرآة، أو كوة أو نافذة مفتوحتين على مشهد ساكن. أو صورة فوتوغرافية.

ويعد فن الفوتوغراف من بين الفنون المهمة التي تتقاطع مع النصوص الروائية كثيراً. وقد أدرك أهمية هذا التقاطع وجماليته عدة روائيين كـ "رجاء عالم" و "سحر خليفة" و "طاهر وطار".

فالصورة الفوتوغرافية وإن بدت ساكنة وهامدة، فهي في واقع الأمر تعج بالحركة والعواطف، والخيالات والاستدكارات. وتفتح مجالاً واسعاً واثراً للدلالات. إنها قادرة على قول ما لا تستطيع اللغة قوله، والنفاد إلى القارئ، لتسره أو تكدر مشاعره. لذلك لجأ إلى توظيفها بعض الروائيين. إنها أداة فنية ذكية تختزل الكلمات. وتفتح الأفق واسعاً أمام القارئ. وهي وإن كانت تشعرك في الواقع (بفوضويتها، ومصادفاتهما، وبعموضتها، وأنها فن يفترق إلى اليقين)<sup>1</sup>. فهي بلا شك تقول الكثير في التاريخ والثقافة وعلم الجمال. سواء في الواقع وهي معلقة على الجدار، أو محفوظة في ألبوم صور، أو موظفة في نص روائي.

- "لفت انتباه الشيخ بو الأرواح صورة معلقة في الجدار، فاقترب منها ليتبين أصحابها. ولشد ما كانت دهشته كبيرة حين وجدها للشيخ بن باديس محاطاً بالشيخين التبسي والإبراهيمي"<sup>2</sup>.

- "قابلته صورة ضخمة، في إطار مذهب، فتناهض وتقدم يتفحصها. بلباي في أيام عزته وعظمتها محاطاً بجماعة من كبار ولاية قسنطينة الكبرى، باشاغوات وآغاوات وقياد ونواب وموظفين سامين. أنوار ثرية ضخمة تتلألأ، منعكسة على ملاعق الفضة، وكؤوس البلور، ومزهريات النحاس"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - Roland Barthes, La chambre Claire, note sur la photographie, Editions de l'Etoile, Gallimard, Le Seuil, Paris, 1980, P17.

<sup>2</sup> - الزلزال، ص 29.

<sup>3</sup> - الزلزال، ص 30.

الصورتان هنا تعكسان الوضع الاجتماعي والثقافي الذي كانت عليه مدينة قسنطينة إبان الاحتلال الفرنسي. صورة تشي بعمق ما فقدته المدينة التي كانت قبلة للعلم والعلماء. وهما صورتان لم يشكلهما الكاتب اعتباريا، أو مجرد التوظيف الجمالي فحسب، بل هو تشكيل ذهني مهم، ثبت من خلاله الكاتب الماضي الجميل للمدينة. ماض مندثر مفقود، يدفع من خلاله المتلقي للتساؤل والاستغراق التأملي، بل وبالشعور بالفقد والأسى. هو الشعور ذاته الذي جعل من البطل يرى أن هؤلاء العلماء، وهذه الطبقة البورجوازية هي الشعب الحقيقي للمدينة وللوطن، وليس أولئك المتسولون، أو الوافدون من الأجانب والرعاع. إنها تقنية ممتازة في نظرنا توظف الإحساس والفكر. توفر للكاتب والمتلقي على حد سواء (إمكانيات للإمساك بالزائل، للتحكم في المنفلة وتقييده في إطار الصورة)<sup>1</sup>.

وهي تقنية محفزة للقارئ النابه، تدفعه لصوغ مشاعره ورؤيته، وتثيره لتفجير المعاني الكامنة، التي رفض الكاتب التصريح بها وأودعها مؤطرة في صورة فوتوغرافية. إنها تعمل على الجذب والإثارة. كما تحيي بزمنها ومكانها الآفلين العواطف. وتدفعنا إلى تعليق القراءة، والتفكير بعمق. (لا بوصفها سؤالا (مبحثا) لكن بحسبانها جرحا أرى، وأشعر، ومن ثم ألاحظ، أتطلع وأفكر)<sup>2</sup>.

ورغم الأثر الجمالي البارز والمهم الذي تحققه الصورة الفوتوغرافية في النص الروائي، فإن قلة قليلة من الكتاب الجزائريين من لجأ إلى هذه التقنية.

### \*توظيف عناصر الطبيعة:

لم تكد تخلو رواية في وصفها للمدينة من توظيف عناصر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم، وليل ومطر، ومن حدائق وأشجار وجبال، وبحر وأثمار وشواطئ. الأمر الذي صبغ صورة المدينة بكثير من الجمال والإثارة. وهو في نظرنا أسلوب محبب في الكتابة من شأنه أن يبعد الرتابة والملل عن القارئ، ويحفز ذاكرته على التخيل. على غرار ما نجد في روايات "الحبيب السائح" و"محمد ديب" و"واسيني الأعرج" و"رشيد بوجدره" و"أحلام مستغانمي" و"ياسمينه خضرا" و"جيلالي خلاص".

1- شعيرة الفضاء، ص121.

2- La chambre Claire، Roland Barthes، p42.

ويجدر التنويه أن المدن الصحراوية كتيميمون وغرداية، والمدن الزراعية كسطيف والمدية، والمدن المشيدة على صخور وجبال كقسنطينة هي المدن الأكثر تداخلا مع الطبيعة، عكس المدن الصناعية والتجارية الكبيرة.

حرص الكاتب "رشيد بوجدره" على نقل صور غروب الشمس في مدينة تميمون بصورة مثيرة للدهشة. أسراب العصفير المتجهة نحو أوكارها بين النخيل، والعضائيات التي تبدأ في الخروج والانتشار على جدران الفندق وأسقفه، والشمس التي ما تفتأ تنزلق بعيدا خلف الأفق، وبيان القمر رويدا رويدا في السماء تزامنه حمرة النجوم والكواكب.

- "كانت الظلمة تعم بستان الفندق بتيميمون، تدريجيا وبطريقة بهيجة يتخللها شيء شبقى الاستنشاق. بان الأفق بعيدا وقريبا في نفس الوقت، تكاد تمسه أصابع السواح وكأن الشمس سقطت فجأة وراء جدران الحديقة ثم وراء أسوار القصر، ثم وراء أشجار النخيل".<sup>1</sup>

قسنطينة هي الأخرى مدينة تداخل عمرانها مع الطبيعة. الصخور والمنحدرات والأنهار والروابي الخضراء حتى غدت كلوحة رسمها فنان. يصفها "طاهر وطار" قائلا:

- "عمارات متصاغرة، ثم فيلات تتزاحم، محاطة كلها بأشجار خضراء، وسط حدائق تصغر كلما انحدرت نحو الأسفل، ثم هضاب جرداء، حتى الحي المثلث، يمينا ويسارا".<sup>2</sup>

استحضار عناصر الطبيعة في مدن الرواية الجزائرية هو امتداد للطبيعة في المشهد الحضري، وهو توثيق لجمالية هذه المدن، التي يمكن وصفها بالمدن الخضراء أو المدن الصديقة للبيئة.

### \*توظيف التاريخ:

لم تكن علاقة الرواية بالتاريخ علاقة عابرة أو عرضية، فقد ارتبطت الرواية غالبا منذ ظهورها بالتاريخ، على غرار رواية (دون كيشوت) الساخرة من تاريخ فروسية العصور الوسطى، وروايات "السير والتر سكوت" التاريخية، وروايات الفروسية لـ "ألكسندر دوماس". كما نجد أيضا الرواية العربية التي اقتترنت في بدايتها بالتاريخ كروايات "جورجي زيدان" و"أبو الثناء الألويسي".

غير أن علاقة الرواية بالتاريخ في العصر الحديث تغيرت، فلم تعد الأمانة التاريخية أمرا مطلوبا، ولا هاجسا يشغل الكتاب. بل صارت الرواية تمتح من التاريخ، دون مراعاة للأمانة والحقيقة. فيستدعي الكتاب أحداثا

<sup>2</sup> - تميمون، ص 67.

<sup>1</sup> - الزلزال، صص 56-57.

وشخصيات ومواقف من التاريخ. ويعيدون صياغتها بأساليبهم الخاصة، لإسقاطها على الأحداث والقضايا الراهنة.

وما يهمنا من هذا الأمر هو كيفية استغلال وتوظيف الكاتب الجزائري للتاريخ في تقديم وبناء مدينته التاريخية. من الروايات الجزائرية التي عرضت للمدن في حقب تاريخية متعدد نجد رواية (المائدة) للكاتب "محمد مفلح" الذي عرض لمدينة وهران، عندما كانت تحت حكم الغزو الإسباني في القرن الثامن عشر. و"عبد الوهاب عيساوي" في روايته (الديوان الإسبرطي) الذي قدم فيها قصة سقوط المحروسة على يد جنود الغزو الفرنسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ورواية (كتاب الأمير) لـ "واسيني الأعرج" الذي قدم فيها مدن فرنسية وجزائرية في القرن التاسع عشر. ورواية (أنا وحاييم) لـ "الحبيب السائح" الذي وصف فيها عدة مدن جزائرية كالجائر العاصمة ومعسكر وهران وسعيدة فترة الاستعمار الفرنسي.

في روايته (كتاب الأمير) نقل "واسيني الأعرج" مقاطع وصفية متعددة لمدن أوروبية وجزائرية في القرن التاسع عشر. وأجاد في تقديمها، مرتكزا على معرفة تاريخية كافية جمعها عن حالة المدن في تلك الحقبة، من حيث الوضع الاجتماعي والسياسي والعماري والثقافي، فاستطاع بذلك أن يسافر بالمتلقي لعوالم تلك المدن.

- "انطلقت العربية بسرعة مخترقة الدروب الباريسية الضيقة قبل أن تدخل في عمق الشارع الرئيسي. الحصان كان ثقيلًا قليلاً، لكن ثقله في مثل هذه الأمطار يساعده على الثبات ومقاومة الانزلاقات الكثيرة على الطرقات الحجرية والخروج من الأماكن الموحلة والبرك المائية التي كانت تصادفهما من حين لآخر في الأماكن المبعوجة. لا شيء يسمع إلا وقع الأمطار وصوت حدودي الحصان وهو يعبر الشارع بخطوات منتظمة"<sup>1</sup>.

أجاد الكاتب في نظرنا في نقل صور عديدة للمدن في تلك الحقبة. كمدينتي باريس ومارسيليا، ومدينتي مليانة ومعسكر، هذه الأخيرة التي أفاض في وصف عمرانها وأسوارها وأبوابها المحصنة بالمدافع، وأسواقها المزدهمة بالباعة والبراحين والقوالين الذين ينقلون إلى الناس الأخبار، ويقصون عليهم قصص طريفة.

الإفاضة والدقة في وصف مدن في أزمنة مضت هو انعكاس لحداقة الكاتب، ولإدراكه الواعي بأن العودة إلى تاريخ هذه المدن هو إضافة هامة للمعنى، وإضاءة جادة للفعل الحكائي. وإذن فالعودة إلى المرجع التاريخي لتقديم مدينة ما، هو ضرورة فنية لنقل صورة متكاملة وممتلئة للمتلقي. هذه الصورة التي أخفق عدد من الروائيين في نقلها

<sup>1</sup> كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، ص 27.

إلى المتلقي، كالكتاب "محمد مفلح" في روايته (شعلة المائدة). والذي اكتفى فيها بالتعرض السطحي والسريع في وصف معارك المدن، وطرز عمراتها. وحركة أهلها التجارية والملاحية والزراعية.

### \*أنثى المدينة:

نعني بالأنثى هنا، تقنية إضفاء صفات الأنثى على المدينة. أي مخاطبة المدينة والتعامل معها وكأنها امرأة. وهي تقنية شبيهة تماما بتقنية أنسنة الأمكنة والحيوانات والظواهر الطبيعية. وتعد من الوسائل (التي يوظفها الأدب لإضفاء السمة الجمالية على النص الأدبي، بما تمتلكه من قدرة على الابتكار وتكوين عناصر جديدة تنسجم مع ما يريد الأديب التعبير عنه، وذلك بكسر المألوف والمتعارف عليه ورؤية العالم من خلال منظور جديد).<sup>1</sup>

تطالعنا من بين النصوص الروائية الجزائرية التي اعتمد فيها أصحابها هذه التقنية رواية (ذاكرة الجسد) التي تحضر فيها مدينة قسنطينة في بعض المشاهد في صيغة امرأة معشوقة. ورواية (حمائم الشفق) التي كثيرا ما خاطب فيها صاحبها مدينة الجزائر بصيغة المرأة الجميلة. ولعل أكثر الروايات التي تماهت فيها المدينة بصفات المرأة رواية (تلك المحبة) التي تواشجت فيها مدينة أدرار بالبطلة البتول.

استطاع الكاتب "الحبيب السائح" أن ينشئ علاقة حية ومتدفقة بالغرابة والجازبية والجمال والمثالية بين بطلته البتول، المرأة التي تتزعم مدينة أدرار، والتي تماهى في وصفها بالجمال الأخاذ، والمثالية المطلقة.

ومدينة أدرار التي صبغها بالعقلنة. أراد الكاتب حملنا على محبة المدينة التي احتوته في منفاه الاختياري زمن العشرية السوداء. المدينة التي علمته سحر الحرف. فواشج بينها وبين البتول في مشاهد أقرب إلى الغرابة. مشاهد شحنها بمناخ وجداني يفيض رقة وعشقا.

وعمد في تقديمه للمرأة الرمز والمرأة البشر أن يداخل بينهما. رغبة منه أن يوقظ محبة أدرار في قلوب قارئها. إيماناً منه بعراقة هذه المدينة، وراثتها الروحي والأنثروبولوجي والتاريخي.

<sup>2</sup> - حسين مجيد حسين، أنسنة المكان في رواية وليد حبيبي، مجلة قه لاي زانست العلمية، أربيل، كوردستان، العراق، مج 3، ع4، خريف 2018م.

–"أنفتح لك كتاب محبة محبوبا بين ضلوعي تقرئين فيه بحرف الماء وصوت الرمل ما كتبه النور في عيني لأرى رقوم وجهك الجميل(..) وأن تكوني وحدك المرأة واهبة الحياة في الصحراء وباعثة الغيرة في صدور النساء وناشرة الفتنة في دولة الأيام ومفتقة الغواية في قلوب الرجال".<sup>1</sup>

المتتبع لرواية (تلك المحبة) يدرك بسهولة علة أنثنة الكاتب لمدينة أدرار. لقد سعى إلى تجسيد نزعتة العاطفية ورؤيته لجماليات هذه المدينة من خلال خرقه للأسلوب الكلاسيكي في تقديم تاريخ المدن ونظمها الثقافية وتحولاتها عبر الأزمنة. محققا بذلك فعل الإثارة والغرائبية والإدهاش.

تداخل حب النساء بحب المدن أيضا في الكثير من مشاهد رواية (ذاكرة الجسد) وتمثلت مدينة قسنطينة في صورة البطلة أحلام معشوقة البطل خالد بن طوبال. وتنازعت البطل مشاعر الحب والحنين لكلتيهما. فكلاهما، أحلام وقسنطينة احتلتا قلبه. وكانتا معشوقتين استثنائيتين في حياته. يملان ذاكرته، وهويته، وكثيرا من خيالاته.

–"كنت أشهد تحولك التدريجي إلى مدينة تسكنني منذ الأزل.."

كنت أشهد تغيرك المفاجئ، وأنت تأخذين يوما بعد يوم ملامح قسنطينة، تلبسين تضاريسها، تسكنين كهوفها وذاكرتها ومغاراتها السرية".<sup>2</sup>

بهذه التقنية التي اعتمدها بعض الروائيين الجزائريين في تقديم مدنهم، فإنهم قد تجاوزوا كل منطوق للواقعية، وانتهجوا التجديد في الكتابة، لمنح مدنهم روحا ودفقا من الحياة. ولجعلها تشاركهم تفاصيل سعاداتهم الصغيرة، وقهر خيالاتهم المتكررة.

<sup>1</sup> – الحبيب السائح، تلك المحبة، فضاءات للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2016م، ص25.

<sup>1</sup> – أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط30، بيروت-لبنان، 2013م، ص141.

## الفصل الثالث

### جماليات المدينة وعنف الحياة

#### المبحث الأول: جماليات المدن

#### المبحث الثاني: ديستوبيا المدينة العنيفة

## المبحث الأول: جماليات المدن

## 1-1 معالم المدن

اهتم عدد من الروائيين العرب بذكر أهم معالم المدن، رغبة منهم في تخليدها، ووعيا منهم بأن هذه المعالم تمثل الذاكرة التاريخية للمدينة، وهي جزء مهم من هويتها القومية والثقافية، على غرار ما نجد في روايات "نجيب محفوظ" في تخليده للجامع الأزهر، والكثير من الأحياء العريقة في القاهرة. وتوثيق الأهرام في أعمال "جمال الغيطاني"، والحرم المكي والنبوي، وجبال مكة وأسواقها في نصوص "رجاء عالم".

في الرواية الجزائرية، رصدنا عددا كبيرا من الروائيين الجزائريين الذين أقدموا على توثيق معالم المدن، كـ "أحلام مستغانمي" في ثلاثيتها (ذاكرة الجسد، وفوضى الحواس، وعابر سرير)، والتي تطرقت فيها لجمال وعراقة جسور قسنطينة. و"عمارة لخصوص" في روايته (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) والتي جاء فيها على ذكر عدة معالم تتميز بها إيطاليا كساحة فيتوريو وساحة كامبو دي فيوري. و"واسيني الأعرج" الذي وثق لعدة معالم محلية وعالمية كقصر لالة خداج، ومقام الشهيد، وحديقة الحامة، وتمثال الحرية. و"الحبيب السائح" في روايته (تلك المحبة) و"الصديق الحاج الزيواني" في (مملكة الزيوان) واللذان وثقا فيهما لقصور مدينة أدرار. و"عبد الوهاب عيساوي" في (الديوان الإسبرطي) التي اتخذ فيها من حي القصبة العريق مسرحا لأحداث روايته التاريخية.

هذه المعالم والمتمثلة كما ذكرنا في صروح وبنائيات وتمائيل وأطلال موعلة في العراقة، وفي حارات وأزقة وأحياء وقصور تراثية عتيقة. اتخذ منها الروائيون نصوصا مفتوحة قابلة للقراءة والتأويل، تعكس المنظومة التاريخية والاجتماعية والثقافية للمدن. تتجاوز كونها مجرد كتل صماء للسياحة إلى كونها جزء مهم من ذاكرة وهوية الأمم.

ومما رصدناه من معالم أثرية عريقة في الرواية الجزائرية، ذات الأبعاد التاريخية والثقافية والفنية محلية وعالمية:

## \*قصر كوردان:

أعاد الكاتب "الحبيب السائح" بعث قصر كوردان بمدينة الأغواط. ووصفه وصفا جميلا، بكثير من التفاصيل المعمارية الهامة، التي تعكس عراقة القصر، وجماليات هندسته الإسلامية، وتأثيره الأوروبي في المغرب العربي. مستعينا بشخصيات من وحي خياله (بليلو وماريا)، ومستحضرا شخصيات أخرى من التاريخ الجزائري (الشيخ عمار التجاني) لإعادة بعث الحياة في القصر كما كانت في العهد الكولونيالي.

- "ثمة دخل به مقاما مشيدا من الرخام الأبيض والبلاط المنشى والخشب الأحمر، كل حجرة فيه مؤتنة بما هو أثن وأجمل مما رآه في بيوت الفرنسيين هناك في نوات"<sup>1</sup>.

الكاتب ومن خلال بعثه لقصر كوردان العتيق، ذكرنا بصفحة من صفحات التاريخ الثوري للجزائر، إذ استحضر "الشيخ عمار التجاني" وحلفه الجهادي مع "الشيخ بوعمامة" زعيم المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي.

يحضر الحب والموسيقى بشكل لافت، لإضفاء جمالية خاصة على القصر، ويستغرق الكاتب في وصف آلة البيانو، التي كانت موجودة بالفعل كقطعة أثرية ثمينة في القصر. لي طرح فلسفته في الفن والحب والجمال والوجود، وتسامح الأديان.

### \* المنصورة:

وثق الكاتب "محمد ديب" للمنصورة، التي تعد من أهم معالم مدينة تلمسان العريقة في روايته (الحريق):

- "كان القمر يربد فوق الوهاد السوداء المنفجرة بين الجبال (...) وفجأة ترجعت في الأرجاء أصوات حوافر تقرع الأرض. انتصب الفلاحون جميعا على أقفيتهم (...) فرأوا تحت أسوار ((المنصورة)) حصانا أبيض بلا سرج ولا لجام ولا فارس ولا عدة، يهتز عرفه بعدو جنوبي (...) وغار الحصان العجيب في الظلام. وما كادت تنقضي دقائق معدودات، حتى دوى عدوه من جديد يطرق الليل. عاد الحصان يظهر تحت أسوار ((المنصورة)) وعاد التطواف بالمدينة القديمة المندثرة، كانت الأبراج الاسلامية التي قاومت الفناء تلقي ظلها في الضوء المعتم.

ودار الحصان بالمدينة مرة ثالثة، حتى إذا مر بالفلاحين احنوا رؤوسهم جميعا، وامتألت قلوبهم اضطرابا.<sup>2</sup>

البراق، في الذاكرة الجمعية مرتبط بقصة الإسراء والمعراج، وهو رمزية للإعجاز والغور في عوالم السماوات والغيبيات. استحضره الروائي "محمد ديب" كرمزية للثورة والحرية، وربطه بمعلم أثري موغل في حضارة مدينة تلمسان. المنصورة، عاصمة الزيانيين، التي يعود تشييدها إلى أواخر القرن السابع الهجري، الموافق لسنة 1299م. والتي استحضرها الكاتب للتوثيق، وإحياء مجد الأوائل والأجداد، لمد الجزائريين أنذاك بجرعة شجاعة، تعينهم على كسر قيود الذل التي لزمتهم جراء سطوة المستعمر.

<sup>1</sup> - تلك الحجة، ص 126.

<sup>2</sup> - الحريق، ص 26.

التوثيق، وإبراز عراقية مدينة تلمسان هو دأب الكاتب "محمد ديب" لذلك نجده يستحضر المنصورة في عدة مشاهد من أعماله الروائية:

- "في هذا المكان كانت تقوم في الماضي مدينة ((المنصورة)) التي لا تزال ترى جدران سورها، ولا تزال ترى برجها المغربي. صحيح أن تلمسان قديمة فالبيوت فيها هرمة يرجع عهدها إلى مئات السنين، ولكن الناس أيضا هرمون في تلمسان." <sup>1</sup>.

تحضر المنصورة أيضا في رواية (أنا وحاييم) لـ "الحبيب السائح" بغرض التوثيق، وبدافع تأصيل الهوية:

- "ومن أعالي المنصورة، عاصمة الزيانيين البائدة، زفرت نفسا نحو البحر الأبيض المتوسط." <sup>2</sup>.  
\*الراعي والنعجة:

يستحضر الكاتب "إسماعيل بيرير" في روايته (وصية المعتوه) تمثال الراعي والنعجة، وهو أحد المعالم القديمة الآفلة التي كانت تحتفي بها مدينة الجلفة.

- "كانت الجلفة مدينة تحتفي بالكبش، وضعت له تمثالا في صدرها، لكنه سقط منذ سنوات قليلة مع التماثيل الكثيرة التي سقطت تباعا" <sup>3</sup>

هذا المعلم أراد أن يسترجع به الكاتب الطابع الرعوي الذي تميزت به المدينة في سنوات مضت. حاليا وفي إطار تمدين المدينة تمت إزالته ظنا من المسؤولين أنهم بذلك سيدخلون المدينة في عالم من التحضر بعيدا عن الرعي !!  
بيد أن الكاتب وفق إلى حد بعيد في تقديم الوجه المعتم للمدينة. شوارع وأزقة عتيقة وبالية كحي ديار الشمس لا يزال رغم شعارات التقدم يتخبط في الظل، بعيدا عن التنمية وعن العالم !.

التمثال يعكس النسق الثقافي والرمزي والاجتماعي والاقتصادي للمدينة. ورغم إزالته لا يزال تأثيره وامتداده التاريخي حاضرا. على الأقل في الأحياء المهمشة للمدينة.

\*تمثال الحرية:

<sup>1</sup>-الحريق، ص30.

<sup>2</sup>-أنا وحاييم، ص141.

<sup>3</sup>-إسماعيل بيرير، وصية المعتوه، كتاب الموتى ضد الأحياء، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2013، ص39-40.

تمثال الحرية، والذي صنفته اليونسكو من التراث العالمي، يقع في مدينة نيويورك. وهو عمل نحتي على شاكلة امرأة تحمل شعلة، أهدته فرنسا إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1886م، بمناسبة الذكرى المئوية للثورة الأمريكية. وإذن فهو رمز للحرية. فضلا أنه رمز للولايات المتحدة بشكل عام.

تصف البطلة مِي في رواية (سوناتا لأشباح القدس) تمثال الحرية لحظة وصولها إلى ميناء نيويورك على متن الباخرة:

– " رأيت مدينة عظيمة، بنايات ضخمة، تتوغل عميقا في البحر وتدخل في صلبه، دارت السفينة صوب تمثال الحرية الذي غرق جزؤه العلوي في عمق الضباب"<sup>1</sup>.

لحظة الوصول لأول مرة إلى مدينة ما، ومشاهدة أول معالمها، لحظة جمالية لا تتكرر، تترك أثرا عميقا في النفس، غالبا ما يبقى راسخا في الذاكرة.

لم يكن للكاتب "واسيني" أن يحبك أحداث روايته التي دارت معظمها في مانهاتن بنيويورك دون أن يستحضر معلمها الأساسي تمثال الحرية، الذي وظفه في مشاهد زاد التمثال في دراميتها. ألم المنفى، وتعب الرحلة، فرح الوصول بأمان، شروق الشمس والصعود على سطح الباخرة، وظهور تمثال الحرية يشقه الضباب والغيم.

في الرواية التمثال كان بمثابة شعاع الأمل الذي سعى إليه اللاجئون الفلسطينيون، هروبا من مذابح الصهاينة. كما كان رمزا فعليا للحرية التي منحتهم إياها مانهاتن. أنى مارست البطلة مِي، وخالتها دنيا، حياتهما بكل حرية، بعيدا عن القيود والحواجز التي سطرتهما لهما أسرتهما في القدس. كما استطاعت البطلتان أن تعيشا في أمان دون خوف من هاجس الاعتقال والموت، الذي كان يتملكهما، بسبب الاحتلال الإسرائيلي.

### \*كنيسة سانتا كروز:

وثق الكاتب "ياسمينه خضرا" لقلعة سانتا كروز، ودير سانتا كروز، وتمثال السيدة مريم العذراء، ليضفي بعدا واقعيا على أحداث روايته. وليبرز أهم وأعرق معالم مدينة وهران. وليعكس أيضا فكرة تحاور الأديان.

<sup>1</sup> - واسيني الأعرج، ص 220.

- "تأمل المدينة من مرتفعات جبال المرجاجو. صعدنا أولا لزيارة القلعة القروسطية قبل أن ننظم إلى قافلة الحجاج الذين يطوفون حول مصلى "سانتا كروز". كانوا بالمئات، نساء وشيوخ وأطفال يتزاحمون عند أقدام "العذراء".<sup>1</sup>

غير أن الكاتب أرخ لهذا المعلم في رواية تدور أحداثها في الفترة الكولونيالية، وهو تجل قوي لحضور الآخر المحتل، الذي سلب الأرض، وفرض وجوده وعقيدته وثقافته على الآخر المعتصّب.

### \*الفقرات:

تعد الفقرات من أنظمة السقي التقليدية. وهي من التراث الحضاري الصحراوي العريق الذي تزخر به بعض المدن الصحراوية في الجزائر على غرار ما نجد في مدينة تيميمون ومدينة أدرار.

عدد كبير من الروائيين الجزائريين التفتوا لجمال وغرابة هذا المعمار التراثي كـ "الحبيب السائح" و"الحاج الصديق أحمد الزيواني" و"رشيد بوجدره" هذا الأخير الذي أعجب كثيرا بهذا النظام الاستثنائي في السقي، ووثقه في عدة مشاهد وصفية في روايته (تيميمون).

- "تيميمون حيث القنوات الناقلة للمياه يفوق طولها المئتي كيلو متر. وقد حفر هذه القنوات عميد سود أوتي بهم من السودان منذ قرون عديدة، من خلال طبقات الصلصال والحت المتراكمة الواحدة فوق الأخرى، وجاءت هذه الطبقات منحدره بطريقة متعكسة في اتجاه شرق-غرب"<sup>2</sup>.

ويستمر في وصفها وصفا دقيقا فيقول بأنها تأخذ:

- "أشكال الأمشاط التي تخطط فضاء الواحات وتوزع المياه في كل بستان من البساتين التي هي صغيرة الحجم في معظمها. ويتم توزيع هذه المياه بطريقة دقيقة رغم صعوبة التقسيم. ذلك أن هذا التوزيع ينظم حسب معطيات لا تحصى ولا تعد، معقدة الأسلوب وصعبة المنال. ومن بينها حجم البستان ونظام الطبقات

<sup>1</sup> - فضل الليل على النهار، ص 77.

<sup>2</sup> - تيميمون، ص 64.

الاجتماعية والشرائح العرقية وأشجار النسب وغيرها من الأمور. ويشرف على هذا التقسيط أمين الماء وهو رجل عاقل وعلامة كبير ينتخب من طرف السكان المزارعين كل ثلاث سنوات<sup>1</sup>.

من خلال ماسبق عكس لنا الكاتب جماليات الفقارات الكامنة في العمل على المحافظة على نسبة المياه الجوفية، وتوزيع الماء على الحقول بشكل عادل، حسب حجم كل بستان وطبقة وعرق صاحبه. والنظر إلى العرق والنسب والطبقة الاجتماعية كان معيارا مهما في وقت سابق في النظام الاجتماعي الصحراوي، لكن حاليا تراجع التمييز بين فئات المجتمع الصحراوي حسب العرق والنسب. وأصبح توزيع الماء يتم حسب مساحة الحقل وما يوجد فيه من أشجار وزرع.

رصد الكاتب أيضا حرص المزارعين على صيانة وترميم هذه التركيبة المعمارية المهمة وقيامهم بتنظيفها بشكل مستمر:

– "تعبق روائح عطرة من خلال بساتين تيميمون الصغيرة وهي عبارة عن خليط من روائح الخشب المحروق والتربة المبلولة (...). والفواكه الطازجة من مشمش وتمر وتين وطماطم مجففة، والمواد التنظيفية من شب وغسول تستعمل لتطهير القنوات. ويقضي أصحاب هذه البساتين الرائحة وقتهم في العمل الدؤوب، لا يكلمون ولا يتوقفون، فيمنعون هكذا تراكم الرمال داخل القنوات وتكاثر الأوحال والأوساخ فيها"<sup>2</sup>.

تطهير الفقارات غالبا ما يتم بطريقة جماعية على أنغام الطبول بما يسمى (التويزة). وهي تعكس التماسك الاجتماعي بين أبناء الصحراء.

بهذا فقد أجاد الكاتب في توثيق معلم صحراوي مهم جدا، وأعاد بعثه في روايته، ونبه لضرورة المحافظة عليه.

وبالمقابل فإن "حاج أحد الزيواني" أيضا أرخ لما أصاب هذا المعلم الأثري من إهمال وهجر:

– "كانت فقاقير القصر قد بدأت عيونها المائية في الغور، مما جعل منسوب الماء فيها يتناقص بشكل لافت. فأعيان الملاكين الإقطاعيين، قد خرجوا حينها من الكهولة ودخلوا في الشيخوخة، ولم يعد بوسعهم مقاومة أشغال الصيانة التي تطلبها الفقاقير كل سنة، للحفاظ على منسوبها المائي، كما أن أبناءهم لم يتربوا على تلك الأعمال الشاقة، سواء في خدمة الفقاقير أو خدمة السباح والبساتين."<sup>3</sup>.

<sup>1</sup>-تيميمون، ص79.

<sup>2</sup>-تيميمون، ص79.

<sup>3</sup>-حاج أحمد الزيواني، مملكة الزيوان، فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، دط، الأردن، 2013، ص131.

الرواية بهذا الشكل تجاوزت وظيفتها الجمالية في التعبير عن موضوعات الحياة إلى مقاسمة المنظمات المهتمة بحماية التراث في رصدها للمآلات المؤسفة لبعض معالم المدن.

ومن الظواهر التي التفت لها الكاتب "واسيني الأعرج" كثيرا في أعماله، إهمال المسؤولين للمعالم التاريخية، وسوء تقديرهم لقيمتها الثقافية والتاريخية والسياحية. كانتقاده هنا لمسؤولي مدينة سعيدة في إهمال بعض الحصون التي خلفها الاستعمار الفرنسي في المدينة تحت ذريعة تنم عن جهل وتخلف الذهنيات.

- "اقترح والي ولاية مدينة سعيدة في الندوة الوزارية المختلطة اعتبار التحصينات الفرنسية المتداخلة مع المخيم العسكري للأمير عبد القادر معلما تاريخيا. لكن الملف لم يتم تقديمه إلى اللجنة المختصة لأن نائبة مديرة المتاحف والمعالم الأثرية بوزارة الثقافة قررت عدم إدراج الملف، بعد تلقيها لمكالمة تليفونية من الوزارة نفسها مفادها أن الأمير عبد القادر مني بهزيمة نكراء بهذه التحصينات ولهذا وجب إهمال الموضوع نهائيا"<sup>1</sup>.

ويصف مثل هذه التصرفات بالجنون التدميري، وحماقات أفرزتها تربية الانغلاق، ومحدودية الانفتاح. وبالفعل فبمثل هذه الانغلاقية في الرؤى طمرت وأهملت الكثير من الآثار الحضارية العريقة.

قلنا سابقا، أن المعالم الأثرية هي جزء من تاريخ المدن وحضارتها وهويتها. وأن المهندسين المعماريين يسعون إلى إبراز هذا الدور. كما أن الروائيين يساهمون في انتقاد ظاهرة خلو الأبنية مما يميزها ويجعلها امتدادا لحضارة مدينتهم. وينتقدون الجهات المسؤولة لإهمالهم لها، وتقليلهم من شأنها، ومن قيمة الدور التاريخي والهوياتي والاقتصادي والسياحي والفني والثقافي الذي تؤديه هذه المعالم.

أخيرا، ومما سبق نستنتج أن الروائي الجزائري لم يكتفي برصد معالم المدن بمنحى وثائقي فحسب، أو لمجرد إضفاء طابع الواقعية على أعماله، بل أعاد تجسيد هذه المعالم بنوع من التمثل الذي يعيد خلقها وبعثها من جديد.

## 1-2 الإحساس بالعمارة

### توطئة:

ما سنتناوله هنا هو مدى اهتمام الكتاب الجزائريين بالنسيج العمراني المدني، ووعيمهم بهندسة المباني الحديثة وبصحة أو خطأ تخطيط وهندسة المدن، وعمارتها السكنية والدينية، وساحاتها ومعالمها. وإحساسهم بالعمارة التراثية، وما تبعته في النفوس من قدسية وإحساس بالكونية -على حد تعبير غاستون باشلار- أو ما تبعته في

<sup>2</sup> - حارسه الظلال، ص 195.

القلوب من حنين وحميمية، وألفة وأمان. فضلا عن رصدهم لمظاهر سرقة الآثار ونهبها، أو بيعها بطرق غير قانونية. وإهمال وطمس بعض المعالم التاريخية.

يعد "علي عبد الرؤوف" من بين أبرز الباحثين العرب المهتمين بعلاقة الرواية العربية بالعمارة التراثية وتخطيط المدن الحديثة. من خلال كتابه القيم (مدن العرب في رواياتهم) الذي صدر سنة 2017م عن دار مدارات للأبحاث والنشر المصرية.

تطرق الكاتب في دراسته هذه إلى مدى حضور العمارة والعمران في الرواية العربية. كما حاول فيها ربط الرواية بفن العمارة تحديدا، وبحث فيها صاحبها في إمكانية تحول الرواية إلى أداة نقدية للعمارة والعمران، وإلى وسيلة للتوثيق التاريخي للغة المعمارية أو العمرانية. كما بحث في مدى إلهام الروائيين للمعماريين في مجال تخطيط المدن وجمالياتها.

واعتمد الكاتب في دراسته القيمة هذه على جملة من الروايات العربية المشرقية والمغربية، متخذاً منها نماذج عكس من خلالها تاريخ وإشكالية الارتباط بين العمارة والمدينة والرواية.

هذا ولا يمكن أن نغفل عن كتابه (من مكة إلى لاس فيجاس) الصادر سنة 2014م. والذي يعد من بين أبرز الكتب التي يمكن اعتمادها في الدراسات المهمة بالنقد المعماري.

على الصعيد الإبداعي الروائي العربي، وثقت عدد من الروايات النسيج العمراني للمدينة، ونهت إلى حالات تغييره أو تدهوره أو اندثاره وتلاشيه بفعل عوامل عدة كالحروب والعولمة. واستطاع بعض الروائيين العرب بتوظيفهم للعمارة أن يقدموا صورا فنية جميلة ومميزة لعمران وثقافة مدتهم كـ "رجاء عالم" في روايتها طوق الحمام، و"عبد الرحمن منيف" في خماسيته (مدن الملح) و"جمال الغيطاني" و"نجيب محفوظ" في معظم أعمالهما.

أما على صعيد الإبداع الجزائري فلاحظنا اهتمام بعض الروائيين بنسيج وتخطيط المدن، وإحساسهم العميق بالعمارة التراثية وتعرضها للنهب والإهمال والتهميش. ووعيههم الحاد بمساوئ هندسة بعض المباني الحديثة وتأثيرها على حياة وثقافة السكان. كالروائي "واسيني الأعرج" في (حارسه الظلال) و(البيت الأندلسي) و(سيدة المقام). و"الطاهر وطار" في (الزلال). و"أحلام مستغانمي" في (ذاكرة الجسد). و"الحبيب السايح" في (تلك المحبة) و(ذاك الحنين). و"الصديق الحاج الزيواني" في (مملكة الزيوان). و"رشيد بوجدره" في (تيميون).

من بين أكثر ما شد انتباه الروائيين الجزائريين جمال المعالم العريقة للمدن، وبهاء عمرانها التراثي. والسحر الذي تبعته النوافذ والشرفات في النفوس. كذا تخطيط المدن الحديثة، وافتقارها للهندسة الصحيحة التي تراعي ثقافة وقيم وتاريخ ومناخ المدينة، وقبح بعض المعالم والمباني الحديثة، وخلوها من مياسم الجمال والجاذبية.

### \*جماليات العمارة التراثية:

شكلت العمارة التراثية مصدرا مهما لإلهام الروائيين الجزائريين، إذ اتخذوا منها مرتعا خصبا، ساعدهم على التعبير عن هوية مدتهم الثقافية، واستحضار فضاءات جديدة وأزمنة جميلة تلاشت، وأمكنة عريقة تكاد تندثر، في ظل ما تعرفه المدن اليوم من تنمية، وثورات تقنية في الإتصال والإعلام.

وبتتبع الرواية الجزائرية، نقف على عدد من الروائيين الجزائريين الذين حرصوا على تصوير هندسة المدن وتخطيطها، خاصة المدن الموعلة في القدم والعراقة، ذات الطابع العمراني الأصيل كوادي سوف وأدرار وتيميمون والجزائر العاصمة وتلمسان ووهران وروما وغرناطة وباريس ومارسليا ونيويورك والقدس. فأمعنوا في وصف أحيائها وساحاتها، وقلاعها وحصونها العالية، وأزقتها ودروبها العتيقة، وقصورها وقصباتها التراثية، ودورها ومعابدها وبيوتها الحجرية والطينية والجبسية البديعة.

### أ.المدن المحصنة:

عرفت الحضارات العريقة منذ القدم، المدن المحصنة ذات الأبواب والحنادق والأبراج العالية، والأسوار والحصون المرتفعة. لأسباب أمنية ودفاعية غالبا، وعنصرية أو جمالية أحيانا. ولا تزال بعض المدن في العالم الغربي وعالمنا العربي ثرية في هندستها المعمارية التراثية، تحافظ على هذا الشكل العمراني العريق على غرار ما نجد في روما وإسطنبول والقدس والقاهرة القديمة وسوسة التونسية. رغم التحولات العميقة التي عرفتها المدينة العربية الحديثة.

على سعيد الرواية الجزائرية، وثق عدد من الروائيين مدن جزائرية كانت قائمة في الماضي على التحصين كمدينة المحروسة، الجزائر العاصمة حاليا، وسعيدة وتلمسان ووهران ومعسكر. كالكاتب "عبد الوهاب عيساوي" الذي وثق في روايته (الديوان الإسبرطي) لعمارة المحروسة زمن الحكم العثماني، واستغرق في وصف أسوارها وحصونها وقلاعها التي حرص الأتراك على تشييدها لأغراض أمنية ودفاعية من الهجومات البحرية التي كانت تترصد المدينة من قطاع الطرق والأساطيل الأوروبية.

- "تبدو لي أسوارها عالية كأنها تناطح السحاب"<sup>1</sup>.

- "شعور غريب انتابني، أن ترى مدينة لأول مرة وتمتلى بها، عندما تتراءى من أعلى الربوة مآذنها البيضاء، وأسوارها الممتدة مثل طوق حولها"<sup>2</sup>.

كثرة الأبواب، والمساحات الداخلية، من بين أهم مياسم المدينة العربية الإسلامية، والتي تشكل بعدا مكانيا يحدد فضاء المدينة ويشعر ساكنيها بالاحتواء.

كما توفر لهم المساحات فضاءات للراحة والمتعة، وللقاءات والجلسات الحميمية. هذا ما اهتم بتصويره ونقله إلينا الكاتب "الصدى حجاج أحمد الزيواني" في تقديمه لمدينة أدرار، التي لا تزال تحافظ على هذا التخطيط المدني التراثي، الحصن والأبواب والمساحات، فضلا عن مادة بنائها المستلهمة من البيئة المحلية.

- "وما إن بلغنا وسط المدينة، حتى استقبلتنا أدرار بأبوابها الأربعة المقوسة، وذاك عهدنا، اثنان من جهة الشرق، هما باب رقان لجهة الجنوب (..) وباب تميمون لجهة الشمال، يركن بينهما سوق دينار، واثنان يتسمران في جهتها الغربية، باب بوبرنوس لجهة الجنوب، وباب بشار لجهة الشمال، حصرت بين الأبواب المقوسة، ساحة ماسينيسا الفسيحة الخضراء. كانت أقرب إلى التربع منها للإستطالة، يخلد في شرقها الشمالي فندق جميلة الأحمر الطيني الجميل، تدور بها أقواس طينية من جهاتها الثلاث، خلا الجهة الجنوبية (..) وقد قال لي والدي ذات مرة عندما تصادفت معه فيها، أن نمط عمارتها يشبه كثيرا عمارة تمبكتو وغاو من بلاد السودان المالية والنيجيرية"<sup>3</sup>.

الأبواب الطينية المقوسة كانت مداخل للمدينة قديما، وهي رمزية للأمان والاحتواء. والساحة الخضراء وسط المدينة، تعد فراغا جماليا للفرجة ولعب الأطفال ونزهتهم. وتجمع أهاليهم في مجالس ولقاءات حميمة. فضلا أنها مكان مناسب للتبادل التجاري في أسواقها الداخلية، والتي غالبا ما تتضمن محلات تجارية لبيع التحف والقطع الأثرية القديمة، التي تعكس عادات وتقاليده وقيم السكان المحليين.

"واسيني الأعرج" هو الآخر وثق لعمارة مدينة معسكر في بدايات القرن التاسع عشر، وحرص على تقديم تفاصيل تخطيطها، وهيئة بناياتها، ومقدار مساحتها، وعدد سكانها، فضلا عن أسوارها وحصونها الدفاعية، وأبوابها

<sup>1</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 67.

<sup>2</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 67.

<sup>3</sup> - مملكة الزيوان، ص 87.

المزودة بالمدافع. ليعكس لنا صورة تقريبية للمدن الجزائرية القديمة، وليبرز لنا تخطيط القادة العسكريين الأوائل لمدهم فترة الثورات الشعبية ضد المستعمر الفرنسي.

–"منذ الهجمات القديمة على المدينة ومعسكر تطوق نفسها بسور قديم بعرض خمسة أقدام وعلو يصل إلى تسعة أمتار، وبحصن مثلث على الجوانب في المرتفعات المحيطة بالمدينة، مجهز بثلاث مدافع من البرونز".<sup>1</sup>

الكاتب أيضا أوضح أن للمدينة خمسة عشر مدفعا تحرس أسوارها وثلاثة أبواب، أحدها مخصص للإتقاذ.

هذا التخطيط يعكس الاحتواء والأمان الذي كانت تتمتع به المدن القديمة، كما يعكس الوضع الأمني والعسكري آنذاك. وضع متوتر ومربك، قائم على الغارات بين القبائل والمدن، والمعارك بين السكان الأصليين والمحتلين. بينما حاليا تكاد تنعدم التحصينات حول المدن بالأسوار وغيرها، نظرا لاختلاق الإنسان وسائل دفاعية وأمنية أخرى تتجاوز التحصين العمراني إلى امتلاك الأسلحة المتطورة النووية والبيولوجية وغيرها.

### ب. القصور:

من أهم ما يشد الانتباه، حضور القلاع والقصور العريقة الأوروبية والأندلسية في الرواية الجزائرية. على غرار ما نجد في رواية (كتاب الأمير) لـ "واسيني الأعرج" كقصر أمبواز وفرساي وقلعة قارسوني. وقصور الملوك والأمراء والقادة، وقصور رياس البحر. والقصور الصحراوية العتيقة، الأشبه بالقصبات. بناياتها مبنية من الطوب. ومحاطة بأسوار خارجية فردية ومزدوجة، معدة للحماية. وقد صنفت منظمة اليونسكو العديد من هذه القصور كمعالم تراثية عالمية، لما لها من تميز وتفرد في هندستها المعمارية، وعراقة تؤرخ لتعاقب حضارات وأعراق، ومرور قوافل وقبائل متعددة. كقصور وادي ميزاب بمدينة غرداية.

ويتضمن كل قصر من هذه القصور بيوتا وساحة عامة ومسجدا وزاوية لولي صالح يتبرك به أهالي القصر، وكتاتيب لتحفيظ الصغار القرآن الكريم، ودكاكين تجارية. فضلا عن تميز هذه القصور بالخنادق والأبراج المشيدة للحماية.

ويعد "حاج أحمد الزيواني" و"رشيد بوجدره" و"الحبيب السائح" من أكثر الروائيين الجزائريين رسدا لتاريخ وجماليات القصور الصحراوية.

يصف الروائي "رشيد بوجدره" في روايته (تيميون) مدينة تيميون المتميزة بعمارتها التراثية المتفرد الأصيل:

<sup>1</sup> – كتاب الأمير، ص75.

- "تيميمون عبارة عن قصر بربري عتيق مبنية أسواره بالصلصال الأحمر والمحجب، فسميت بالواحة الحمراء. ويتربع هذا القصر على صخرة تشرف من أعلى أمتارها العشرين على الواحة. ويملك القصر مسجدا قديما رائعا ذا صومعة تبان وكأنها حذرة من كثرة الغزوات التي كانت تتسلط على القصر، قديما بالمرصاد لكل طارئ آت من الصحراء التي تحوط بتيميمون"<sup>1</sup>.

ويتعمق الروائي "بوجدرة" أكثر في وصف هذه القصور التي يطلق عليها أيضا اسم القصبات، فيقدم وصفا تفصيليا لها من الداخل:

- "وقصبة تيميمون يمكن أن تلخص في متاهات أزقتها وكثرة شبائيكها وأسطحها وقبابها وصومعاتها وأقواسها وأبوابها الخشبية وجنائنها الصغيرة والحصبة، وتأتي كل هذه الأحجام والألوان زاهية، صياحة من تكاثر الضوء المسكوب عليها وهيجان الجو فيها."<sup>2</sup>.

هذه القصور حسب تقديم "بوجدرة" لها، ذات أزقة ضيقة ومتداخلة، تضيء طابعا حميميا على المكان، يعكس علاقات الجوار والمحبة بين أهل القصر، الذين غالبا ما يكونون من قبيلة واحدة. فضلا عن الجانب الجمالي والروحي الذي تبعثه الجنائن الخصب الملوثة والمساجد بصومعاتها العالية المشيدة داخل القصر.

الروائية "مليكة مقدم" في روايتها (المنوعة) هي الأخرى تشيد بجمالية القصور الصحراوية، المتماشية وطبيعة المكان، مسقوفة الأزقة، مظلة، تفيض بالحميمية والشاعرية، مكثفة الزمن، حيث تحيا وتنمو الأحلام الجميلة، وحكمة القدماء:

- "اشتاقت عيناى إلى رؤية القصر. إن تعرجات الأزقة الضيقة تمسك الأحلام، تحمي الهاربين والكآبات المبهمة. ويشكل تشابك الأضواء وظلال الجسور والسقائف المتداخلة، وكذا صفرة الجدران الترابية، تناسقا منسجما."<sup>3</sup>.

هذه القصور يختار لها مشيدوها مواقع مناسبة، تكون قريبة من الواحات. فتزيدها هذه الواحات جمالا، يتخذ منها أهل الصحراء مراتع لزراعتهم وسقي إبلهم وماعزهم، كما يقصدها السياح للسباحة والاستجمام. وحسن

<sup>1</sup> - تيميمون، ص 65.

<sup>2</sup> - تيميمون، ص 78.

<sup>3</sup> - مليكة مقدم، المنوعة، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2008، ص 23.

اختيار الموقع كما نعلم من معايير جمالية العمارة. كما أنه عنصرا مهما في استمرار الأمصار وبقائها. وهذا ما تنبه له الروائيون، ووثقوا له في أعمالهم.

لم يتوقف اهتمام الروائيون الجزائريون بتوثيق القصور الصحراوية فقط، بل تعداه لقصور الحكام الأتراك، والقادة العسكريين، وقصور الرياس في المدن الساحلية، على غرار ما فعل الكاتب "واسيني الأعرج" في روايته (البيت الأندلسي) الذي تتبع المراحل التاريخية لقصر لالة خداج العمياء، المتواجد بحي القصبة بالجزائر العاصمة. متجاوزا فعل التوثيق إلى إبراز شعرية الفن المعماري الأندلسي.

### ج. الأحياء:

تعد الأحياء والأزقة والطرقات والممرات والدروب فضاءات مفتوحة، وإن كان بعضها مغلقا معماريا كالأحياء العريقة والممرات الحجرية العتيقة المسقفة. تجدد فيها الشخصيات أفقا لعبورها، ولأداء أدوارها وحركاتها في الحكاية، كما يتخذ منها الكتاب سندات بصرية يؤثثون بها للمشهد اليومي، ودفق الحياة الاجتماعية والثقافية للمدينة. يقول الباحث "حسن نجمي":

- "واضح أن الشوارع والأزقة والطرقات ليست كتلا صماء، إنها سند بصري لحركة شاملة من العلاقات والأصوات والصور والروائح والإيماءات والطقوس".<sup>1</sup>

وهي أيضا فضاءات للقاءات الحميمة بين الأصدقاء والأحبة، وللاستلاب، والصدامات الإثنية والعقائدية بين الأنا والآخر. فضلا أنها تعد أكثر الأماكن اتساعا وشمولية من حيث العلاقات البشرية، والأصوات والألوان والروائح والحركات.

والشوارع والطرقات غير الأحياء والأزقة، إذ أن الأخيرة غالبا ما تضم اختلافات أقل بين سكان الحي أو الرقاق الواحد، بينما تتسع الشوارع والطرقات لتشكّل فضاء غير محدود لمختلف أنواع التناقضات بين العابرين من حيث العرق والجنس والعمر والطبقة والدين واللغة والتراتبية الاجتماعية.

وقد اهتمت بعض الروايات الجزائرية بذكر ووصف وتوثيق بعض أحياء وأزقة المدن. بعضها من وحي الخيال، وبعضها الآخر موجود بالفعل. كحي القصبة العريق بمدينة الجزائر، وحي البيازين بمدينة غرناطة، والذي يعد أيقونة مهمة في تاريخ الصراع العربي الإسباني. هذا الحي شاهد معلمي حيّ على صدام حضارتين وعقيدتين الأشهر في

<sup>1</sup> - شعرية الفضاء، ص 114.

التاريخ الإنساني. وأكثر الروائيين الذين أتوا على ذكره بشكل مكرر جدا في عدة روايات هو "واسيني الأعرج" خلق منه أيقونة خالدة للعشق والعلم والجمال، وللدنم والعنف وحناقات البشر.

- "مرت أمام عيني حتى سحب المدينة وعواصفها وأوراقها عندما تمب رياحها وغبارها وتراجمها. مسالكها ومهاالكها. دروب البيازين ومحلات الذهب، ومكتبة المخطوطات ونساءها العابرات بغمزاتهن الملعونة"<sup>1</sup>.

جل روايات "واسيني" استحضرت فيها حي البيازين بمدينة غرناطة. الحي الذي كان مسرحا لأحداث دموية عنيفة أفرزها الصراع الإثني والعقائدي بين الجيش الصليبي الإسباني وبين المسلمين.

ويعد حي القصبة هو الآخر من أكثر الأحياء الجزائرية عراققة وشهرة، لذلك فقد وثق له عدة روائيين كـ "الحبيب السائح"، و"عبد الوهاب عيساوي" و"محمد مفلح" و"واسيني الأعرج" و"جيلالي خلاص" وغيرهم.

الكاتب "جيلالي خلاص" في عمله الروائي (حنائم الشفق) خصص مشاهد كثيرة، تعرض فيها لوصف حي القصبة. ومسالكه الوعرة، ومنازله المترصعة، وأزفته الضيقة. وباحاته الصغيرة التي تشكل مساحة للعب الصغار ومرحهم. كما رصد في كثير من المواضع المكانة التي يتمتع بها هذا الحي العريق في قلوب ساكنيه وزواره.

- "أعتقد أنني لا أعشق شيئا في الحياة كعشقي إياها بأزقتها المتعبنة وشوارعها المتحلزنة وبيوتها المتسلحفة"<sup>2</sup>.

غير أنه يعاب على الكاتب إخفاقه في انتقاء الألفاظ المناسبة لوصف الحي. مما ينم على ضعف رصيد الكاتب في الهندسة والفن المعماري.

هذا الحي لحضوره الواضح والملفت في النصوص الإبداعية صار بمثابة الأيقونة الأكثر شهرة في التاريخ المعماري الجزائري، والتي تعكس الهوية الجزائرية، المعمارية منها والثقافية. كما تكسب النص أيضا من الثراء الدلالي والروحي والإنساني.

#### د. الساحات:

المتتبع لتاريخ عمارة وتخطيط المدن العريقة كدمشق وبغداد والقاهرة وروما يلاحظ حضور ساحات تتوسط بناياتها. هذه الساحات تشكل كما يرى باحثو النقد المعماري فراغات مفتوحة على السماء، يتخذ منها أهل

<sup>1</sup> - البيت الأندلسي، ص 179.

<sup>2</sup> - جيلالي خلاص، حنائم الشفق، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار، ط2، الجزائر، 2001، صص 17-18.

المدينة فضاءات للقاءات والراحة، وللإعلام وتبادل الأخبار. كما يتخذ منها الأطفال مراتع للعب والمرح. والتجار أماكن مناسبة لعرض سلعهم وتجارتهم.

الكاتب "واسيني الأعرج" أفاض في وصف ساحات المدن على غرار ساحة مدينة معسكر في رواية (الأمير). والتي كانت فضاء للأسواق في بعض أيام الأسبوع، حيث يلتقي التجار والمزارعون وبائعو الأسلحة من كل القبائل والمدن المجاورة ويعرضون سلعهم وبضائعهم. كما يتخذها القوالون أماكن هامة لسرد قصصهم وحكاياتهم الغريبة والظريفة، ويقدمون فيها عروضهم الممتعة مع قردتهم وحيواناتهم. فضلا عن البراحين الذين يذيعون وسطها الأخبار والمستجدات. وهي في الغالب محاطة بالدكاكين الصغيرة والمقاهي. وجنان خضراء تغطي بؤس المدينة، وفوضى أسواقها.

- "بينما الطريق الذي ينطلق من الساحة باتجاه باب علي، تتزاحم حوله الدكاكين الصغيرة للموريسكيين واليهود، وسوق الحبوب المغطاة المواجهة للبرج وسوق الصوف والزراي والكتان".<sup>1</sup>

الكاتب "عمارة لخص" هو الآخر ذكر في روايته (كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك) عدد مهم من ساحات مدينة روما التاريخية. كساحة فيتوريو وكامبو دي فيوري وساحة دلبوبولو. ولم ترد هذه الساحات مجرد التوثيق فحسب، كما لم ترد حيادية، كتل صماء وخلفية للأحداث، بل جاءت ساحات مختزقة، أدرج الكاتب من خلالها أحداثا فارقة في المسار التاريخي والثقافي لمدينة روما.

- "في وسط ساحة كامبو دي فيوري، أقدمت محاكم التفتيش عام 1600 على حرق جوردانو برونو حيا. الآن هناك تمثال ضخم في هذا المكان المشؤوم. يخلد ذكرى الفيلسوف المأسوف عليه".<sup>2</sup>

كما عكس هذا الاختراق من التنوع والتقاطع الإثني واللساني والعقائدي للسكان الأصليين للمدينة، وللوافدين إليها من المهاجرين الأجانب، وسكان المدن الإيطالية المجاورة.

يمكن القول إن الساحات مثل الشوارع والطرق ورددت في الرواية الجزائرية لتعكس صدام أو اندماج الأنا مع الآخر المختلف. كما تعكس سمة المدينة المتمثلة في التنوع العرقي والثقافي.

هـ. البيوت:

<sup>1</sup>- كتاب الأمير، ص76.

<sup>2</sup>- عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، منشورات الاختلاف، ط2، الجزائر، 2006م، ص102.

التفت عدد من علماء النفس وعلماء الأثنوغرافيا، والجغرافيين والنقاد المعماريين والفلاسفة والأدباء لدور البيت في حياة الإنسان. وبحثوا في جانبه الهندسي وتأثيراته النفسية والإدراكية عليه. غير أن مجال اهتمام المعماريين والجغرافيين والأثنوغرافيين لا يتعدى غالبا وصف أنواع البيوت ووظائفها، وألوانها وإضاءتها ومساحتها وفراغاتها. بينما يتجاوز مجال اهتمام علماء النفس والفلاسفة والأدباء الجانب الهندسي للبيت إلى تأثيره على النفس، ومدى توفيره للهناء والألفة، والحميمية والسكينة.<sup>1</sup>

في الرواية الجزائرية نقف على مشاهد مهمة تتضمن حضور البيت من حيث قيمه التاريخية والثقافية والاجتماعية، وتأثيراته النفسية والبصرية والإدراكية. كالبيت العاصمي العريق في رواية (الديوان الإسبرطي) للكاتب "عبد الوهاب عيساوي" و(ذاكرة الجسد) لـ "أحلام مستغانمي". والبيت الصحراوي التراثي في (مملكة الزيون) لـ "الصادق الحاج الزيواني" وفي (تيميمون) لـ "رشيد بوجدره". والبيت المقدسي في رواية (الصدمة) لـ "ياسمينا خضرا". والبيت الأندلسي في (البيت الأندلسي) لـ "واسيني الأعرج".

ولعل الروائي "واسيني الأعرج" من أهم الروائيين الجزائريين الذين يملكون إحساسا عميقا ومرهفا اتجاه العمارة الحديثة والتراثية منها خاصة. وقد بدا اهتمامه بفن العمارة جليا في معظم رواياته، خاصة منها رواية (البيت الأندلسي) التي عكس من خلالها حرصه على ضرورة المحافظة على التراث المعماري للأجداد، كما أبرز اهتمامه الشديد بعمارة وهندسة البيت العربي الأندلسي، الذي سخر لوصفه جزءا هاما من الرواية، موظفا فيه كما لافتنا من الألوان والنباتات والموسيقى، ومن المصطلحات المعمارية والهندسية (أقواس جدارية مجوفة، أعمدة رخامية، أقواس، قباب، نوافير) ليضفي على البيت هالة متفردة من الجمال والجاذبية.

البيت في رواية (البيت الأندلسي) حضر مشحونا بدلالات وقيم تاريخية وثقافية هامة. عكس من خلاله الكاتب الفن المعماري الموريسكي الجميل للبيت الغرناطي، حدائقه وفناءه وشرفاته، وغرفته، وألوانه. كما أبرز قيمه الهوياتية، التي تتجلى في المجد الحضاري الذي حققه المسلمون في شبه الجزيرة الأيبيرية. دون أن يتجاوز دوره العاطفي والحميمي بأيام الزمن الجميل، ويفقد المحبوب.

- "ألحت في بناء البيت على شيئين أساسيين في العمارة الموريسكية: الأبواب والساحة التي تظللها السقيفة وتخترقها نافورة تعطي للمكان حياة متحركة مرئية"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - Voir : Gaston Bachelard, La poétique de l'espace, Presses universitaires de France, Paris- France, 3éme ed, 1961, p32.

<sup>2</sup> - البيت الأندلسي، ص 180.

أدرك الكاتب أهمية تفاصيل البيت، فاستغرق مشاهد عدة لاستحضارها من آلات موسيقية ونباتات وأفرشة، ومخطوطات، ونوافذ وأبواب وسقائف وشرف. وجعلها تبدو عوالم حية تضج بالحركة والأصوات، تدفع القارئ لتعليق القراءة والاستغراق في أحلام اليقظة، وفي ذكريات الفردوس المفقود. التي وإن لم تكن جرحا ذاتيا، فهي جرح عميق راسخ في الأنا الجمعي للمسلمين. كما تحيي بداخل القراء قيم الألفة والحميمية، ومشاعر السعادة والدهشة.<sup>1</sup>

ومن أجمل العبارات التي سجلت للكاتب حول إحساسه ونظرته للبيت عموما، قوله:

- "البيت يا ابني ليس قبرا صامتا وليس ساحة خالية من الأحاسيس، ولكنه حياة مستمرة"<sup>2</sup>.

هذا وتتفرد البيوت الصحراوية هي الأخرى، في الروايات الجزائرية بطابع عمراي مميز، يتماشى ومناخ الصحراء الجاف والحار، كما تشيد من مواد مأخوذة من الطبيعة الصحراوية ذاتها. على غرار بيوت مدينة وادي سوف، الواقعة في الجنوب الشرقي الجزائري. والتي تتميز ببيوتها الجبسية البيضاء ذات الأقواس والأسطح المقببة.

يقول الروائي "أحمد محمد زغب" في روايته (المقبرة البيضاء) الصادرة عام 2005م، واصفا بنايات مدينة البيضاء بوادي سوف:

- "بناياتها يغلب عليها الطابع المحلي، منازل تقليدية مبنية بالجبس، على بعضها القباب المستديرة، وتزين الأقواس بعضها الآخر"<sup>3</sup>.

البيت السوفي مبني من المواد التي أتاحتها البيئة الصحراوية. هذه المواد هي الجبس ووردة الرمال، وهي مواد صديقة للبيئة، تتناسب مع قساوة المناخ المعروف بجفافه وحرارته الشديدة وكثرة زواجه الرملية. وتسمح للبيوت بالبقاء إلى عقود طويلة. كما أن أسطح هذه المنازل مقببة، وهذه القباب من شأنها أن تحدد من تكس الرمال فوق سطح المنزل. بل وتوفر هذه الأسطح المقببة مكانا لحركة الهواء داخل البيت، وتساعد على توزيع أشعة الشمس ما يجعلها تحقق عامل الإضاءة والتبريد صيفا، والتدفئة شتاء.

كما تصف الكاتبة "حنكة حواء" في روايتها (عايشة) جمالية سقف أحد بيوت بلدة أغميش التابعة لمدينة وادي سوف قائلة:

<sup>1</sup>- Voir : Gaston Bachelard, La poétique de l'espace, p32-33.

<sup>2</sup>- البيت الأندلسي، ص 111.

<sup>3</sup>- محمد أحمد زغب، المقبرة البيضاء، دار الكتاب العربي، ط1، الجزائر، 2005، ص 11.

- "هكذا بنيت البيوت الجبسية في أعميش على شكل قباب لكسر أشعة الشمس لتكون الغرف باردة"<sup>1</sup>.

ومن جماليات البيت السوفي أيضا احتواؤه على حوش مفتوح للسماء، يحوي جنينة أو نخلة تزين البيت:

- "كل حوش في أعميش يحوي نخلة، وهم مقتنعون جدا أن البيت الذي يخلو منها أهله جياع"<sup>2</sup>.

فالنخلة لا تعمل على إضفاء الجمال في البيت السوفي فحسب، بل وتحقق رمزا طقوسيا يدل على وجود النعم والخير في البيت.

هذا والتفت الكاتب "واسيني الأعرج" أيضا لشعرية الحوش في البيت العربي. وتعمق في وصفه، مبرزا أهميته وجماليته واستثنائيته عن البيت الغربي الذي ينعدم في تصميمه الحوش الداخلي للبيت.

- "عندما التفت نحو المدينة الأندلسية التي كانت تتسلق مرتفعات القصب، شعر بشيء نادر لا يحدث إلا في أيام الصيف، حيث تحبو العواصف وتفتح المدينة صدرها لشمس دافئة ثم حادة، ثم في المساء عندما تحف يبدأ سكان القصب في رش حدائقهم وأحواشهم بالماء الممزوج بماء الزهر والحبق والنوار والتمدد تحت الليمونة التي تعرش في المراح على وقع هواء خفيف ينبعث من البحر."<sup>3</sup>

في المناطق الحارة والجافة تهبط درجة الحرارة كثيرا بعد الغروب. خاصة في المدن الصحراوية. والناس في مثل هذه المناطق تعودوا على إغلاق مساكنهم من الخارج، وفتحها على أفنية داخلية. يسمى واحدا صحن أو حوش، ويكون مكشوبا للسماء. وهذا الصحن يقلل من درجة الحرارة في الليل، كما يحقق إثارة بانفتاحه على السماء المزينة بالنجوم.

يصف الروائي "إسماعيل بربير" في روايته (المعتوه) جمال البيت الجلفاوي، فيقول بأنه بيت غرفه واسعة أسطحها مسقوفة بالقرميد الأحمر، ذات أبواب حديدية لحماية الغرف من السرقة. ولها حوش مفتوح على السماء، تحوي جنينة داخلية، تفرس فيها غالبا أشجار كالزيتون والعب و شجرة مسك الليل وحشائش كالنعناع والبقدونس. هذه النباتات يغار عليها أهل البيت وكأتمها نساء، فيفضلون غرسها في حدائق داخلية بدلا من غرسها في حدائق خارجية أمام البيت:

<sup>1</sup> - حواء حنكة، عايشة، الرابطة الولائية للفكر والإبداع، الوادي-الجزائر، ط1، 2016، ص42.

<sup>2</sup> - عايشة، 56.

<sup>3</sup> - كتاب الأمير، 627.

- "حيث يربي الناس أشجارهم في البيوت خفية كأنها نساء"<sup>1</sup>.

ويلتفت "رشيد بوجدره" إلى القيم الجمالية والاجتماعية للبيت التيميوني، الذي يسحر كل زائر إلى تيميون، فيقدمه في روايته بكثير من التفاصيل:

- "ولديار تيميون سمات رائعة الجمال ومحكمة التنسيق المعماري، فتملك كل واحدة منها أسطح جميلة الشكل وأفرانا محفورة في الأرض. وعددها ثلاثة في كل منزل. سألتني صراء: (( لماذا ثلاثة أفران في كل منزل ياترى؟ )) لم أعرف الجواب على سؤالها. فقلت فجأة ((هكذا ! لعله نوع من التطير الطقوسي...)) كما كانت المنازل تحتوي على دورات المياه وهي موضوعة على أعلى السطح وتشعر وأنت تتبول أنك تحمل على رأسك صفيحة السماء المكتظة بالنجوم، فتحس بنشوة تجتاحك في العمق"<sup>2</sup>.

البيت التيميوني كما قدمه "بوجدره" مصمم بطريقة منسقة، أسطحه جميلة، وله ثلاثة أفران، قد تكون حسب رأينا رمزية للكرم والضيافة، المعروف بها أهل الصحراء. وقد تكون أيضا رمزية للتدين، إذ أن الرقم ثلاثة رقم وتري ومقدس في الإسلام. أيضا من سمات البيت التيميوني تواجد حمامه في أعلى السطح، وقد يكون تشييد الحمام في السطح احتراماً للخصوصية، وتحقيقاً للستر والحياء. وهي كلها صفات خلقية نبيلة تميز الإنسان الصحراوي.

ويرى "غاستون باشلار" أن البيت (هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية)<sup>3</sup>.

لذلك حرص الروائي "الصديق حاج أحمد" على استحضار البيت الأدراري التواتي في روايته (مملكة الزيوان)، وخصص حوالي صفحتين لوصفه بكل تفاصيله الدقيقة، ليعكس من خلاله الهوية الثقافية للمجتمع التواتي، وليبين نمط حياتهم في السابق. متخذاً دور المؤرخ والأنثروبولوجي في توثيق التراث المعماري التقليدي، وحاملاً على عاتقه جرد مسميات تفاصيل وأركان البيت الأدراري بلغة أهل توات المحلية القديمة:

- "هي أول مرة أتعدى فيها عتبة بيتنا، والذي أنصوره من الداخل بيتنا سقيفيا، مستطيلا، طينيا، سقفت سقيفاته بمخشب جذع النخل (... ) بابه خشبي صنع من جذع النخل المملسة بإبراء القادوم، وضع في أعلاه

<sup>1</sup> - المعتوه، ص70.

<sup>2</sup> - تيميون، صص79-80.

<sup>3</sup> - Voir : Gaston Bachelard, La poétique de l'espace, p34.

قفل يسمى أفكر، صنع باقتدار محكم من حربي ماهر (...). وهو أغلب الظن، على آخر يهودي كان يسكن تمطيط (...). تقابلك فيه سقيفة الباب، التي تدخلك إلى سقيفة القعود المستطيلة، التي بدورها تسلمك إلى رحبة معرأة بينها وبين سقيفة القعود، باب يسمى أمانار. وقد سطح في زاوية من تلك الرحبة المعرأة مكان يدعى لمنصب، كما بني في زاوية منها وكر للحمام. عندها تنفرج أمامك رحبة للشياه، بينها وبين رحبة الجلوس المعرأة باب خشبي هو الآخر، حفر في زاوية منها بئر مغطى، كان الأوائل منهم لا يفتحونه، إلا عند نزول الغزاة عليهم. سقفت من تلك الرحبة الشياهيية نهايتها، والتي يصطلح عليها التقمي، حيث كان الدجاج والشياه يهتمون فيه ليلا (...). وقد انتصب في وسط الرحبة المعرأة التي بها لمنصب، سلم يفضي إلى سطح بني في زاوية منه شيخ الدار (المرحاض) هو تقليدي مربع على أي حال، سقفه كسقف الدار تماما، تركت من سقفه فتحتان، الأولى كبيرة، لتغوط الكبار. أكرمكم الله. والثانية صغيرة للصغار.<sup>1</sup>

تظهر لنا من خلال هذا المقطع السردى الطويل، كل المزايا الجوهرية للبيت التواتي؛ الحماية والأمان اللتان يحققهما الباب الخشبي المحكم بقفل من صنع حربي ماهر يهودي. والغنائية ونمط الحياة التقليدي حيث يجذب الأهالي تربية حيواناتهم معهم في البيت. والاكتفاء الذاتي وضمان الحياة من خلال تواجد بئر ماء داخل البيت. كذلك نلاحظ عنصر الخصوصية حيث يبنى المرحاض في سطح البيت، بل ويراعى في تشييده حاجة الأطفال والحرص على راحتهم وخدمتهم.

## و. العمائر الدينية:

لا تخلو مدن الجزائر من عمائر أثرية غربية جميلة، تعود إلى عهود الأمم والأقوام السابقة التي قطنت أو احتلت الجزائر كالعهد الروماني والعثماني والاستعمار الفرنسي. كمصلى الأب شارل دي فوكو بمنطقة الهقار وكاتدرائية مدينة المنيع، وكنيسة سانتا كروز بوهران. هذه العمائر القديمة تضيء جمالا على المدينة، وتعكس تسامح الأديان وتعاقبها في الجزائر، كما تشيع بهجة في أوساط السياح والزوار.

<sup>1</sup> - مملكة الزيوان، صص 35-36.

مما استوقفنا في رواية (تيميمون) للكاتب "رشيد بوجدره" استحضاره لمصلى القسيس والراهب الفرنسي "شارل دي فوكو" الذي شيد مصلاه على قمة أسكرام. ويعد هذا المصلى أثرا معماريا كولونيايا عريقا، معترفا به من منظمة اليونسكو.

- "كم من شفق وكم من نسق شاهدت من إحدى نوافذ المصلى الصغير الذي شيده الأب دي فوكولت على قمة الأسيكرام في منطقة الهقار، دون أن أشعر بأي حس ديني، لكنني أشعر فقط بإحساس أستتيكي رائع"<sup>1</sup>.

المصلى، وإن لم يمثل شيئا ذا بال عند البطل، باستثناء إطلالة نوافذه الجميلة، فهو في واقع الأمر يتجاوز هذا إلى كونه استغرافا تأمليا للقارئ، ومعمارا حقق نوعا من التثبيت للماضي. الاستعمار الفرنسي كذاكرة، وكسلطة استلابية منهارة وأصوات وآلام وطققة أسلحة، وأحزان وفواجع. دخلت المدينة باسم التبشير، ثم عاثت فيها دماء وفسادا.

يصفه الكاتب "الحبيب السائح" بصورة أكثر توضيحا من حيث هندسته في روايته (تلك المحبة). فيقول:

- "الكافر محصن بجدران سميقة ومرتفعة ومحوط بمخندق عميق وعريض تركت بين طرفيه سببية تصل باب المدخل الوحيد الواطئ الذي يفضي إلى ممر ضيق فإلى باب ثان ضيق مغلق بمزلاج قوي يؤدي إلى الحجرات"<sup>2</sup>.

كذلك المساجد كانت حاضرة في الرواية الجزائرية، وإن كان حضورا مقتضبا. الكاتب "عبد الوهاب عيساوي" وثق لبعض مساجد المحروسة زمن الحكم العثماني والاحتلال الفرنسي. ورصد ما تعرضت له مساجد المحروسة من الهدم والدك لأجل أعمال التوسعة، أو من تحويل لكنائس أو ثكنات للجنود. غير أنه لم يهتم بوصف عمارتها ولا بتاريخ مسار تشييدها وسقوطها.

الكاتب "أحمد زغب" أشاد في روايته (المقبرة البيضاء) بجمالية المساجد في مدينة وادي سوف، المشيدة بمادة الجبس المنقوش والمزخرف بزخرفة إسلامية، تعكس احتياج الإنسان الصحراوي العميق، في التأمل والتساؤل عن ماهية الكون والوجود:

<sup>1</sup> - تيميمون، ص 97.

<sup>2</sup> - تلك المحبة، ص 178.

- "وشرقي الطريق يرتفع المسجد بصومعته العالية المزخرفة بنقوش فنية جميلة، ويحيط به سور مزدان بأعمدة حديدية خضراء، وفي باحته بضع غرسات من النخيل"<sup>1</sup>.

- "لاحظ الشاب سعيد أن المسجد مزخرف من الخارج، بصورة لافتة كأنما هذه الزخرفة تشعر الزائر بأنه ليس في مسجد عادي. إنما يكتسي أهمية خاصة"<sup>2</sup>.

ويعد فن النقش من أقدم الفنون الجميلة، بيد أنه تجلّى أكثر من خلال الحضارة الإسلامية، المهمة بعمارة الأرض، وتقديس بيوت العبادة من خلال حرص مهندسيها على تزيينها وزخرفتها، لإيمانهم القوي أن (قيمة الجمال هي الأكثر عمقا في صياغة منظومة النجاج المعماري الذي يجعلك تقترب من حالة الجمال الرباني)<sup>3</sup>.

وفن النقش على الجبس من أصعب فنون النقش، حيث يتطلب الدقة والتأمل والإمام بعلوم الرياضيات والهندسة، كما يعد الفن الأكثر انتشارا وأهمية لارتباطه بفن العمارة.

مما سبق نخلص أن الروائي الجزائري أدرك بعمق أن العمائر التراثية هي امتداد لتاريخ الفن والإبداع الإنساني، ومراة عاكسة لقيمه الأخلاقية والمادية والروحية والجمالية، عبر الزمان والمكان. والتي استطاع أن يحققها من خلال ما توفر لديه من مواد، ومصادر طاوقية طبيعية. تحقق الراحة النفسية والخصوصية والأمان له، وللطبيعة من حوله. كاستخدامه لمواد من عمق بيئته الجبس والطوب والطين والحجر، وصنعه للفقاقير والنوافير والقبب والأقواس والأعمدة المزخرفة برموز وألوان وأشكال هندسية، تعكس أفكاره ورؤاه وميولاته في الحياة.

### \*سحر النوافذ والشرفات:

مما استوقفنا، الحضور الكثيف والمتنوع للنافذة في عدد كبير من الروايات الجزائرية. حضور لا يمكن أن يكون مجرد تكرار خال من أي دلالة أو جمالية. إنه حضور طاغ يشي بأن له وظيفة في صوغ المعنى، وفي إثراء الدلالة. فضلا عن وظيفته الجمالية، التي تتجاوز تثبيت المشهد أو تأطيره إلى تنشيط الإحساس، وتشغيل الذاكرة. كما تفسح للقارئ أشكالا أخرى للقراءة.

<sup>1</sup> - المقبرة البيضاء، ص 13.

<sup>2</sup> - المقبرة البيضاء، ص 13.

<sup>3</sup> - علي عبد الرؤوف، من مكة إلى لاس فيجاس، أطروحات نقدية في العمارة والقداسة، مدارات للأبحاث والنشر، ط2، القاهرة-مصر، 2014، ص 55.

ويرى الباحث "حسن نجمي" عند مقارنته بين الباب والنافذة، أن الباب مشدود أكثر بوظيفته النفعية، بينما النافذة (تتيح إمكانيات أكثر لبناء المعنى، خاصة ما تتيحه للقارئ من تمثل بانورامي للفضاء اليومي، وأعمق من ذلك. إمكانية التمثل الشذري الذي تفرضه قوة التأطير).<sup>1</sup>

ولعل رواية (الدوائر والأبواب) لـ "عبد الوهاب عيساوي" من أكثر الروايات -التي وقفنا عليها- استحضارا للنافذة. والتي لمسنا من خلال تعددية مشاهدتها إمتلاء قويا بالمعاني.

- "سر حين سمع المطر وهو يجلد القصر والواحات، ومشى بتثاقل إلى النافذة فتح دفتيها، ازداد صوت المطر حدة، وتصاعدت من الأرض رائحتها الممزوجة به، استنشقتها بشره (..) بينما تتبعت عيناه الدوائر التي كانت تشكلها القطرات عند سقوطها"<sup>2</sup>.

- "يمتد منها الظلام والآذان"<sup>3</sup>.

الكاتب هنا وفي عدة مشاهد مماثلة تتبع اللحظات المحزنة للبطل وربطها بالنافذة. ليحملنا على التخيل، تخيل تلك اللحظات المتأزمة التي يعيشها البطل. النافذة هنا عتبة مشبعة بالعواطف والأفكار والتأملات للعالم الخارجي. شكلت معبرا للاتصال بالطبيعة، بالليل والمطر، نقرات قطراته على الأرض وأسقف البيوت، وعبق روائح الثرى، وصوت الآذان يمتد خارقا عتمة الظلام. مما زاد في درامية المشهد، وعمق إحساس البطل بمدى ما يعيشه من تيه، من خلال تأمله في الدوائر التي شكلتها الأمطار على الأرض.

هنا لحظات العزلة اخترقتها أصوات وروائح وحركة الطبيعة من خلال النافذة، التي رغم صغر هندستها المعمارية استطاعت كسر رتابة الوحدة والسجن، وأشعرت البطل بنشوة ودهشة الحياة خارجا.

- "يعتذر القنصل ثم يرحل، أعاد سريري، وأنظر من نافذة البيت إلى البستان، لا أدري كم من المرات طالعت بها خلال سنوات، ولكنني لم أنتبه إلى أزهار اللوز التي يتصاعد شذاها إلى الأفق، أملاً صدري من عبقها، فتعود بي إلى أيام الطفولة"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - شعرية الفضاء، صص 123-124.

<sup>2</sup> - الدوائر والأبواب، صص 46-47.

<sup>3</sup> - الدوائر والأبواب، ص 95.

<sup>4</sup> - الديوان الإسبرطي، ص 261.

لم تكن النافذة هنا مجرد إطلالة على حديقة جميلة، بل صارت عاملا ومحفزا للذاكرة للعودة بها إلى عالم الطفولة من خلال شذى نوار اللوز المتصاعد منها.

معماريًا، تؤشر النوافذ في الرواية الجزائرية إلى النمط المعماري المغربي. نوافذ متوسطة الحجم، ذات مصراعين خشبيين وزجاج. في حين غابت النوافذ الحديثة التي تغطي الجدار كله. وهذا يجعلنا نعتقد أن الكتاب تعمدوا توثيق المعمار الإسلامي المغاربي.

النافذة، غالبًا من الظواهر المعمارية والجمالية التي تحضر بكثافة في الروايات الواقعية والصوفية. ذلك أنها تمكن الكتاب من الانتقال إلى الوصف والتأمل، ودخول الشخصيات في حالات العزلة والاستذكار.

يقول "فليب هامون" عن النافذة عند "إميل زولا": (وتعد النافذة من جملة هذه الإكسسوارات التي ترافق الشخصية دائما عند زولا في كينونتها وفي فعلها، فهي بالتأكيد مكان مفضل من أجل الانتقال إلى الوصف).<sup>1</sup>

إنها أيضا أفضل مكان للمسح والجرد، وشاشة طبيعية للحظات الحميمة، وللحلم والاستشراق والاستذكار. وإن كانت بعض الروايات تعرضت لسحر النوافذ والشرفات، وجاذبية إطلالتها على البحر أو معالم المدن أو الأحياء العريقة، فإن بعض الروائيين تنبهوا لجمالية ونشوة الدخول إلى المدن لأول مرة عن طريق البحر. وسحر ودهشة رؤيتها لأول وهلة من على ظهر السفن.

وهذا ما يمكن رصده بصورة لافتة في الروايات التي تناولت مواضيع الصيد والهجرة والمعارك البحرية ومغامرات الرياس والقرصنة كروايات "مرزاق بقطاش" و"واسيني الأعرج" و"عبد الوهاب عيساوي".

يوثق "واسيني" هذه اللحظات لمدينة وهران من على سطح السفينة، في أول زيارة لها للبطل المنفي من غرناطة: -"السفينة تشارف على ميناء وهران، كان الفجر قد بدأ يلوح في الأفق من وراء جبال عندما بدت مرجاجو، وبدت سانتا كروث عالية وشامخة، وجبال المدينة كما تحدث عنها جدي تماما، وهو يكتشفها في

<sup>2</sup> - سيميولوجية الشخصيات الروائية، ص 125.

نزوله الأول في أول ميناء غريب. مخيف أحيانا أن ترى مدينة وتكتشفها وأنت تدخلها عن طريق البحر والصدفة، سحر وجاذبية خاصة وحنان ودهشة، وخوف مضمّر لا تعلم أبدا مصدره.<sup>1</sup>

أيضا رؤية المدينة من مكان مرتفع، له وقعته الخاص في النفس. إنها إطلالة مثيرة وخالصة. يصف الكاتب "الحبيب السائح" مدينة تونس من موقع عال:

- "خرج كمال بكريم إلى "فوق" فبدت المدينة لاهثة عابرة فوق القصب، على نزول مساء مغر بأنواع اللذات بين انكسارات الأضواء في واجهات الشوارع هنا وهناك."<sup>2</sup>

ويرى الكثير من النقاد أن الروائيين الواقعيين يفضلون النظرة عن باقي الحواس. فهي التي يرونها الأنسب لتمير مشاهدتهم الوصفية.

### 1-3 جدلية المدينة بين الماضي والحاضر:

تعرف مدن العالم اليوم تحولات عميقة على الصعيد العمراني. إذ بدأت طرز معمارية حديثة تغطي على الطرز المعمارية التراثية. بسبب تنوع الوسائط الإعلام، وتطور وسائل الاتصال، والانفتاح على الآخر. هذا الأمر ساهم في تحجر العمارة من المرجعيات والأشكال المتعارف عليها. وولد نماذج عمرانية متشظية الشكل والهوية. مما أدى ترك أثره الكبير على بنية المدينة ومعالمها، وذاكرتها التاريخية. وزج بسكانها في حالات من الاغتراب والتوتر.

من هنا تولد الجدل والسجال بين دعاة الحداثة والتجديد، ودعاة التمسك بالمرجعيات والثوابت من النماذج والأساليب.

<sup>1</sup> - البيت الأندلسي، ص322.

<sup>2</sup> - تماسخت دم النسيان، ص153.

الرواية الجزائرية رصدت هذا التغير والتحول الذي طال أنظمة المدن الهندسية، وتصميماتها المعمارية وعمائرها التراثية. كما عرضت لهذا الجدل بين الماضي والحاضر، وبين الذاكرة والمعاصرة. دون أن تحمل ظواهر نهب وسرقة الآثار أو طمرها وتدميرها.

يلتفت الروائي "رشيد بوجدره" إلى الإهمال الذي طال كاتدرالية مدينة المنيعه، نتيجة الإهمال والهجر، على غرار ما حدث للكثير من المعالم الأثرية والقصور والمعابد والأزقة التراثية العريقة.

- (ليلة البارحة حدثت صراء عن كاتدرالية المنيعه وقد شيدها منذ قرن ونصف القسيس دي فوكولد في وسط صحراء الجزائر، فتظهر من بعيد وكأنها شبح ضخم وقد تخرت وأكل الدهر عليها وشرب).<sup>1</sup>

هذا المعلم الكولونيالي الأثري، شاهد على حملات التنصير بالجزائر إبان الاستعمار، وشاهد على حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الجزائر الثوري.

من جهته يرصد "أحمد محمد زغب" التحولات التي طالت عمران مدينة الوادي، ويرجع هذه التحولات إلى رغبة الإنسان في البقاء والخلود من خلال ما يشيده من عمائر حديثة رأسية، مصممة بإحكام، وبمواد تبدو له أكثر صمودا لعوائد الزمن كالإسمنت والحديد:

- "يجد الزائر بعض المفارقات بين هذه البنايات التقليدية المتزاحمة، وبين بعض العمارات العالية القليلة ذات الشرفات الأنيقة، التي تزين جنبات الطريق في بعض أنحائه، والتي تشمخ متحدية، وكأنها تقول في عناد وكبرياء... علام يدل وجودي في هذه المدينة المغمورة في الكثبان والصحاري؟ ألا يدل على أن الإنسان تحدوه رغبة ملحة في البقاء والخلود؟

إنها عمارات مصممة بعناية تصرخ بأن الإنسان متشبث بالحياة إلى أقصى حد فهي ملك لأشخاص أفنوا أعمارهم في الكسب والاكتساب والتعمير".<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - تميمون، ص 104.

<sup>2</sup> - المقبرة البيضاء، صص 11-12.

بل ويتجاوز الكاتب "أحمد زغب" أسباب التحول في العمارة من ضرورة التطور ومواكبة التكنولوجيا، إلى رغبة الإنسان في التفاخر والتباهي على أصحاب العمائر التراثية التقليدية:

- "يتباهى أهل البنايات الشاخنة على أصحاب البنايات الجبسية المتواضعة. وفي المباهاة والمفاخرة لذة ما بعدها لذة".<sup>1</sup>

الروائي "الصديق حاج أحمد" حرصا منه على التوثيق، حمل على عاتقه هو الآخر جرد القصور العتيقة لمدينة أدرار، والتي هجرت أو الآيلة للتغير أو الهجر، وأردفها بتهميشات مفصلة، تتضمن موقع كل قصر وتاريخ تأسيسه، وبعضا من علمائه المشاهير كقصر تمنطيط الذي هُجر، والذي كانت تسكنه الجالية اليهودية. وقصر تليلان وملوكة وأنزجيمير، وقصور أقبلي وقصر أولاد سعيد والمطارفة. كما رصد لظواهر تحول عمران القصور الصحراوية التي تعرضت لموجة الحداثة، فطمست هويته، وأنساقه الثقافية، وقوضت ذاكرته.

- "يكون القصر عندها، قد لبس ما أراد الله له أن يلبس من فنون الحضارة، وأذاب معظم طينه، وانطمست أغلب عاداته وأعرافه، وغارت عين فقارته، وبدأ نجم نخيل سباخه في الأفول".<sup>2</sup>

هذا وانتقدت "مليكة مقدم" البنايات الحديثة التي لا تنسجم مع مناخ المدن الصحراوية، فشبهتها بالورم الخبيث الذي أحاط بالقصر التراثي الجميل، فشوهت بذلك صورة المدينة:

- "اكتشفت بلدة ضخمة وأنا مدفوعة بتدفق الصلوات. نبتت مثل ورم على جوانب القصر. لا أعرف هذه الأزقة التي تعرض نفسها عارية لسادية الشمس (...). الآن، تعرض هذه البنايات، المخربة قبل اكتمالها، شقوقها، نفاياتها، خواءها، وتحولت إلى رموز لقبح وبلادة الأزمنة".<sup>3</sup>

وترثي الروائية في موضع آخر القصور التراثية نظرا لما آلت إليه من هجر وتخريب. هذه القصور التي لم تعد لها أية قيمة جمالية إلا في عيون الغرباء والسياح، أما سكانها الأصليون فقد استبدلوها ببنايات حديثة مبنية من الإسمنت بدلا من الطين:

<sup>1</sup> - المقبرة البيضاء، ص 16.

<sup>2</sup> - المقبرة البيضاء، صص 11-12.

<sup>3</sup> - المنوعة، ص 23.

- "ثم إن القصور ليست ثمينة إلا لدى السواح النادرين، الباحثين عن الغرائبية ولدى أولئك الذين لا يسكنونها. أما أنا، فأتفهم أن سكانها يضحون بالجمال من أجل قليل من الرفاهية وأسقف لا تذوب طينا لأدنى مطر. يقال بأن القصر لا يأوي الآن إلا الماعز والخرفان وبعض الحمير الذين نجوا من غزو المحركات"<sup>1</sup>.

البنائيات الحديثة حسب الكاتبة، وإن كانت تحقق راحة ورفاهية، فهي كتل جرداء صماء بلا روح. تخلو من العلاقات الحميمة التي تجمع بين الأحبة وأفراد الأسرة. كما أنها ساهمت في غياب الكثير من القيم الإنسانية الجميلة، التي كانت تعكسها البنائيات التراثية.

- "إن المنازل الحديثة تملك كثيرا من الرفاهية وقليلًا من الجود. الحداثة؟ تبهرننا بإنجازاتها ولكنها تغلق أبوابها على جزء صغير من الناس فقط (...). الآن، أنفى البعد ما تبقى من العلاقات، وحطم التضامن."<sup>2</sup>.

الكاتب "عبد الوهاب عيساوي" يؤمن أن نمط العمارة هو جزء من الهوية، وتغييره هو تغيير للهوية، لذلك انتقد على لسان بطله المهندس عمران ما آل إليه مقهى الإسكندر بمدينة جلفة، بعد إعادة ترميمه، وتحديثه بإزالة أقواسه الداخلية، واستبدالها بأشكال مربعة ومستطيلة.

- "أتعرف يا سعيد إن أجمل شيء كان هنا هو الأقواس التي تزينها من الداخل، كانت تمنحها شيئًا من الهوية"<sup>3</sup>.

الكاتب "واسيني الأعرج" عرض كثيرا في أعماله الروائية لتلاشي ماضي عمارة المدن التراثية، ورثى في كثير من المشاهد التحولات المخزنة لعمران المدن، واستسلامه للحداثة والعصرنة التي أفرغته من ذاكرته. كانتقاده لمقام الشهيد، الذي وصفه بالقبح، وبالمعلم الفاقد لهويته. كما توجه أيضا بانتقادات لاذعة للمسؤولين في الجزائر على

1- الممنوعة، ص 88.

2- الممنوعة، ص 177.

3- عبد الوهاب عيساوي، سينما جاكوب، دار فيسيرا، ط1، الجزائر، 2013، ص 14.

إهمالهم لذاكرة المدن العمرانية. على غرار رثائه لمدينة الجزائر القديمة في (حارسة الظلال) التي تعرض فيها كثيرا لهندسة المدينة وتخطيطها الحداثي، ولعراقه عمرانها التراثي. وأسهب في عدة مقاطع في وصفها بالمدهشة والموغلة في القدم، وتساءل بحزن عن مصير قصور رياستها وحدائقها ودروبها العتيقة ومساجدها القديمة وسراديبها وحصونها.

- "كل شيء اليوم اندثر. حتى الأماكن الرمزية غطتها البنايات العالية لتصبح المدينة كيان بدون ذاكرة. عقلية المحو والفراغ سحبت كل شيء في إثرها."<sup>1</sup>

الكاتب عرض أيضا لظاهرة نهب الآثار وبيعها للأجانب. كالنصب التذكاري لسرفانتس. فضلا عن تحويل بعض الأماكن التراثية المهمة إلى مرمى نفايات، أو مسحها كلياً واستبدالها بساحات عمومية أو منشآت عمرانية. واصفا مدن اليوم بالغبية والمجنونة حد الإدهاش والخوف.

وما بين سجال طويل بين ثنائيات الماضي والحديث، الأصيل والوافد. يشيد أغلب الروائيين الجزائريين بالمعمار التراثي الأصيل، ويستنكرون المسخ والتمزق الذي طاله، على حساب الذاكرة الجماعية والراحة النفسية، والعلاقات الإنسانية الحميمة لسكن المدينة الأصليين.

يمكن أخيرا أن نختتم جدلية ماضي عمارة المدن وعمرانها وحاضرها المستحدث، برأي المفكر اللبناني "علي حرب" في إطار حديثه عن التحولات العميقة التي عرفتها المدن العربية من حيث شكلها العمراني، يقول إن الرهان الأمثل هو (العمل على تشكيل نماذج وطرز في العمارة تؤمن التوازن بين الذاكرة التراثية والتقنيات المستحدثة، بحيث يقوم على تلاؤم وتفاعل في هندسة المدينة بين الحاجات النفعية والرمزية أو بين الأبعاد الخلقية والجمالية)<sup>2</sup>.

وهذا بالتحديد ما يجب أن يؤمن به الروائيون الجزائريون. الانفتاح على فرص التجديد والتحديث الراهنة، مع التمسك بالتراث المعماري، والمحافظة على جماليته المتماشية مع ذاكرة المدينة وتاريخها وطبيعتها المناخية، ونظمها الثقافية والاجتماعية والعقائدية.

<sup>1</sup>- حارسة الظلال، ص191.

<sup>2</sup>- حديث النهايات، ص158.

المبحث الثاني: ديستوبيا<sup>1</sup> المدينة العنيفة

## 1-2 مآسي المدن

## -الحروب والجرائم:

المتتبع للمسار التاريخي للرواية الجزائرية يلاحظ أنها تقترب غالبا بالغزو الفرنسي بداية القرن التاسع عشر، والثورات الشعبية، وبالثورة التحريرية الكبرى في المنتصف الثاني من القرن العشرين. والتناحر بين الإخوة لأجل السلطة بعد الاستقلال. والعشرية الدموية في تسعينات القرن العشرين. فضلا عن الحروب الصليبية في عهد الحضارة الأندلسية. والحربين العالميتين في القرن العشرين. وجرائم المافيا، وعصابات الشوارع، وتجار الأسلحة والممنوعات.

عدد كبير من الروايات التي ألفها أصحابها منذ خمسينات القرن الماضي إلى اليوم تتعرض إلى الاحتلال الفرنسي والحرب التحريرية الكبرى. وجميعها تنطلق من خيار الرفض والمجابهة. باستثناء القلة القليلة منها من حاولت أنسنة المحتل ودعت للتعايش معه، بصفته راعيا للحضارة والسلام، على غرار ما نجد في رواية (مريم بين النخيل) لـ "محمد ولد الشيخ آغا" الذي وسم العدو المحتل بالإنسانية والتحضر. و"ياسمينه خضرا" في روايته (فضل الليل على النهار) الذي أرجع تشييد المدن والمصانع والورشات وحل مظاهر الحضارة في المدن إلى الاستعمار الفرنسي، دون أن ينفى وحشية المحتل في كثير من مشاهد عمله.

هذا ورصدت الكثير من الروايات ما جرى في المدن الجزائرية من قتل واغتصاب واغتتيال وتنكيل في سنوات التسعينات. وتراكمت بمشاهد الذبح والدم والانفجارات، وبت الأعضاء وقطع الرؤوس. حتى غدت المدن الجزائرية فضاءات للأزمة والعنف.

الروايات الجزائرية، تعدت الإرهاب والعنف الذي يحدث على أرضها وتجاوزته لنقل مشاهد العنف في المدن الشرقية والغربية والآسيوية أيضا.

1- ديستوبيا: أدب المدينة الفاسدة.

في (أقاليم الخوف) ترصد الكاتبة "فضيلة فاروق" مشاهد كثيرة حول العنف في المدن العربية. العمليات الإرهابية والانتحارية في الأماكن العامة، الحروب الأهلية وصراع الطوائف الدينية، والتيارات السياسية كما حدث في حرب بيروت. وتنقل بأسى مشاهد المعطوبين والأرامل والأيتام. وخراب العمران. ومظاهر الفقر والحاجة والدعارة. والهجرة والهنوسة التي خلفتها الحرب.

- "وقبل الثاني عشر من تموز/ يوليو 2006.

كنت أحاول أن أضمد جراحي من لوعة الشرق حين تعرضنا لانفجار عنيف إثر هجوم انتحاري في ((شرم الشيخ)) بمصر، ذهبت ضحيته والدتي، وأخي الوحيد أسعد، والدي ظل معطوبا، يعاني الإعاقة في قدميه.<sup>1</sup> كما أشارت الكاتبة إلى ظاهرة انتشار الخاديات في بيوت بيروت، واستغلالهن، ومعاملتهم بقسوة. وإلى جرائم المتاجرة بالأعضاء البشرية، والأسلحة، واختطاف الأطفال والنساء واستغلالهن في عدة أمور لا إنسانية.

استطاعت الكاتبة "فضيلة فاروق" في مقاطع سردية ووصفية سريعة وقصيرة أن تجوب عدة دول ومدن شهدت ولا تزال لعنة الحروب والعنف، والمنظمات السرية التي تؤجج نار الحروب في العالم؛ مصر، ليبيا، فلسطين، لبنان، أفغانستان، باكستان، فلسطين وغيرها.

- "هنا درافور. هنا ليبيا. هنا تشاد. هنا مصر. والحرب هنا (..) هنا وهنا وهنا!. تجار الأسلحة والمخدرات والأعضاء البشرية، والرقيق!"<sup>2</sup>.

- "بغداد في تلك الصبيحة الربيعية سنة 2006 مدينة تعيش بدون شمس. لقد سبقت العالم إلى عصر الظلام."<sup>3</sup>.

الروائي "واسيني الأعرج" عرض إلى أشد ما يمكن أن تصل إليه مراحل العنف في المدن. في مدينته المتخيلة جملكية نوميدا أمدوكال في روايته (رمل المائة). مدينة تعيش الجنازات الدائمة والمتكررة. كل من يقول الحق من رعاياها يقتل أو يفقد حواسه وذاكرته، أو يتحول إلى حجر. وتوغل في تاريخ المدن العربية في العصرين العباسي والأندلسي. الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش التي صور من خلالها أشد صور التعذيب والتنكيل التي سلطها

<sup>1</sup> - فضيلة فاروق، أقاليم الخوف، رياض الريس للكتب والنشر، ط1، بيروت-لبنان، 2010، ص11.

<sup>2</sup> - أقاليم الخوف، صص56-57.

<sup>3</sup> - أقاليم الخوف، ص76.

الصليبيون على مسلمي الأندلس. وعرض إلى خراب المدن وسقوطها، وإلى ظاهرة قتل العلماء وتعذيبهم. والصراع لأجل السلطة، وخيانة الحكام، وإذلال الرعية وإهلاكها.

- "ولكني لم أر إلا الظلمة والشوارع المغلقة الميتة رأيت جيوشا تمتطي الأسلحة الرشاشة والسيوف المعقوفة، رأيت الأبواب العالية تسقط مثلما تسقط المدن الرائعة، كان الرصاص يلعلع، وبين الرشقة والرشقة أرواح تزهق وضباب."<sup>1</sup>.

الكاتب عرض أيضا لما يتعرض له كل من يتجرأ على قول الحقيقة وتعريتها من تنكيل وتعذيب من طرف الحكام. كالمراسل الصحفي حسيسن في (حارسه الظلال). الذي تم اختطافه وبتر أعضائه. ليترك محصيا، ودون لسان. بعدما اكتشف ظاهرة تهريب الآثار الوطنية خارج البلاد. والبطل بوجيل في (حمائم الشفق) الذي تم اختطافه هو الآخر، وتعرض لأشد أنواع التنكيل، وبتر الأعضاء قبل أن يتم رميه في البحر ليلقى حتفه غريقا.

المدن التي عرفت الحروب والعنف وصفها الكتاب بالموحشة، والعنيفة، والكئيبة، والمريضة، والمقفرة، والمفتوحة على جهنم. تقحم سكانها في متاهات من الرعب والخوف، والكوابيس والعزلة والوحشة. والرغبة في الانتحار أو الانتحار كما فكر وفعل أبطال رواية (تيميمون) و(تماسخت. دم النسيان) و(سيده المقام). سائق الحافلة السياحية في (تيميمون) الذي كانت تلاحقه أخبار الاغتيالات يوميا عبر أثير الإذاعة في فترة العشرية السوداء. ففضل أن يحمل معه في جيب سترته حبوبا يستخدمها للانتحار إذا أحس بالخطر. والصحفي كريم في (تماسخت) الذي سقط في دوامة الكوابيس المرعبة، بعد أن فقد معظم رفاقه في المهنة، واستحالت مدينة وهران إلى مسرح للانفجارات والذبح والتنكيل ففضل الهروب من وهران إلى تونس والمغرب ليعود إلى مدينته خائبا بعد أن فشلت محاولاته في طلب اللجوء السياسي. والأستاذ في (سيده المقام) الذي فضل الانتحار بدلا من العيش في مدينة مرعبة، بات فيها كل شيء فاقد لمعناه.

- "مدينتنا سرقت منها مثلما تسرق النجوم. أصبحت قديمة وعتيقة كأنها ميت يخرج من تحت الأنقاض."<sup>2</sup>.

وتماهى على مدار روايته في نقل مشاهد الاغتيالات والتحويلات السياسية والاجتماعية التي طرأت على مدينة الجزائر العاصمة، بعدما سحبت الدولة كما يقول يدها من المدينة، وتركبتها للصراعات والعنف.

<sup>1</sup> - رمل المائة، ص124.

<sup>2</sup> - واسيني الأعرج، سيده المقام، مراثي الجمعة الحزينة، منشورات الفضاء الحر، ط1، 2001، الجزائر، ص16.

الكاتب "أمين الزاوي" هو الآخر عرض في مشاهد كثيرة، وبعض التفاصيل إلى الجريمة والعمليات الإرهابية فترة العشرية السوداء. المنظفة حفيظة التي اختطفت منذ أن كانت تلميذة في الثانوي، واغتصبت، وقتل صغيرها. فتعرضت لأزمة نفسية حادة. والشرطي فتحي الذي اغتيل أخيه بالخطأ بدلا عنه. وزوجته التي أصيبت بانحيار عصبي أدخلها إلى مصحة الأمراض النفسية، وابنته التي حاولت الانتحار مرارا. فضلا عن أنواع الجرائم التي باتت سمة من سمات المدن الحديثة. يقول الكاتب واصفا المدينة الجزائرية الحديثة:

- "فمع تشكل المدينة الجزائرية الجديدة، على مدى نصف قرن، فقد تشكلت معها الجريمة الجزائرية، وبمواصفات خاصة (..) فالجريمة واحدة من خصوصيات المدن التي تتعقد فيها العلاقات الإنسانية والاجتماعية، وتتقاطع فيها الثقافات والأحلام".<sup>1</sup>

يتسابق الروائيون غالبا في توثيق أهم الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم. ليس فقط ليظهروا مسيرتهم للحياة اليومية، أو ليحفظوا بمرتبنة السبق في التوثيق والتسجيل. بل ليطرحوا رؤاهم وأفكارهم وآراءهم فيما يحدث في العالم بعين وقلم فنيين.

في (رماد الشرق) و(سوناتا لأشباح القدس) يؤرخ الكاتب "واسيني الأعرج" حادثة تفجير البرجين في مدينة نيويورك. برجان كانا يبدوان أزليين بشموخهما. طالتهما التفجيرات، لتغرق المدينة فترة من الزمن في دوامة من التيه والإرباك والرعب.

- "عندما يسرح بعينيه، يشعر بالفراغ الذي خلفه التفجير الذي مسح البرجين عن آخرهما"<sup>2</sup>.

الروائي الجزائري وثق للحروب لدوافع إنسانية سامية، لأجل المناذاة بالتعايش وتقبل الآخر المختلف. ولأجل التذكير وأخذ العبر من الماضي والتاريخ. ولتوعية الناس بخطورة النتائج المترتبة على الصراعات والتناحرات. كذلك لتسجيل البطولات ورفع الهمم، ودحضا للإذلال والنبذ.

- "لم يكن القتل يوما واجبا مقدسا اتجاه الرب"<sup>3</sup>.

- "الحرب حماقة الإنسان الأولى"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - أمين الزاوي، الملكة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2015، ص77.

<sup>2</sup> - سوناتا لأشباح القدس، ص66.

<sup>3</sup> - تلك الحبة، ص192.

<sup>4</sup> - تلك الحبة، ص193.

لا تختلف رؤية باقي الكتاب الجزائريين كثيرا عن رؤية "الحبيب السائح". فهم يشتركون في نفس المبادئ تقريبا فيما يخص الحرب، باستثناء بعض المواقف التي تنادي بالتغيير ورفع الظلم. أو بالتعايش والانفتاح على ثقافة ورؤى الآخر.

في مشاهد مليئة بالأسى والحسرة، يصف الكاتب وضع مدينة سعيدة الما بعد كولونيلية، وصفا يبعث في النفوس إحساسا بالفراغ والضياع والتهيه. مدينة علق أهلها آمالا كثيرة على الاستقلال. غير أنهم أضحوا منجرفين مع تيار خيبات متتالية. زمن ساكن، ومدينة مثقلة بآثار متدهورة، هالكة. لا تعرف للتجديد ولا للفرح مكانا.

- "وبصير كل شيء بلا دلالة منتثرا في بلاد نثر ذاكرته في مهيب ريح كالتني تخنق هذا الصباح وتعوصفه. فيطل صراخ متحشج ينطلق من أعلى نوافذ برج دار البلدية المتهشم زجاجها (..) الزادم عليها حمام برهوش يزق كثيرا ولا يسمع له هديل، يعمر أبراجا يعوي فيها الخراب والقر.<sup>1</sup>

#### - الدعارة:

الدعارة هي الأخرى ظاهرة تلازم المدن. وقد عددها عدد من الأدباء والدارسين من أبرز ما يميز قبحيات المدينة (البغاء مفرز مديني، والبغي إحدى لعنات المدينة، إن لم تكن ألعتها على الإطلاق)<sup>2</sup>.

وموضوع الدعارة موضوع خاض فيه الكثير من الروائيين العرب. كـ "نجيب محفوظ" و"إحسان عبد القدوس" و"حنا مينه" و"يوسف إدريس". ومنهم من ارتقى به إلى مستوى التيمة الكاملة، فكانت بطلته الرئيسية مومسا، ومنهم من اكتفى به كحكاية فرعية فحسب، أو أشار إليه فقط.

الأعمال الروائية الجزائرية هي الأخرى لا تكاد تخلو من هذه التيمة التي تلازم المدن ومغامراتها. كرواية (عرس بغل) لـ "طاهر وطار"، الذي عرض لعالم العهر والدعارة في ماخور بكثير من التفاصيل. عرى من خلالها الظروف التي تدفع بالنساء للتجار بأجسادهن. وصور العراكات التي تحدث بشكل متكرر داخل المواخير.

ظاهرة اللواط والاعتصاب والعنف ضد الأطفال القصر والمرأة، واستغلالهم، والمتاجرة بأجسادهم هي أيضا من التيمات التي تندرج ضمن البغاء، والتي تطالعنا كثيرا في الرواية الجزائرية: "فضيلة فاروق" في (تاء الخجل) و(أقاليم الخوف). و"أمين الزاوي" في (الملكة). و"الحبيب السائح" في (الموت في وهران) و(تلك المحبة) و(تماسخت دم

<sup>1</sup> - ذاك الحنين، ص 77.

<sup>2</sup> - مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دط، الكويت، 1995م، ص 101.

النسيان). و"رشيد بوجدره" في (التفكك) و(تيميمون). و"عبد الوهاب عيساوي" في (الديوان الإسبرطي) و(سينما جاكوب). وغيرها الكثير.

المواخير، وظاهرة العهر من الأمور الأكثر انتشارا والتصاقا بالمدن - كما ذكرنا آنفا- وغالبا ما تكون مرتبطة بجرائم القتل. الكاتب "واسيني الأعرج" يطالعنا بقصة طيطما المرأة التي كان يجد عندها البطل صويلح ملاذا وسكنا عند زيارته لماخورها في مدينة سيدي بلعباس. والتي قتلت على يد زوجها العسكري الذي اعتقدت أنه بعد اعتزالها وخروجها من عالم الدعارة ستجده الزوج المثالي الذي سيخلصها من بؤس ما كانت تعيشه. لكن نهايتها كانت على من ظنته مخلصها.

- "مر في الدرب الضيق المؤدي إلى فلاح اللفت الصدى. نفذت إلى أنفه روائح الماخور الملتبسة بالحب والكراهية. مرت برأسه أفكار عدة. تذكر الجزء القديم في البراريك. العهر والقتل والمطاوي التي لا تعرف الأغماد"<sup>1</sup>.

الكاتب أراد من خلال قصة طيطما وابنتها أن يعكس لنا واقع مدن الجزائر بعيد الاستقلال. واقع علق عليه أبناء الجزائر آمالا كثيرة تبددت بعد أن تسلط الطامعون على المراكز الحساسة للدولة. ولم ينل الكادحون والثوار الحقيقيون وأبناءهم سوى التهميش والنبد والسجون.

وحول الحديث عن ظاهرة الشذوذ، تطالعنا قصة الفتى سلو، المتهم بالثلثية في رواية (تلك الحبة). والذي كان معظم وقته يقضيه مع المغنية حسونة في الأعراس والحفلات النسائية. فكانت ترعاه وتصرف عنه إهانة النساء، وتحرش الرجال. قصة سلو التي أراد الكاتب أن يعري بها عالم المثلية المسكوت عنه غالبا في المدينة العربية الإسلامية. والذي غالبا ما تفرزه حيوات القهر والحرمان والتفكك الأسري الذي يدفع بالشباب إلى المتاجرة بأجسادهم.

<sup>1</sup> - نوار اللوز، ص 63.

في (تلك المحبة) حياة العبيد البائسة، ومجتمع الطبقة في مدينة أدرار، هو الذي أفرز مثل هذه الظواهر. المثليون من النساء المحرومات والشباب المقهور، والنسوة المملوكات اللواتي كن تحت رحمة أسيادهن، رغم أنهن كن متزوجات، إلا أن أسيادهن كانوا يستبيحون أجسادهن.

"وكان جدي حتى بعد ذلك الزواج كثيرا ما عاد فوجد عند عتبة بيته نعلي سيده، إشارة إلى أنه يواقعها. فعاد من حيث أتى. فلا يرجع إلا بعد أن يتأكد أن سيده قضى منها وغادر."<sup>1</sup>

"ما من امرأة صدقت أن نجمة صبرت مدة العدة على الجماع، إلا أن تكون ساحقت كثيرا من أولئك البنات وبعض صديقاتها الشابات."<sup>2</sup>

عالم شاسع من الزنا والمثلية والسحاق يتعرض له الكاتب بجرأة كبيرة في مدينة معروفة بمحافظتها كمدينة أدرار. وبقينا فلا يعود هذا لسبب تجاري وترويجي للعمل الروائي، أو لمجرد الحشو بالحكايات الشاذة لجذب القارئ وإدهاشه. إذ أن مسار "الحبيب السائح" الكتابي الناجح يفند هذا. وإنما السبب يعود قطعاً لفعل التعرية، وكسر الطابوهات. فالمدن متشابهة في عهرها. وإنما الفرق في قدرة أهلها على التخفي أو المجاهرة.

### – القدرة:

تعرض الناقد "صلاح صالح" في كتابه (المدن الضحلة) إلى ظاهرة تثريب الكتاب العرب لمدنهم، يصفونها بالقبح، والقدارة، والتخلف. ويسخطون على عمرانها ونظمها الاجتماعية والثقافية. في حين يسردون المدن الغربية بالتركيز على جمالياتها. وذلك كله حسب رأيه استرضاء للقارئ الغربي. كما يرى أن من الساردین العرب من بالغ في سرد قبح المدينة، ولو افتراء على الواقع. على غرار ما نجده في رواية (الحبز الحافي).

غير أننا لاحظنا أن في الأمر مبالغة. فليس كل الكتاب العرب كذلك. فالروائيون الجزائريون في واقع الأمر لم يصل بهم التثريب حد كراهية مدنهم، والافتراء عليها.

1- تلك المحبة، ص81.

2- تلك المحبة، ص62.

مدن الجزائر تقع في موضع وسط من حيث القذارة. ليست بالنظيفة جدا ودوما، وليست بالقذرة جدا ودوما. وغالبا ما ارتبطت قذارتها بساحات الأسواق، وأحياء الفقراء، ومراتع المتسكعين والمتسولين، وأحياء دور البغاء والمواخير. ببصاق وروائح البول، وأكوام النفايات والفضلات. التي تحضر دوما مرافقة للإضراب والحرب والجريمة والفقير.

مدينة سيدي بلعباس وفي أحيائها الفقيرة والمهمشة عرفت الجريمة كما عرفت انتشار القذارة التي قللت من جماليتها. وقد التفت الكاتب "واسيني الأعرج" لظاهرة القذارة في الأحياء المهمشة، فسجلها في روايته (نوار اللوز) كنوع من تعرية الواقع. واقع المدن الكبيرة التي تتظاهر بالجمال والرقي، في حين أن هذا الجمال لا يتجاوز حدود الشوارع الرئيسية.

أزقة معتمة بالية، وأطفال يتبرزون ويواصلون لعبهم بأوساخهم. والروائح الكريهة تعبق من كل زاوية، والجرذان تعشش في كل الأمكنة.

- "الصراخ والأوساخ، تملأ جوف هذه الأزقة المظلمة."<sup>1</sup>

- "ورائحة الأدخنة التي تحجب سماء سيدي بلعباس الكئيبة، بجعل وراء الغيوم المثقلة بالهم. ويضاف إلى كل هذا رائحة الأوساخ والجرذان التي تعشش في مثل هذه الأماكن."<sup>2</sup>

الكاتب "أمين الزاوي" هو أيضا وبعيون بطله الصيني التفت لظاهرة القذارة التي تعرفها شوارع الجزائر العاصمة في حالات إضراب عمال النظافة عن العمل.

- "وإذا الصباح يطل عليّ من خلال سماء غائمة حزينة على وشك أن تنهمر مياها فوق الشوارع الوسخة، وتلال القاذورات المتراكمة على الأرصفة. عمال النظافة في إضراب."<sup>3</sup>

الكاتب "حاج أحمد الزيواني" تطرق إلى تثريب المدن من خلال تعرضه لظاهرة القذارة في مدينتي تمنراست ونيامي في روايته (كمراد، رفيق الحيف والضياع). غير أن هذا التثريب لم يكن مجرد التعريض لقبحيات المدن فحسب، وتعرية وجهها الخفي المعتم، بل للغوص عميقا في البعد الاجتماعي لمدن الجنوب الإفريقي المهمشة والمهملة.

<sup>1</sup> - نوار اللوز، ص 62.

<sup>2</sup> - نوار اللوز، ص 62.

<sup>3</sup> - الملكة، صص 40-41.

- "سارت بهما مركبة الأجرة شبه القديمة نحو المدينة، كانت مناظر القمامة والأوساخ على الأرصفة من أبرز الأشياء التي تستقبل بها المولاة (نيامي) زائريها".<sup>1</sup>

- "مكث مدة يشاهد الحالة العامة للحي، بيوت طينية بئسة، مغطاة بأعواد الكرنك، الأوساخ والقمامة في كل مكان دون استثناء".<sup>2</sup>

يسجل الروائيون الجزائريون ظاهرة القذارة كنوع من تصوير الواقع، والكف من نقل صور مثالية للقارئ. إيماناً منهم بأن الكتابة عين فنية تشي بالمرئي واللامرئي، بالمركزي والهامشي، بالجميل والقبيح.

<sup>1</sup> - كامراد رفيق الحيف والضبياع، ص 20.

<sup>2</sup> - كامراد رفيق الحيف والضبياع، ص 23.

## 2-2 الأوبئة والحوادث والكوارث الطبيعية في المدن:

لعل الأوبئة، والأمراض المعدية من أشد مآسي المدن، والتي غالبا ما تنتشر بسبب الحروب والمجاعات والفقر. وتنطلق غالبا من الأحياء الفقيرة المهمشة التي يقطنها الفقراء والمهاجرون بطرق غير شرعية.

عدد من الكتاب الجزائريين أشاروا إلى انتشار الأوبئة وتفشيها في سنوات ومدن مختلفة من الجزائر. لكنهم لم يقفوا مطولا لذكر تفاصيلها، واكتفوا غالبا بإشارات عابرة لا تتعدى الأسطر. ولعل رواية (الطاعون) لـ "ألبير كامو" من الروايات التي يندر إيجاد مثلتها في وصف شامل وتفصيلي لمعاناة مدينة من الوباء.

الكوليرا من الأمراض الخطيرة جدا التي كان يتكرر ظهورها وتفشيها بشكل مستمر في المدن والقرى والبادي. وقد أرخ لوقوعها الكاتب "ياسمينه خضرا" في روايته (فضل الليل على النهار) إذ وثق لانتشارها في مدينة وهران في منتصف القرن التاسع عشر، حيث أهلك آلاف الأشخاص.

- "أفهمتي لوسات أن المصلين إسبانيون، يحجون كل سنة في يوم "الصعود" ويتحملون هذا الامتحان الشاق كي يشكروا "العذراء" على إنقاذ مدينة وهران القديمة من وباء الكوليرا الذي أهلك آلاف العائلات في 1849).<sup>1</sup>

كما عرج على ذكرها الكاتب "واسيني الأعرج" في إشارة سريعة، عند تعرضه لعدد سكان مدينة معسكر فترة مبايعة الأمير عبد القادر في القرن التاسع عشر. وأوضح بأن سكان المدينة الذين كانوا مزيجا بين الموريسكيين المهجرين والأتراك واليهود تراجع عددهم بسبب الكوليرا التي قضت على عدد كبير منهم.

- "في المدينة عشرة آلاف ساكن يتوزعون بين الموريسكيين المهجرين واليهود والكوروغلي. الكوليرا التي استمرت 18 يوما في أكتوبر 1834 أكلت أكثر من ألف وخمسمئة ساكن".<sup>2</sup>

هذا وتطرق "واسيني الأعرج" في روايته (رمل المائة) لتفاصيل معاناة العجوز الموريسكية التي كانت مصابة بالطاعون. غادرت قسرا مع الكثير من الموريسكيين مدينة غرناطة، هربا من عذاب محاكم التفتيش الصليبية، وهناك على الأرمادة عانت من قهر معاملة البحارة، ومن جرح النفى خارج الأندلس نحو أرض مجهولة، ومن ألم الوباء.

<sup>1</sup> - فضل الليل على النهار، ص 77.

<sup>2</sup> - كتاب الأمير، ص 77.

الكاتب عرض لأمر خاصة بالوباء كشدته ألمه، وانتشاره عن طريق العدوى والفئران. في مشاهد تبعث في النفس أما بسبب معاناة العجوز وتعلق شيخها بها، الذي كان يحاول التخفيف من مرضها، وحمايتها من البحارة الذين أرادوا رميها في البحر خوفاً من انتقال الوباء إليهم.

- "أرجوك لا تكثر الكلام، يجب أن تلقي بها في البحر. إنها ميتة والفئران كثيرة على متن السفينة والطاعون لا يرحم."<sup>1</sup>.

الكاتب أراد من خلال تطرقه لوباء الطاعون أن يتعمق في مدى معاناة المسلمين الذين عانوا الويلات بسبب الحروب والتهجير.

المدن الصناعية الكبيرة لا ترحم ساكنيها. فهي تعج غالباً بحوادث الطرقات وحوادث العمل. فعمال مصانعها الكادحين البسطاء يتعرضون للأمراض والحوادث الخطيرة بشكل دائم. هذا ما لفت اهتمام الكتاب أيضاً.

مدينة سياتل واحدة من المدن الأمريكية الصناعية التي يعاني عمال مصانعها من الأمراض الخطيرة.

- "رأيت الكثيرين منهم يموتون بسبب الحروق العميقة والسُموم التي تبثها مصانع طائرات البوينغ والميناء والصناعات البحرية والنقص الفادح للأعضاء البشرية، والأمراض الفتاكة التي تأكل الإنسان جزءاً جزءاً، بدون أن يتمكن الطب من فعل أي شيء. سمعت الأطباء وهم يتحدثون عن أمراض العصر التي ولها زماننا بكل صغره وأنانيته"<sup>2</sup>.

الكاتب بتعرضه لأمراض وحوادث المصانع، أراد تبيان معاناة المهاجرين العرب، الذين يتم استغلالهم في هذه المهام الخطيرة. كما عكس قبح المدينة وعنفها الذي لا يحترم حياة الإنسان وسكنته.

<sup>1</sup>- رمل المائة، ص 87.

<sup>2</sup>- سوناتا لأشباح القدس، ص 37.

الكاتب "طاهر وطار" ورغم أنه وظف الزلزال بشكل رمزي غالبا. فقد وثق لزلزال حقيقي أيضا شهدته قسنطينة وكان له وقع كبير على سكانها الذين لا يزالون يحتفظون بذكره المؤلمة.

- "هنا كانت تقوم عدة دور، بطوابق متعددة، يتنفس فيها الناس، ويشربون ويأكلون، ينامون ويستيقظون. يجبون ويغضون، يتأملون ويفحشون. ناموا ذات مساء ولم يستيقظوا. تحركت صخرة من تحتهم فتداوبت جدران منازلهم فوقهم".<sup>1</sup>

الكاتب "محمد مفلح" هو الآخر تطرق إلى ظاهرة الزلزال. فعاد بنا إلى مدينة وهران في القرن الثامن عشر ميلادي، وبالتحديد إلى سنة 1790م. حيث أشار في مشاهد سريعة وقصيرة إلى الزلزال الذي حل بمدن الغرب وبوهران. ولم تكن إشارات هذه تتعدى التوثيق التاريخي للأحداث، رابطا إياها بثورة الجزائريين على الغزو الإسباني:

- "لقد أحدث الزلزال خسائر كثيرة وأدخل الفزع في قلوب الأسبان ولم يبق لنا إلا الاستعداد للجهاد".<sup>2</sup>

ووثق الكاتب "واسيني الأعرج" لكارثة الجفاف الذي عرفته مدن الجزائر وأريافها في المنتصف الأول من القرن التاسع عشر. توقف هطول الأمطار لمدة طويلة، ونضبت العيون، فانتشرت المجاعات والأمراض.

- "سنة أخرى تمر من الحر والأمراض والجفاف وتشقق الأرض، ولا شيء في الأفق سوى عواء الذئاب".<sup>3</sup>

لم يسترسل الكاتب كثيرا في تقديم تفاصيل كارثة الجفاف. لكنه عرج عليها ليقحمنا معه في الجو العام لأحداث الرواية. كما جعل تماطل الأمطار والانفراج من الكارثة مصاحبا لليوم الذي بايع فيه سكان معسكر، وشيوخ القبائل الأمير، كرمزية للخير القادم والمرتقب من مبايعة عبد القادر أميرا على المسلمين في الجزائر.

رصد الكوارث الطبيعية في الكتابات الروائية لا يحضر لدافع التوثيق فحسب، بل قد يكون متخيلا لتحقيق فعل الإثارة والتشويق، وإضفاء نوع من الشعرية والمأساة على المشاهد.

- "لم يكن شتاء 1575 عاديا. كان باردا وجافا. إضافة إلى أن السنة كانت سنة فيضانات سحبت وراءها الكثير من الناس والبنائيات في القصبة، وجعلت البحر يأكل جزءا من سوق العبيد".<sup>4</sup>

<sup>1</sup>- الزلزال، صص 170-171.

<sup>2</sup>- محمد مفلح، شعلة المائدة، دار طليطلة، دط، الجزائر، 1010م، ص 90.

<sup>3</sup>- كتاب الأمير، ص 64.

<sup>4</sup>- البيت الأندلسي، ص 248.

ورغم أن مدن الجزائر شهدت كوارث طبيعية كثيرة كالزلازل والفيضانات، إلا أننا لم نعثر على رواية خصصها صاحبها كاملة لوصف وسرد مشاهد تفصيلية لكارثة ما.

## 2-3 الجوع وشظف الحياة:

على امتداد صفحات رواية (الدار الكبيرة) لـ "محمد ديب" نستشف مدينة تلمسان، بصور كاسفة وحزينة، غارقة في الألم والبؤس والأنين، الذي يصدر من سكانها من الأهالي الجزائريين في النصف الأول من القرن العشرين. كفاح يومي يفوق التصور من أجل تحصيل كسرة خبز، في مدينة بدت قاسية جدا، وظالمة وغير عادلة، تحقق الثراء والحيوات الباذخة للفرنسيين والمقربين للإدارة الفرنسية من الجزائريين، وتطأ ببؤسها وعذاباتها على رؤوس الكادحين من الأهالي. حتى فصولها بدت متواطئة مع المعتصب الفرنسي؛ شتاؤها بقساوة برده وعواصفه، وصيفها بشدة حرارته وشمسه الحارقة. شوارعها ومدارسها هي الأخرى أقل رحمة، تكرر للتهميش والعنف العنصري.

الكفاح الذي تجلّى في (الدار الكبيرة) مع عمر وأمه عيني، وباقي أبطال الرواية، عكس من خلاله الكاتب صورة الألم والحمران في أوجهما، واللذين عاشهما سكان تلمسان إبان الفترة الاستعمارية.

المستعمر الفرنسي، الذي أراد أن يشغل فكر الأهالي بالركض وراء توفير لقمة خبز، بدلا من تفكيره في الثورة والحرية.

في ذات الفترة، أي في المنتصف الأول من القرن العشرين. يرصد "كاتب ياسين" في روايته (نجمة) معاناة الشعب الجزائري. سكان مدن الشرق تحديدا، قسنطينة وعنابة وقلمة وسطيف. لم يكونوا بأفضل حال من أهالي مدينة تلمسان. لم يتجاوز طعامهم غالبا خبزا قفارا.

- "وجه ملتهب، لحية، قميص وسخ وقطعة خبز قفارا"<sup>1</sup>.

- "عمل وخبز. هذه هي أحلام الشباب"<sup>2</sup>.

هذا وقد أشارت روايات كثيرة للمجاعات التي عانى منها سكان المدن الجزائرية في الفترة الكولونيالية. غير أنها لم تقدم بالصورة البائسة والموجعة والدقيقة التي قدمها بها "محمد ديب" في ثلاثيته (الدار الكبيرة، الحريق، النول). وغالبا ما ربط الروائيون الجوع وذنك الحياة بضواحي المدن في أكواخ المهاجرين، والوافدين من القرى والأرياف.

<sup>1</sup> - نجمة، ص 254.

<sup>2</sup> - نجمة، ص 255.

ولعل رواية (كاماراد صديق الحيف والضياع) من أكثر الروايات الجزائرية التي تناولت قسوة الحياة وقتامتها التي يعيشها مهاجرو المدن الإفريقية، الوافدون بالآلاف للجزائر. تعمق الروائي "الصدّيق حاج أحمد الزيواني" في يوميات عدد من الرفاق الأفارقة الذين وفدوا من مالي ونيجر. دفعتهم الفاقة إلى ترك أوطانهم وأحبّتهم لأجل تحقيق حياة أكثر كرما وإنسانية.

يروى الكاتب قصة مهاجر مسلم من نيامي عاصمة نيجر، يدعى مامادو، اضطر لبيع بقرتهم الوحيدة ليقدّم ثمنها لسماسرة التهجير السري، كما اضطر لانتحال شخصية رجل مالي مسيحي لتسوية أوراق الهجرة. عكس لنا الكاتب "الزيواني" على مدار الرواية شقاء ومعاناة المهاجرين في الدروب والمسالك الصحراوية الوعرة.

يصف الكاتب على لسان بطله مامادو عمق الحرمان والفقر الذي عرفه سكان مدينة زندر النيجرية. طاهم الجوع حتى باتوا ينقبون في غيران النمل ليلتئموا ما ادخره النمل من طعام لفصل الشتاء.

- "إنها عاشت الفقر وعشناه معها، لكن لم تعتقد ما كانت تسمعه من أخبار الفقر وأهواله عند أهل ناحية زندر!!"<sup>1</sup>.

مهاجرو مدن نيجر أقصى أمنياتهم الهجرة للتسول في الشوارع، وضمان كسرة خبز.

- "ربما ما يميز هذه المجموعة عن غيرها، وجود الشيوخ والنساء الضامرات مع أطفالهن، غاية أحلامهم ومنتهمى فردوسهم، أن يصلوا طاما وينزرعوا في شوارعها يتسولون، بطاسات التوتيا الصغيرة."<sup>2</sup>.

وحتى القادرين منهم على السفر بعيدا، أحلامهم ليست ببعيدة عن توفير لقمة العيش. ملخصة في حصائر يفتروشونها على الرصيف وزوايا الشوارع، يبيعون النظارات الشمسية، والدهون والعقاقير المحلية وبعض العطور الرخيصة.

1- كاماراد صديق الحيف والضياع، ص120.

2- كاماراد صديق الحيف والضياع، ص121.

هذا وبسط لنا الكاتب مشاهد أخرى مؤلمة للمهاجرين أثناء تعرضهم للجوع والعطش، حتى اضطرب بعضهم لشرب بولهم لضمان الحياة. البؤس بقي ملازماً للمهاجرين الأفارقة الذين تمكنوا من البقاء أحياء. حتى بعد دخولهم للمدن الصحراوية الجزائرية ظل الجوع والحلم بتناول وجبة دسمة ملازمين لهم.

- "الطهي لم يكن يستغرق وقتاً طويلاً، لا يخلو أن يكون عجائن معكرونة أو أرزا".<sup>1</sup>

ما من شك أن الكاتب أراد أن يوصل هذه العوالم البائسة للمهاجرين للعالم ككل حتى يعكس مدى بشاعة الحروب، ونذالة الحكام، وغياب العدالة والمساواة بين البشر.

الكاتب "واسيني الأعرج" من أكثر الكتاب الذين وثقوا للمجاعات التي عرفت المدن في أعماله الروائية. في روايته (كتاب الأمير) وثق الكاتب لعام الجراد الأصفر الذي شهدته المدن الجزائرية في بدايات القرن التاسع عشر، تحديداً سنة 1832. عرض لهذه الظاهرة المؤسفة في مشاهد مؤلمة، صور من خلالها ما لحق الجزائريين من معاناة وبؤس بعد التهام فلول الجراد لمعظم المحاصيل في المزارع والبساتين والحقول. وكل ما في السهول والروابي في مدينة معسكر وضواحيها، وباقي مدن الجزائر.

- "هو عام الجراد الأصفر، عام الموت والخراب حيث جف الماء ونضبت العيون وكثر القتال والحروب بين الأشقاء حول أشفاه الأسباب".<sup>2</sup>

انتشر الجفاف وشحت السماء، ونضبت العيون، فعان الناس من العطش والجوع والحر، وتفشت الأمراض ففتكت بالصغار والكبار. حتى الذئب في البراري والغربان والجوارح تضورت جوعاً، وصار عواؤها ونعيقها وصفيرها يملأ الأفق.

كما عرض أيضاً إلى تفشي المجاعة في خضم حديثه عن التحولات التي شهدتها مدينة القدس في بدايات القرن العشرين بسبب مصادرة القمح والحنطة من طرف جمال باشا لصالح الجيش سنة 1916م. كما وثق الكاتب لواقعة غزو الجراد لفلسطين والمناطق المجاورة لها، حيث التهمت أسراب الجراد كميات كبيرة من الفواكه والخضروات والبقول والأعلاف والحبوب. مما أثر على امدادات الغذاء في القدس، وتفاقم بؤس المقدسيين. وانتشرت المجاعة انتشاراً واسعاً في بيروت والمدن الأردنية أيضاً.

<sup>1</sup>- كاماراد صديق الحيف والضياع، صص 205-206.

<sup>2</sup>- كتاب الأمير، صص 65.

- "ثم بدأت المجاعة في لبنان وانتقلت إلى مدن سورية وفلسطين (...) كان الفقر في بيروت مرضاً قاتلاً إذ كانت تنتشر على طرفي الطريق الرابط بين الثكنة العسكرية في رأس بيروت وساحة البرج في مركز المدينة، العشرات من الجثث ملقاة، تنتظر أن تأتي عربة البلدية لتنقلها إلى حيث تدفن".<sup>1</sup>

وزادت الحروب وتسلط وغطرسة الأتراك والألمان بؤس الأهالي، فانهالت وفود المهاجرين من السلبيين والفحيصيين وغيرهم إلى القدس. الأمر الذي أدى إلى الزيادة في حدة المجاعة وانتشرت الصراعات، وكثرت الأحقاد بين المهاجرين والمقدسيين.

- "لقد أصبحت هذه العائلات نكبة على القدس إذ كثر تشكيهم وحقدهم"<sup>2</sup>.

الكاتب "عبد الوهاب عيساوي" أشار هو الآخر إلى المجاعة التي حلت بالمحروسة زمن الحكم العثماني، وربطها بغلاء المعيشة وغزو أسراب الجراد التي أتت على الكثير من سهول ومزارع المدينة. لكنه لم يقدم مشاهد تفصيلية لأحوال الناس ومعاناتهم جراء المجاعة. غير أنه جعل من المجاعة مدخلا عكس من خلاله جشع التجار اليهود الذين احتكروا القمح، وشحنوه لفرنسا بدلا من بيعه للأهالي الذين كانوا يتضورون جوعا.

- "التجار الذين وصلوا إلى المحروسة قادمين من وهران قالوا إن سفينة فرنسية حملت قناطير القمح من الميناء، بينما كان الناس يتضورون جوعا، ويأكلون خبزا معجونا من القمح الأسود."<sup>3</sup>

رصد الكاتب "جيلالي خلاص" هو الآخر شظف الحياة وقسوتها في مدينة الجزائر على امتداد تاريخها منذ الاحتلال الفرنسي إلى العهد الراهن. وحرص في مشاهد عديدة على تصوير آلام الرعية المضطهدة من طرف حكامها. هذه الرعية البائسة التي فاض غضبها، وهجمت زمرا على قصور الأغنياء ودورهم عندما عمت المجاعة أرجاء المدينة، بعد قضاء الجراد على كل ما جادت به الحقول تلك السنة.

1- كتاب الأمير، ص 65.

2- كتاب الأمير، ص 65.

3- الديوان الإمبرطي، ص 58.

فلول الجراد حسب ما جاء في رواية الكاتب (حمائم الشفق) غزت أيضا قصور الأغنياء، بل حتى جدران البيوت والديار لم تسلم منه، إذ نخرها وكاد يقضي على كل أسقفها القرميدية ونوافذها وأبوابها الخشبية.

- "فقدت المدينة ثمارها اليانعة وسنابل قموحها المذهبة قبيل الحصاد وجير أسوارها الصخرية واحمرار سطوحها القرميدية وسواد أزقتها المسفلتة، حتى إذا انقرض الجراد فجأة كما غار على المدينة فجأة، بدت هذه الأخيرة منطقة مثقبة كجلد ثور أبيض عملاق هذه الجرب ناتفا وبره وناخرا حتى بشرته النينة"<sup>1</sup>.

الكاتب أراد بتوثيقه لعام الجراد والمجاعة التي تلت أن يصور البؤس الذي تشهده المدينة منذ عقود متتالية، وكأها مدينة خلقت للحزن والعتمة والفقر، كما سعى من وراء هذا التوثيق أن يكشف الهوة الكبيرة بين فقراء المدينة وأغنيائها.

الفقر والتسول من المظاهر التي باتت تتكرر في المدن الكبيرة. يرصد الكاتب "طاهر وطار" ما عرفته مدينة قسنطينة من مظاهر الفقر والتسول. وعمق البؤس والعوز في مرمى نفايات المدن. عالم من الأشباح الحفاة العراة، الذين يتقاتلون حتى الموت لأجل الظفر بعظمة أو بلقيمة من الطعام العفن.

- "خلق كثير من سكان الأكواخ. شيوخ وكهول وأطفال، ذكور وإناث، يحومون طوال السنة حول مزبلة بولفرايس، يلتقطون الفضلات والمرميات، العظام التي يلقيها الناس، يعيدون هنالك طبخها في الماء لتطلق لهم رائحة الآدام، عالم آخر هنالك، بتجاره وسماسته، وزعمائه ومستغليه ونظامه وأمنه، يقيم بها العراة"<sup>2</sup>

تجدر الإشارة أن هذه المجاعات التي جاء على ذكرها الروائيون هي مجاعات حقيقية شهدتها المدن العربية. أفرزتها المتارب والمسكنة والحروب وأسراب الجراد. وهي إذن توثيق لما حدث ويحدث في المدن المهمشة كالمدين الإفريقية، والمدن التي لا تزال واقعة تحت الاحتلال كمدن فلسطين، أو التي تشهد حروبا أهلية كمدن سوريا واليمن وليبيا.

<sup>1</sup>- حمائم الشفق، ص74.

<sup>2</sup>- الزلزال، ص89.



A decorative border with a repeating floral and vine pattern in green, purple, orange, and red, set against a gold background. The border frames the central text.

# الخاتمة

## الخاتمة:

يقينا، فإن الخاتمة لا تجيب على التساؤلات التي يطرحها البحث مسبقا فحسب، بل قد تجيب أو تقدم ملاحظات لم تكن في المتوقع.

وأهم ما يمكن إجماله من نتائج توصلت إليها الدراسة:

- استطاع الروائي الجزائري رصد مسار تحولات المدينة في فترات زمنية مختلفة. كما برع في تتبع تغيراتها وملاحظتها الطبوغرافية، ونظمها الاجتماعية، وأنساقها الثقافية، وقيمها الدينية.
- استوعب الكاتب الجزائري خصوصيات عدة مدن جزائرية وشرقية وغربية. وسعى إلى إبرازها أنثروبولوجيا، ومعماريا واجتماعيا واقتصاديا وإثنيا وعقائديا. كما حرص على تصوير دفع الحياة الإنسانية فيها.
- متحت الرواية الجزائرية من تاريخ المدن الموعلة في القدم كبغداد وغرناطة وقسنطينة. ومارست فعل الإزاحة، وتحريك الثوابت، والماهيات المتجدرة. في مشاهد أقرب إلى التثوير الفكري، لتعرية الحاضر السياسي والديني والاجتماعي للمدن الحديثة.
- لم يوفق الروائي الجزائري في استحضار كاف لبعض المدن ذات الثراء الروحي والديني والتاريخي والثقافي والجغرافي في التاريخ العربي الإسلامي كمدينة مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ومدينة القدس، ومدن الأندلس على الرغم من أهميتها.
- حضور بعض المدن ذات الأهمية في التاريخ العربي الإسلامي كان غالبا في صيغة بعض الشخصيات التاريخية، وفي صيغة حلم أو فكرة أو أغنية، أو لوحة فنية. أو شيء أو معلم أثري.
- شخصيات المدينة في الرواية الجزائرية حضرت في صورتين متباينتين. شخصيات ساهمت في بناء وعمارة واستقلال المدينة، وشخصيات ساهمت في إفسادها واحتلالها وسقوطها.
- الروائيون الجزائريون المهتمون بالتجديد، وكسر المألوف في تقديم الزمن، لم يتقيدوا بالترتيب الزمني الكلاسيكي، وتخلّى بعضهم عن البدايات والنهايات المعروفة لقصص العلاقات الإنسانية، ومسارات سقوط المدن. وعلى الرغم من ذلك فأزمة الزمن الراهنة لم تشغل بال وفكر الروائي الجزائري كثيرا. فلم نعثر على روايات بني فيها الزمن أو طرح بشكل فلسفي أو مختلف وعميق. باستثناء بناء الزمن بالأشكال المعروفة المستلهمة من القرآن الكريم والسينما والموسيقى. من حيث المونتاج والزواية والإسراع والإبطاء وتقريب الصورة، والتكثيف والتلاشي والتنويع في الحركة وغيرها.
- يمكن تقسيم الزمن في الرواية الجزائرية من حيث علاقته بالمدينة إلى زمن متماسك متعاقب. حمل من خلاله الكاتب الجزائري قيما زمانية هامة، وعكس من خلالها تعاقب الفصول الأربعة، والليل والنهار،

وأسابيع وأيام السنة على المدينة في مشاهد أشبه باللوحات الفنية. وإلى زمن متشظ، جعلت منه الرواية الجزائرية إشكالية وموضوعا، وأبرزت من خلاله معاناة الذات في رحلة بحث متعبة عن أزمنة مفقودة. كما وفقت بعض الأعمال الروائية في تصوير المدن التي تعاني أزمة زمن، فقدموها بشكلها الكاسف الحزين في جدلية عميقة بين الفقد والاعتراب.

- متح الكاتب الجزائري من عدة علوم وفنون كالتاريخ والفن المعماري، وفن الفوتوغراف، والرسم والموسيقى. واعتمد استراتيجيات وتقنيات متعددة لتقديم مدينته. كتوظيف الحواس من نظر وروائح وألوان، وعناصر الطبيعة. وتقنية التأطير في صيغ صور فتوغرافية أو لوحات فنية أو مشاهد ساكنة من نوافذ وشرفات وإطلالات.

- عدد ليس بالقليل من الروائيين الجزائريين برز اهتمامهم بفن عمارة المدن الحديثة، وتخطيطها الهندسي. كما ظهر جليا إحساسهم المرهف والعميق اتجاه العمارة التراثية، خاصة منها العمارة التراثية الصحراوية، والأندلسية، والمعالم الأثرية العريقة، التي تيقنوا أنها جزء أصيل من هوية المدن وتاريخها وثقافتها، فخلدوها، ودعوا إلى المحافظة عليها. فضلا عن ميلهم وتفضيلهم للطرز المعمارية القديمة على الطرز المعمارية الحديثة. هذه الأخيرة التي اعتبروها خالية من الإثارة، وبلا روح.

- نعتبر بعد رحلة بحث دامت لأكثر من ثلاث سنوات أن الروائي "واسيني الأعرج" أكثر كاتب جزائري استطاع استحضار المدينة في أعماله الروائية، بصورة عكست إدراكه ووعيه الكبيرين بأهميتها كونها الفضاء الحاوي للفن والإبداع الإنساني، والمرآة العاكسة للقيم التاريخية والأخلاقية والروحية والجمالية للأمم، عبر أزمنتها المخت

## الملخص:

شغلت المدينة فكر واهتمام الأدباء والنقاد منذ القدم. وبقي الاهتمام بها متواصلا ليومنا هذا. فتناولوها في مختلف أبعادها الفلسفية والتاريخية والاجتماعية والجمالية والجغرافية والطبوغرافية. وتطرقوا لعلاقتها بالاغتراب والتشظي والتأزم الهوياتي. والصراعات العقائدية والثقافية والإثنية والجغرافية والتاريخية. فظهرت بذلك أساطير وملاحم وأشعار ومقامات وقصص وسير وروايات ومسرحيات، ومقالات ودراسات نقدية، وملتقيات وطنية ودولية تتناول مواضيع كثيرة وعميقة خاصة بالحرب والسلطة والعنف والفساد، والصراع بين الأنا والآخر. والمرأة والهجرة والنفي والأرض والعمارة والحب والصداقة والجمال واللذة في المدينة. فضلا عن الأنساق الثقافية، والأبعاد الدينية والاجتماعية والحضارية للمدينة.

انطلاقا مما سبق، سعت دراستنا هذه والموسومة بـ (المدينة في الرواية الجزائرية) إلى رصد حضور المدينة في النص الروائي الجزائري، لا من حيث كونها كتلا إسمنتية صماء، ولا من حيث كونها مجرد خلفية للأحداث أو مسرح لتحرك شخصيات الرواية، بل من حيث أنها نسق من العلامات القابلة للقراءة السيميائية.

الكلمات المفتاحية: المدينة، الرواية الجزائرية.


**Summary:**

The city has occupied the thought and interest of writers and critics since ancient times. The interest in it continues to this day. They tackled it in its various philosophical, historical, social, aesthetic, geographical and topographic dimensions. And they touched on its relationship to alienation, fragmentation and identities crisis. and ideological, cultural, ethnic, geographical and historical conflicts. Thus, legends, epics, poems, shrines, stories, biographies, novels, plays, articles and critical studies, and national and international forums dealing with many and deep topics related to war, power, violence, corruption, and the conflict between ego and other. And women, immigration, exile, land, architecture, love, friendship, beauty and pleasure in the city. As well as

the cultural patterns, and the religious, social and civilizational dimensions of the city.

Proceeding from the above, this study, which is tagged with (the city in the Algerian novel), sought to monitor the presence of the city in the Algerian novelist text, not in terms of being deaf cement blocks, nor in terms of being just a background for events or a theater for the movement of the characters of the novel, but rather in terms of being readable format semiotic Tag.

**Keyword:** the city, The Algerian novel.



# المصادر والمراجع

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

## 1-المصادر:

-الروايات الجزائرية:

- 1-أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط30، 2013م.
- 2-أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط12،
- 3-أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 2001م.
- 4-إسماعيل بيرير، وصية المعتوه، كتاب الموتى ضد الأحياء، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2013م.
- 5-أمين الزاوي، الملكة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2015م.
- 6-جيلالي خلاص، حمائم الشفق، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، ط2، 2021م.
- 7-حاج أحمد الصديق، مملكة الزيوان، دار فضاءات للنشر، عمان-الأردن، دط، 2013م.
- 8-حاج أحمد الصديق، كاماراد، رفيق الحيف والضياء، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2016م.
- 9-الحبيب السائح، أنا وحايم، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018م.
- 10-الحبيب السائح، تماسخت، دم النسيان، فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016م.
- 11-الحبيب السائح، تلك المحبة، فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016م.
- 12-حنكة حواء، عايشة، الرابطة الولائية للفكر والإبداع، الوادي، الجزائر، دط، 2016م.
- 13-جيلالي خلاص، حمائم الشفق، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، ط2، 2021م.
- 14-رشيد بوجدره، تميمون، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ط1، 1994م.
- 15-الطاهر وطار، الزلزال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، 1974م.
- 16-عبد الوهاب عيساوي، الدوائر والأبواب، ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018م.
- 17-عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018م.
- 18-عبد الوهاب عيساوي، سينما جاكوب،
- 19-فضيلة الفاروق، أقاليم الخوف، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 2010م.
- 20-كاتب ياسين، نجمة، تر: السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2014م.

- 21- محمد أحمد زغب، المقبرة البيضاء، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1، 2005م.
- 22- محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، دار الهلال، القاهرة، مصر، دط، 1970م.
- 23- محمد ديب، الحريق، تر: سامي الدروبي، دار الهلال، القاهرة، مصر، دط، 1970م.
- 24- محمد ديب، النول، تر: سامي الدروبي، دار الهلال، القاهرة-مصر، دط، 1970م.
- 25- محمد مفلح، شعلة المائدة، دار طليطلة، الجزائر، دط، 2010م.
- 26- محمد ولد الشيخ آغا، مريم بين النخيل، فواصل للنشر والإعلام، غرداية-الجزائر، ط1، 2020م.
- 27- مليكة مقدم، الممنوعة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م.
- 28- واسيني الأعرج، البيت الأندلسي، منشورات الجمل، بيروت-لبنان، ط1، 2001م.
- 29- واسيني الأعرج، رمل المائة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق-سوريا، ط1، 1993م.
- 30- واسيني الأعرج، سوناتا لأشباح القدس، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط1، 2009م.
- 31- واسيني الأعرج، سيدة المقام، مراثي الجمعة الحزينة، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2001م.
- 32- واسيني الأعرج، كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط2، 2008م.
- 33- واسيني الأعرج، نوار اللوز، تغريدة صالح بن عامر الزوفري، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1983م.
- 34- ياسمينه خضراء، الصدمة، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط1، 2007م.
- 35- ياسمينه خضراء، فضل الليل والنهار، تر: محمد ساري، وزارة الثقافة، دط، 2017م.
- 36- عمارة لخص، كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2006م.

#### -القواميس:

-أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان، ط3، 1994م، ج12.

#### -المراجع:

- 1- أحمد مندولا، الزمن والرواية، تر: بكر عباس، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 1997م.
- 2- الأخضر بن السائح، جماليات المكان القسنطيني، قراءة في رواية ذاكرة الجسد، منشورات دار الأديب، وهران-الجزائر، دط، 2007م.
- 3- أرسطو طاليس، السياسة، تر: أحمد لطفي السيد، منشورات الجمل، بيروت-لبنان، ط1، 2009م.
- 4- أمينة رشيد، تشظي الزمن في الرواية الحديثة، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط1، 1998م.
- 5- إيمان جريدان، هوية المكان وتحولاته، دار الكافي للنشر والتوزيع والترجمة، الشلف-الجزائر، ط1، 2020م.
- 6- جمال حمدان، جغرافية المدن، عالم الكتب، القاهرة-مصر، ط2، دت.

- 7- حسن نجمي، شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000م.
- 8- حسين حمودة، المدينة والرواية، نماذج من كتاب الستينيات في مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 2000م.
- 9- خالد حسين حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لإدوارد الخراط نموذجاً، مؤسسة الإمامة الصحفية، الرياض-المملكة العربية السعودية، دط، 2000م.
- 10- رشيد بن يمينة، بواكير الرواية الجزائرية، دار تفتيت للطباعة والنشر، وهران-الجزائر، ط1، 2013م.
- 11- سعيد بوطاجين وآخرون، المحكي الروائي العربي، أسئلة الذات والمجتمع، دار الألفية للنشر والتوزيع، ط1، 2014م.
- 12- سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013م.
- 13- سيزا قاسم، بناء الرواية، مكتبة الأسرة، مصر، دط، 2004م.
- 14- صلاح صالح، المدينة الضحلة، تثريب المدينة في الرواية العربية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، ط1، 2014م.
- 15- فليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط1، 2013م.
- 16- علي حرب، حديث النهايات، فتوحات العمولة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط3، 2005م.
- 17- علي عبد الرؤوف، مدن العرب في رواياتهم، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة-مصر، ط1، 2017م.
- 18- علي عبد الرؤوف، من مكة إلى لاس فيجاس، أطروحات نقدية في العمارة والقداسة، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة-مصر، ط2، 1014م.
- 19- عمر فاروق طباع، فنون الشعر العربي، دار القلم، بيروت-لبنان، ط1، 1992م.
- 20- عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1982م.
- 21- محمد جابر العابدي، قضايا الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط1، 1997م.
- 22- محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
- 23- مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1995م.
- 24- أبو نصر الفارابي، آراء المدينة الفاضلة، تحقيق: ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت-لبنان، ط2، 1968م.

### 3-المراجع الأجنبية:

- 1-Gaston Bachelard, La poétique de l'espace, Presses universitaires de France, Paris- France, 3éme ed, 1961.
- 2-Roland Barthes, La chambre Claire, note sur la photographie, Editions de l'Etoile, Gallimard, Le Seuil, Paris, 1980.

### 4-الدوريات:

- 1-حسين مجيد حسين، أنسنة المكان في رواية هولير حبيتي، مجلة قه لاي زانست العلمية، أربيل، كوردستان، العراق/ مجلد 3، العدد 4، خريف 2018م.
- 2-عبد الغني عراب، تطور الصحافة في الجزائر-التاريخ والواقع، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، مج 4، ع1، 30 أفريل 2011م.
- 3-عمار الثويني، حرفة الدهشة والمخادعة السردية، جريدة النهار، ع2467، 20أفريل 2021م.

الصفحة	فهرس المحتويات
01	مقدمة
07	مدخل: أسئلة المدينة والرواية
22	الفصل الأول: تحولات المدينة بين الرمز والذاكرة
22	المبحث الأول: مسار تحولات المدن وأبعاده الرمزية
22	المطلب الأول: المحروسة قصة مدينة
32	المطلب الثاني: سعيدة معنى المدينة
39	المطلب الثالث: قسنطينة مسار تحول
47	المبحث الثاني: مدن الذاكرة المقدسة
47	المطلب الأول: الأندلس نوستالوجيا الفردوس المفقود
54	المطلب الثاني: القدس زهرة المدائن
59	المطلب الثالث: مكة مدينة الله
66	الفصل الثاني: إنتاج المعنى بين التقاطبات المدينية والشخصيات والزمن
66	المبحث الأول: التقاطبات المدينية في الرواية
66	المطلب الأول: المدينة والمطر
73	المطلب الثاني: المدينة والليل
77	المطلب الثالث: المدينة واللذة
81	المبحث الثاني: شخصيات وزمن المدينة وتشكيلها السردى
81	المطلب الأول: شخصيات المدينة
96	المطلب الثاني: زمن المدينة
107	المطلب الثالث: التشكيل السردى لإنتاج المعنى
121	الفصل الثالث: جماليات المدينة وعنفة الحياة
121	المبحث الأول: جماليات المدن

121	المطلب الأول: معالم المدن
127	المطلب الثاني: الإحساس بالعمارة
145	المطلب الثالث: جدلية المدينة بين الماضي والحاضر
150	المبحث الثاني: ديستوبيا المدينة العنيفة
150	المطلب الأول: مآسي المدن
159	المطلب الثاني: الأوبئة والحوادث والكوارث في المدن
162	المطلب الثالث: الجوع وشظف الحياة
168	الخاتمة